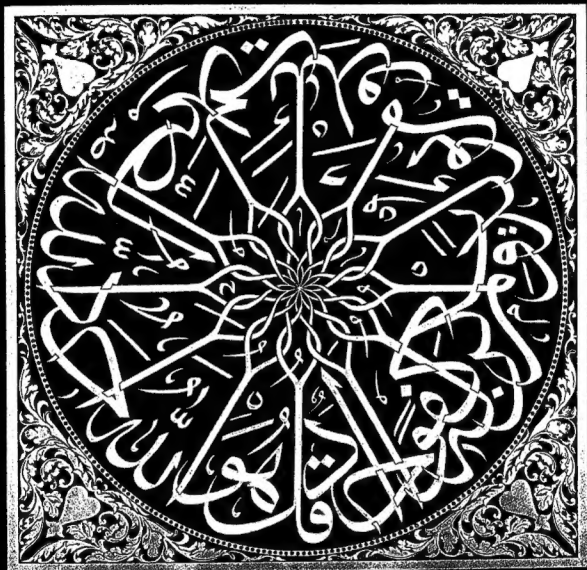




—
VA
—



GOETHE-INSTITUT



سورة الاخلاص، بخط الفنان الأنغاني عن الدين وكيلي

تداولنا

في العدد الماضي الحرب على العراق، واليوم، وبعد مرور أكثر من ستة أشهر على صدور العدد، مازال الوضع في العراق غير مستقر والمستقبل في غموض. لكن ماذا

بشأن أفغانستان بعد سنتين من إسقاط حكومة طالبان؟

وكما كان الأمر قبل الحرب على العراق، فقد جرى الحديث هنا أيضاً عن تحرير البلاد وإرساء الديمقراطية فيها بعد التخلص من المظطهدين (طالبان)؛ وكثرت الوعود حول تقديم مساعدات مالية وتقنية إلى هذه الدولة الفقيرة بعد سنوات من حكم حركة متشددة. «فكر وفن» أخذت على عاتقها أن تفتح ملف أفغانستان بعد سنتين من إسقاط نظام طالبان لتقديم للقارئ ماذا حصل مع هذه الوعود والأمال التي راقت حرب إزاحة طالبان. علاوة على ذلك نسعى إلى إلقاء الضوء على النواحي الكثيرة المهملة في تاريخ هذا البلد ونظهر التنوع الكبير الذي ميز أفغانستان وساهم في إضفاء الخصوصية عليها. وقد تركت الثقافات المختلفة، التي انتشرت في أفغانستان في الماضي، بصماتها إلى يومنا هذا وأثرت في الناس وطبعتهم بطابعها، كما تشهد عليه المقالات المنشورة في هذا العدد.

وحين يصل هذا العدد (٧٨) إلى أيدي القراء تكون أفغانستان قد دخلت في مرحلة حاسمة من تاريخها الحديث. فمن المقرر أن يتم إعداد دستور جديد للبلاد في عام ٢٠٠٤ وأن يتمكن الأفغان من انتخاب رئيس وبرلمان جديدين لهم انتخاباً حراً لأول مرة في تاريخهم. وستفقد الدولة التي مازالت تسمى إلى حين «دولة أفغانستان الإسلامية الانتقالية»، صفتها الانتقالية، وستوجه، لذلك، أنظار العالمين الإسلامي والغربي نحو أفغانستان في السنة القادمة، فالعلاقة بين الشرق والغرب ستدخل في طور جديد. إذ يسمى الغرب إلى أن يكون دستور أفغانستان المقبل، إلى حد كبير، علمانياً عصرياً يستلهم معاييرهم. في حين لدى الكثير من الأفغان والمراقبين المسلمين أولويات أخرى. والأمر الهام للأفغان أن يحصل إجماع لديهم، وأن يمكس هذا الدستور مصالح جميع الفئات السياسية والإثنية. وليس الحصول على دستور عصري يستلهم الأفكار الغربية هو ما يفترقه الأفغان وما هم بحاجة ماسة إليه، بل توحيد الأجزاء الممزقة في البلاد في كيان سياسي واحد. ويجدر القول إن ما يهم المسلمين، ليس في أفغانستان وحدها، هو الحفاظ على الهوية الإسلامية وعدم الانجرار وراء تقليد النماذج الغربية في بناء الدولة والدستور. تبدو هذه الأفكار أشد تعقيداً لأن التطور في أفغانستان سيؤثر في بلدان المنطقة التي تجد نفسها في سيروية تغيير كإيران والعراق وباكستان والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي السابق. لذا، فالضغوط كبيرة على المسؤولين في أفغانستان. وكيف ما تنتهي معركة الدستور، وإلى أين ستفضي الانتخابات البرلمانية، على الملحقين ألا يسرعوا في إطلاق الاستنتاجات والأحكام المرتجلة، بل عليهم الاعتماد على خبرة الأفغان أنفسهم والثقة فيها، خصوصاً أن الغرب يميل إلى النقد المتسرع وادعاء امتلاك الحقيقة إذا جرت المياه على عكس «ما اشتبهت سفته»، أي على عكس ما توقعته الحكومات الغربية وخبراء السياسة من الأكاديميين في الجامعات.

نحن في «فكر وفن» إذ نضع هذا الملف عن أفغانستان بين أيدي القراء، نتمنى لكل الأفغان بداية ناجحة نحو المستقبل الذي عليهم أن يقرروه بأنفسهم.

من الأدب الأفغاني



عزام ر. زرياب Azam R. Zaryab
حيات تحت شجرة الدردار ٤١

إضاءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْعَبْدُ ذِي النِّسْبَةِ الْكَاسِلَةِ الْكَاسِ
إِلَى الْكَاسِ مَسْمُوعِ الْوَيْسَانِيَّةِ

كاتارينا مومسن K. Mommsen
غوته في حوار مع العالم الاسلامي ٥٠

شتيفان فايندر Stefan Weidner
نظرة جديدة إلى الاستشراق ٥٧



حقوق الإنسان

كلوس كريس Claus Kress
أمريكا والمحكمة الجنائية الدولية ٦٤

أفغانستان



شتيفان فايندر Stefan Weidner
كابول الجديدة ٤

عتيق رحيمي Atiq Rahimi
أفغانستان: الثقافة أولاً ٨

مصطفى دانيش Mostafa Danesch
التصدي للكفار بالمخدرات ١١



ماكس كليمبورغ Max Klirnburg
بين الأسطورة والواقع ١٧

بنس اوفه هارتمان Jens-Uwe Hartmann
البوذية في أفغانستان ٢٣

يورغن فريمبغن Jürgen Frembgen
التصوف في أفغانستان ٢٨

ريناته إلزيسر Renate Elsässer
إعادة افتتاح معهد غوته في كابول ٣٣

راتيل آ. شامل Ratbil Ahang Shamel
المنفى موت الفنان ٣٦

دورته بيتاك Dörte Benack
هواجس الجيل الثاني من أفغان المنفى ٣٩

FIKRUN WA FANN, Nr. 78, 41. Jahrgang, 2003/04

فكر وفن، عدد ٧٨، السنة الحادي والأربعون ٢٠٠٣/٤

Herausgeber: الناشر:
Goethe-Institut e.V. معهد غوته

Redaktionsleitung: إدارة التحرير:
Stefan Weidner شتيغان فايدنر

Redaktion: التحرير:
Ahmad Hissou أحمد حسو
Stefan Weidner شتيغان فايدنر

Korrektur: المراجعة اللغوية:
Ibrahim Malik إبراهيم مالك
Ahmad Hissou أحمد حسو

Layout: الإخراج الفني:
Graphicteam Köln - Bonn ميشائيل كروب
Michael Krupp بون

Satz und Gestaltung: الصف والإخراج:
Amin Mohtadi م. أمين المهدي
Mohtadi Verlag, Köln المهدي للنشر، كولونيا

Bildassistentz: خدمة الصور:
Hella Roth هيللا روث

Druck: الطباعة:
Köllen Druck + Verlag, كولن للطباعة والنشر
Bonn بون

Kasparstr. 41 عنوان هيئة التحرير:
D-50670 Köln

E-Mail: البريد الإلكتروني:
Fikrwafann@aol.com

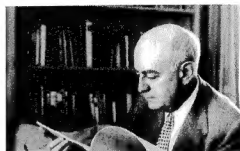
© 2003 Goethe-Institut e. V.
ISSN 0015-0932

Internet: إنترنت:
www.goethe.de/in/d/pub/fikrun/fikrun.html
www.qantara.de/arab/fikrun

«فكر وفن» مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة
وتتوزع مجاناً. يحق لأصحاب المكتبات أن يبيعوها بسعر
لا يتجاوز قيمته ٢,٥ يورو/دولار



مئوية أدورنو



Theodor W. Adorno تيودور أدورنو
موضوعات حول الأخلاق ٩٩

نشأته ثقافية



25 Jahre «Galerie Fikrun wa Fann»
٢٥ عاماً على «غاليري فكر وفن» ٧٢

Volker Neumann فولكر نويمان
الثقافة العربية ومعرض فرانكفورت ٧٦

Ahmad Hissou أحمد حسو
الشعر العربي في الأكاديمية الألمانية ٧٨

Alighiero Boetti أليغييرو بويتي
الفنان الايطالي وأفغانستان ٨٠



المقالات المنشورة في المبد لا تعبر بالضرورة عن
وجهة نظر هيئة التحرير ومعهد غوته.

كابول الجديدة صيف الفوضى الطويل

أفغانستان: سنتان بعد طالبان

كل شيء في أفغانستان يعيش في الوقت الراهن حالة ازدهار، ولا يقتصر ذلك على حقول الخشخاش المبتلة بعد جني محصولها فحسب، وهي التي تزود الجميع بمداخيل مالية مفيدة ابتداء من أمراء الحرب وحتى المزارعين الصغار وإنما يشمل ذلك أيضاً اقتصاد المحسورية وظاهرة الارتشاء، باعتبار أنه لا يستطيع حتى وزير مسؤول أن يضمن بقاءه بدونهما. كما تزدهر الأشاعات التي تبشئها المخابرات السرية الغربية وأخبارها المتعلقة بضرابات جديدة وتنظيمات طالبان والقتامة الوحشية المهيمنة على الروح الأفغانية. ولا يقتصر الازدهار على ما سلف ذكره في العاصمة الأفغانية فحسب، وإنما يزدهر فيها أيضاً ما هو جميل وممتع. وعلى سبيل المثال في يوم الجمعة الذي يعتبر يوم عطلة رسمية نجد الكل يشتمل: إما لأنه يتحتم عليهم الشغل، أو لأنهم يريدون ذلك أو يستطيعونه. في هذا اليوم تزدهر سماء كابول بالطائرات الورقية «الستين»، ذات الألوان السارة التي صنعها الأطفال من مواد بدائية، هي أوعية البلاستيك القديمة وأوراق الصحف المتهاكة وأغصان الشجر إلى جانب المصنوعات الصغيرة، وقد ربطوها بخيوط جعلتها تحلق عالياً في سماء كابول، ذات التلال المرتفعة. وقد يصل علوها إلى حدود المئة متر، مع العلم أنهم كانوا ممنوعين بشكل مطلق من ممارسة هذه الألعاب خلال حكم طالبان الذي استمر ست سنوات. لكن هذه الألعاب انتعشت الآن وازدهرت من جديد عبر نوع من الإبداع والدقة وكأنها لم تتوقف نهائياً من قبل، حسب ما وصفه الكاتب خالد حسين، المنتمي أصلاً إلى مدينة كابول ويعيش حالياً في أمريكا. فقد جاء في روايته التي تحمل عنوان: «اللاعبون بالطائرات الورقية The Kite Runner»، ونشرت في برلين ٢٠٠٣، وصف بارع لذلك، حيث صنع مختالاً أدبياً رائعاً لأطفال الطائرات الورقية في كابول. أما التحليق السعالي لها في أجواء كابول، الذي لا يمكن تجاهله فله ما يناسبه على أرض المدينة نفسها، حتى بالرغم من كون إدراك ذلك يعتبر أقل سهولة عبر أوقتها وشوارعها المكسوة بالأتربة، والسخام والهباب.

وللمقارنة، فالذي قد يكون ضل طريقه يوماً ما وتوغل في الأحياء الشعبية في القاهرة أو المدينة القديمة في الدار البيضاء أو في ضواحي بيروت المدمرة يمر على ارتسامات مألوفة لديه في مدينة كابول. ففي هذه المدينة التي بقيت إلى ما قبل ستين فقط ينظر إليها وكأنها في أقصى نهاية العالم جموداً، يرى الإنسان في كل زاوية من زواياها في الوقت الراهن متاجر ودكاكين صغيرة مليئة بمختلف السلع والبضائع، وفيها يتجول باتعو الخضف والفواكه بعرباتهم اليدوية عارضين أنواع العنب والتفاح والاجاص التي اشتهرت بها كابول منذ القدم. وتبدو ورشات الحرف اليدوية المظلة بنواصيها على الشوارع والتي غالباً ما احتلت جزءاً من طريق السير على الأقدام، تبدو وهي تعج وتموج بنشاط محموم يسمح للإنسان بالاعتقاد في حدوث معجزة اقتصادية. إذ غالباً ما يكفي استخدام مفتاح الصمولة وقطعة قديمة من المطاط ومنفاخ هواء لتحويل بقعة صغيرة من الشارع

كموعى المدينة. أما الشخص الذي مازال يتذكر ويعرف منذ الستينات والسبعينات صور مجموعات الأور وهي تهدم نفسها على متن مياه نهر كابول التي كانت آنذاك تتدفق بغزارة يتحتم عليه اليوم اعفاء نفسه من إلقاء نظرة على ذلك الجدول الآمن المتن الرائحة داخل مجرى النهر المحاصر بالفضلات والقمامة من جميع الجهات.

كل شيء ممكن في عاصمة أفغانستان

ففيها تم اتخاذ قرار نهائي في صيف الفوضى الطويل بوضع دستور قار للبلاد في نهاية العام الحالي أو بداية العام المقبل. وبينما يتحتم غالباً على العاملين في السفارات الغربية وعلى الكثيرين من العاملين في منظمات الإغاثة الدولية غير الحكومية، أن لا يتحركوا داخل المدينة إلا بعد الحصول على إذن خاص مسبق، كما لا يجوز لهم أن يتجولوا دون صحة سائق وسيارة جيب عسكرية لأسباب أمنية كما يقال، نجد الأفواج الأولى من السواح تتقاطر على شارع متاجر السجاد والزراعي ذي الترخيف الأبيض وهم يحملون بأيديهم قطع الأكر والسقاطات. لقد استلأت كابول بالأجانب لدرجة أن

إلى ورشة مزدهرة لتصلح الدراجات الهوائية. فالخفر الناجمة عن ضربات القذائف والصواريخ الدائمة الحضور في الشوارع تجبر السيارات على تخفيف السرعة إلى ثلاثين كيلومتراً في الساعة، أي إلى السرعة الطوباوية التي يحلم بها أنصار البيئة بصفة دائمة. وفيما عدا ذلك يتحتم على الزائر الغربي لكابول بطبيعة الحال رفع سباته للتحذير والإنذار: الأفغان مازالوا لم يسمعو شيئاً عن حماية البيئة. وتبعاً لدراسة للأمم المتحدة فإن سكان كابول يستنشقون يومياً هواءً ملوثاً يعادل استهلاك خمسة وخمسين سيجارة، بل حتى الدقة الباردة نفسها التي تحرك نفايا البلاستيك والصنف القديمة إلى طائرات ورقية لا تردى بدورها قيمة احراق تلك المواد، مع الاشارة إلى أن دورة اعادة استخدام المواد القديمة لها طابع شمولي عام، لدرجة أن القمامة لا تبقى لفترة طويلة ملقاة في الشوارع لأن الجزء الذي لا يريد الانسان استهلاكه منها تتولى الفران أو القطط استخدامه. وإذا حدث، رغم ذلك، وتجمعت اكوام القمامة والفضلات بشكل ثابت مستقر فإنها سرعان ما تنمو وتتحول إلى هضبة حقيقية تستخدم إما لقضاء حاجة الانسان دون خجل وإما

مدينة كابول، تصوير: Knut Möller



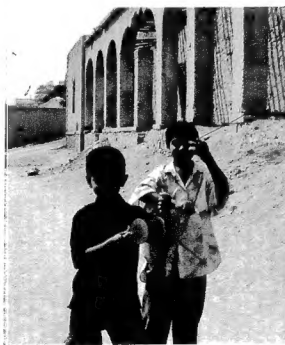


الإزالة هذا الوضع المزري، لا سيما وأنه منذ الآن أصبحت الصفوف المدرسية مكتظة بالتلاميذ الذين قد يصل عددهم إلى خمسين تلميذاً في الفصل الواحد، ولا أمل في تحسين الوضع. أما تدشين هذه المدرسة الذي وقع يوم ٢٢ أيلول/ سبتمبر وحضره عدد من الشخصيات السياسية الألمانية البارزة ضمن إطار من الأيالة والأطراء فإنه لم يستثن نفسه من مظاهر التفاق إلا بنسبة قليلة بسبب العناصر الآتفة الذكر. إن وزارة الخارجية الألمانية وفي نطاق عرضها للوضع العام في أفغانستان لم تنصح المواطنين بالتخلي عن السفر نهائياً إلى هناك بصفة عامة فحسب، وإنما نصحتهم أيضاً بعدم التجول ليلاً في شوارع كابول، بل وعدم التجول نهاراً أيضاً خارج الشوارع الرئيسية للمدينة. أما العاملون في السفارة الأمريكية المرباطون في حاويات معدلة من السفن ولقترات تتراوح بين ستة وتسعة شهور وكأنهم في حظيرة دجاج لإنتاج البيض، فهم لا يجوز لهم مطلقاً مغادرة منطقة السفارة إلا بإذن خاص. لكن من لم تتح له أي فرصة للتجول في شوارع كابول فهو لن يستطيع تأكيد الحقائق التالية مثلاً مثلما فعل كاتب هذا المقال. إذ أنه أكد بالممارسة والتطبيق أنه في واقع الأمر ليس من الخطورة بمكان أن يتجول الإنسان في شوارع كابول سواء أكان ذلك ليلاً أم نهاراً، وسواء أكان ذلك في الشوارع الرئيسية أم الأروقة القرعية، أو حتى لو تعلق الأمر بالتجول وسط الكواخ الطينية الممتدة على طول هضاب كابول، حيث تشاهد النساء فوق سطوح المنازل وهن ينشرن الغسيل ويتسمن لشخص ما دون خوف أو انزعاج، وهذا ما يمكن الإنسان من التقاط صور لأطفالهن وهم يلعبون بالطائرات الورقية. إن شوارع المدن الآتية، نابولي واسطنبول وموسكو تعتبر أشد خطورة من شوارع كابول، أما المناطق التي لم يكن يُسمح فيها للأطفال، وإلى ما قبل سنتين بمارسة اللعب، فإنها صارت الآن

أصحاب الفنادق المتواضعة التي تم تأسيسها على أنقاض الفيلات القديمة، صار يستطيعهم الآن مطالبة التزلاء بسبعين دولاراً لسميت ليلة واحدة فوق سرير بسيط. أما الصحفيون والعاملون مع المنظمات غير الحكومية ورجال المال والأعمال فإنهم يتزولون بها للأقامة لمدة قصيرة وأحياناً لشهور عدة. وقد تم الحفاظ على الأسعار المرتفعة بشكل اصطناعي عبر الأموال المخصصة لمساعدة أفغانستان من جميع أنحاء العالم. لذا فإن القسم الأكبر من تلك الأموال لا يصرف في الواقع في مجال خدمة مشاريع البناء والتنمية وإنما يتم ابتلاعه من طرف تكاليف المواد اللوجستية أو في معظم الأحوال من طرف رواتب الموظفين الغربيين ذات الارتفاع الصاروخي بشكل مبالغ فيه. فهؤلاء وبدافع من الحرص على المكاسب المالية يعملون بكل قواهم على ترسيخ صورة الوهم القاتل بأنهم يتعرضون للأخطار في كابول، وبناءً عليه يتحتم حصولهم على كل ما يمكن من تعويضات مقابل الأخطار الزعومة. ويجدر القول بأن حالة الخطورة هناك يجري تقديرها رسمياً بشكل مبالغ فيه، لدرجة أن وزارة الخارجية الألمانية على سبيل المثال لا تسمح لعائلات المبعوثين من طرفها إلى هناك في مهمة بالالتحاق بهم أو السكن معهم، كما حدث مع المعلمين الستة الذين كُلفوا بتعليم اللغة الألمانية بـمدرسة «أماني» مع الإشارة إلى أن رواتب أغلبية

المعلمين الأفغان بهذه المدرسة لا تتجاوز حدود ثلاثين دولاراً في الشهر، وبالتالي فهم غير متحمسين لأداء مهامهم بشكل أفضل. صحيح أن ألمانيا أتت بمبلغ مليوني يورو لتزيم ذلك المبنى المدرسي الفخم الذي تم بناؤه عام ١٩٢٤، لكن مع ذلك نجد قانون الميزاتية الألمانية لا يسمح برفع أجور المعلمين الأفغان إلى خمسين دولاراً في الشهر. في الوقت الراهن تحاول إحدى الهيئات الشيعية تقديم المساعدة

أطفال يلعبون بالطائرات الورقية، كابول، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣
تصوير: Stefan Weidner



الأموال، وهي لا تحصل على تلك الأموال لأنها ما زالت لم تبرهن بوضوح على قدرتها على العمل والانجياز. وهكذا، وحسبما يقول زريباب، تبقى الحياة الثقافية في مرحلة الطفولة دون تقدم أو ازدهار، لأن جميع الصحفيين الموهبين المتمكنين من اللغات الأجنبية يشتغلون مع منظمات الإغاثة الدولية التي تمنحهم رواتب وأجوراً أفضل، وهي تستخدمهم إما كسائقي سيارات أو مترجمين، بدلاً من اشتغالهم في حقل مهنتهم الأصلية. ومن المفهوم بدهاء أن تكسب القوى الرجعية داخل حقل الصحافة الأفغانية المتناحرة وزناً لا يتناسب مع حجمها الحقيقي. وحسبما يراه عالم الآثار الأفغاني ظافر باميان، الذي أنهى دراسته بفرنسا، فإن تقاعس المثقفين الأفغان الذين غادروا بلادهم في الخمس والعشرين سنة الأخيرة عن العودة وإحجامهم عن الالتزام ببناء وطنهم يعتبر أمراً غير مفهوم لديه وغير مقبول، لأنه شخصياً كان يزور أفغانستان بانتظام حتى في فترة حكم طالبان. كما أن المخاوف التي يجترع عنها المهاجرون الأفغان بسبب التطورات الجارية بالبلاد هي أمور غريبة عنه. لذا فهو يحذرهم قاطعاً: "بمقدار ما تتأخر العودة ستكون القدرة مستقبلية على التكيف مع الأوضاع الجديدة المتطورة بسرعة مذهلة وتماهي مع الوطن والاندماج فيه أضعف وأقل". أما الاستثناء الوحيد المشهور في هذا السياق فيمثل الروائي الشاب والمتج السنيماي عتيق رحيمي، الذي يعيش حالياً بفرنسا (انظر صفحة ٨ مقابلة مع رحيمي)، وهو قد اشتهر في السنوات الأخيرة على الصعيد الأوروبي كذلك عن طريق كتابين أصدرهما، وهما: «أرض ورماد» و«الحرب والحب». ويدهم فرنسي تمكن من تأسيس دار للطباعة والنشر في كابول، ويقوم حالياً بإنتاج فيلم سينمائي شمالي البلاد بناء على نص حوار كتبه بنفسه. ويهتم بعض الزملاء في المنفى بالسنانجة، لأنه لم يتراجع أمام التكتلات والتطورات المنحرفة في أفغانستان، وإنما على العكس من ذلك هو يتمسك بال تأكيد على الدلالات والاضارات المشجعة. ويقول رحيمي في هذا السياق: "لقد منحت فرصة فريدة من نوعها لأفغانستان عقب اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وهي فرصة لا يجوز السماح بضيعاها." ويضيف قاطعاً: "يكاد يكون من غير المفيد على الإطلاق أن يضي أكثر المثقفين الأفغان مراحل عمرهم في المهاجر والمثاقفي." ثم يتساءل: "لماذا لا يعودون إلى بلادهم؟" ويضيف: "إن السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان والرافعية مطالب يجب الكفاح من أجلها على أرض الواقع في البلد، ولا يستطيع الإنسان الحصول عليها عبر الحيلالات والأوهام الشاعرية."

ترجمة: محمد المراكشي

مناطق يمكن الحصول فيها على كافة أنواع الخمور، كما نشاهد بها صفوف من المسمومات ذوات الأصل الصيني والروسي. في ذات الوقت يحتفل العاملون مع بعثة الأمم المتحدة المصابون بكوبيس الاحتياط والرعب مساء كل خميس داخل فيلاتهم الخاصة وهم محاطون بحراسة مشددة وكأنهم يعيشون في نيويورك أو برلين. إنه أمر لا يبدو أن يكون مجرد مبالغة في إشباع التزوات الجامحة وإرضائها. وكل من يحمل معه قدرًا من المال يستطيع ارتياد المطاعم الفاخرة المنتشرة في كابول، سواء منها الصينية أو الهندية، أو الألمانية أو الإيطالية، بل وحتى الأفغانية كذلك لتناول وجبات فاخرة. هذا ويلاحظ المراقب جملة من العوالم المتوازية تحكم كلاً منها قواعده الذاتية الخاصة والصارمة. بيد أن من يتمكن من التنقل بين ربوعها يستطيع أن يجني ثمار الفوضى في كابول، وبمقدار لا مثيل له في أي بقعة أخرى من العالم في الوقت الراهن. وعلى سبيل المثال: هل يود أحد إجراء حديث مع وزير الثقافة؟ هو لا يحتاج سوى إلى نزهة مشي على الأقدام ليصل إلى مبنى وزارة الثقافة.

المكتب في الطابق الأول يأتي هذا كجواب على السؤال القائل: أين يقع مكتب الوزير؟ وبدون أية مراقبة أو تفتيش. وعندما لا يجسد الزائر الوزير في مكتبه فيمكنه التحدث مع المستشار الأقرب للوزير.

إنه: راهناوارد زريباب، أحد الكتاب المشهورين في بلده ويكتب بلغة الداردي «الفارسية». فبعد أن أمضى فترة مناه في فرنسا، خلال عهد طالبان، عاد إلى بلاده بصفة نهائية، مثلما فعلت أقلية من المثقفين الأفغان المغتربين. وقد عكف خلال الشهور الأخيرة على إعداد قانون جديد للإعلام، سيكون أعظم القوانين الليبرالية في العالم الإسلامي على الإطلاق، إذا حظي بمباركة الحكومة وموافقتها، حسب ما ورد في حديث، لأنه لا يلاحظ فيه أي وجود للرقابة. وحتى لو سلمنا جدلاً بوجودها فإنه من الجائز أن لا يتم تطبيقها في الظروف الراهنة وتحت المعطيات القائمة. إذ أن هناك أكثر من ١٨٠ صحيفة ومجلة تملأ أسواق كابول في الوقت الحاضر. ويتحتم ظهور هذا الكم بانتظام وينسب نقل أو تكثير، بل وحتى لو كان الأمر يتعلق بجرائد تسراخ صفاتها المطوية ماين أربع وثمان صفحات فقط، فإن هذا السيل المتدفق من الصحف غير قابل للمراقبة على الإطلاق، لا سيما وأن الدولة الأفغانية مفلسة تماماً، كما قال زريباب. لأن مليارات الدولارات المرسودة للمساعدة على بناء أفغانستان، تكاد تمنح بالكامل للمنظمات غير الحكومية، أي أنها تبقى في الأيدي الغريبة، تبعاً لما احتج عليه الكاتب وانتقده. فالحكومة الأفغانية لم تُنح لها أي فرصة للبرهنة على قدرتها على العمل لأنها لا تحصل على

أفغانستان: الثقافة أولاً

حوار مع عتيق رحيمي

عتيق رحيمي روائي أفغاني شاب مقيم في فرنسا، نال شهرة واسعة في أوروبا في السنوات الأخيرة بفضل عملين روايتين صدرتا له مؤخراً بعنوان «أرض ورماد» و «الحرب والحب». وبعد سقوط حركة طالبان قام رحيمي بعدة زيارات إلى أفغانستان. ولإلقاء المزيد من الضوء على الحركة الثقافية في أفغانستان وموقف مثقفي المنفى من العودة إلى بلادهم نشر «فكر وفن» هذا الحوار مع رحيمي:

رحيمي: لا أحد يدعي، أن أفغانستان بلا مشاكل. لكن، حين تنتظر، أن تنتفي الصعوبات من تلقاء نفسها، فإن علينا أن نتنظر طويلاً. ماذا نعمل؟ ماذا يعمل السادة والسيدات الذين أصبحوا متخصصين منذ عقود بانتقاد الأوضاع السيئة في أفغانستان، كي تغلب الموازين؟ فالسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان والرفاهية ينبغي انتزاعها، فهي لا تتحضر شعرياً. كلنا نعرف، أن مشكلتنا في أفغانستان ليست سياسية، بالدرجة الأولى، إنما ثقافية.

هذا يعني، علينا أن نتعلم أن نوفر لكل موقف معارضة، بل إنه ينبغي وجود ذلك. حين تراقب تاريخ أفغانستان طيلة الثلاثين سنة الماضية، سوف تستنتج أن كل نظم الحكم التي سادت في هذه الفترة، سواء كانت جمهورية، شيوعية، ديمقراطية أو إسلامية، كانت حكومات تصفية غير شرعية. أي بكلمة أخرى: ممارسة القوة الغاشمة ضد أصحاب الرأي المغاير ذات تقاليد عريقة في بلادنا، وهي تترك بصماتها على أعمالنا باستمرار. هذه التقاليد التي ترجع إلى العصور الوسطى وإن شئت فهي الثقافة السياسية التي علينا مكافحتها بهدف دحضها على المدى البعيد.

■ كيف تود القيام بذلك؟

الشفقون والأدباء والعلماء وكل المبدعين بشكل عام هم المفتونون بذلك، بالدرجة الأولى. علينا الآن أن نشمر عن سواعننا، بدلاً من أن تأفف من عسف القادة العسكريين الشماليين وننقسم في أجنحة مختلفة. فالمدارس والجامعات وهيئات تحرير الصحف والوزارات بحاجة إلى أشخاص أكفاء. هناك الكثير من الأفغان الذين يعيشون، في الوقت الحاضر، في المنفى الأوروبي أو الأمريكي، إن جاز لي أن أقول، فإنهم يكادون يمحون حياتهم هناك في ضنك ومن غير جدوى. فلماذا لا يعودون إلى الوطن؟

■ سيد رحيمي، إنك من الأدباء الأفغان القلائل الذين لا يزلون يعتقدون أن للعملية السياسية القائمة بعد سقوط طالبان مستقبلاً ويقضون موقفاً يعزز مسيرتها. هل أنت ساذج، كما يدعي متقدوك أم أن زلزالك الكتاب مثاثمون جداً؟

رحيمي: (ضاحكاً) لا اعتد، أنني ساذج. زرت أفغانستان في السنتين الماضيتين خمس مرات وساعدت بعد فترة قصيرة إلى كابل وغيرها من المدن لعدة شهور. إذن، أنا أتحدث عن وقائع عشتها شخصياً في أفغانستان واستخلص من ذلك، أن وطننا قد منح فرصة جديدة وعظيمة ونحن لا ينبغي أن نتهاون مع من يريد انتزاعها من أيدينا. على العكس من ذلك ينتقد رسالي الكتاب، ربما بحكم المهنة، أوضاعها، هي في الحقيقة من بنات أفكارهم. معظمهم لم يكونوا في السنوات الخمس الماضية في أفغانستان، أي أنهم ليسوا على دراية بالأوضاع القائمة هناك.



عتيق رحيمي، تصوير: Classen Verlag

■ ليس من الضروري أن يجوب المرء أفغانستان، لكي يعرف أن الحكومة المركزية ضعيفة وأن القيادة العسكرية الشماليين أقوى جداً، لدرجة أن المواطنين ما زالوا عرضة للاضطهاد وليس هناك تقدم في عملية إعادة إعمار البلد والأمريكيون، على ما يبدو، يقفون موقف اللشعرج على الأضلاع، بلا خطة؟

لثالث، الحكومة علناً. وأصبحت تشكل قاعدة مشجعة للأدباء الشباب والمثقفين في عموم الوطن. إلا بعد إصدار مئة وثمانين جريدة ومجلة، في كابول وحدها، في بلد تبلغ نسبة الأمية فيه تسعين بالمائة شيئاً هنالكا؟

■ أثناء إقامتك في كابول، جرى اعتداء، يعتقد أن أهوان قادة تحالف الشمال كانوا من ورائه، على الشاعر سامه حامد، إذ طعن بسكين ست عشرة طعنة، كما منعت مجلة «الغالب» عن الصدور، لأنها وجهت نقداً بصورة علنية إلى «الدين الإسلامي».

رحيمي: أنا مطلع على كلتا الحالتين بشكل جيد ومن الطبيعي أن أجد أنهما مؤسفتان للغاية. لكن لهذا بالذات ينبغي دعم القوى الديمقراطية في أفغانستان. لقد استخلصت درساً من خلال العديد من الحوارات التي أجريتها مع ثلة من الأدباء الشباب، وهو أن الجبل الجديد في أفغانستان، متعطش لنظام ديمقراطي، على الرغم من أنه شب في ظل الحرب. يتميز الشباب بنشاط حاد وسبق لهم تأسيس إجماعاتهم، يعملون بطريقة براغماتية للغاية من دون التوجس خيفة من أية أيديولوجية، كما يمارسون التنوير في أعمالهم. فقد نشرت في كابول قصة قصيرة لكاتب شاب، أصبحت مثاراً للاهتمام. إنها تتحدث في صفحة واحدة عن خواطر امرأة أثناء المخاض، من وجهة نظر الراوي - يكاد يكون هذا ثورة صغيرة بالنسبة إلى الأوضاع السائدة في أفغانستان. الكثير من الصحف أعادت طبع هذه القصة القصيرة وأثير حولها نقاش لعدة أسابيع. لو قلت لي قبل سنتين، أنه سيدور الحديث ذات يوم في كابول عن الحب، لاعتبرتك متوهاً. بيد أنه أصبح اليوم

■ إن أفغان المنفى الذين يعودون من أوروبا أو أمريكا، تمنعهم صحافة كابول بأنهم منحطون يدعون أنهم أدرى الناس بكل شيء. وهم ليسوا بأكثر من منظفي كلاب للفريرين الكفرة. ويتم تهديدهم وتحذيرهم علناً من أن يلوثوا بتقدمهم سمعة للجهالدين. وهذه ليست بالأخبار المشجعة!

رحيمي: دعنا من هذا، لنقتصر في حديثنا على الوقائع. إن هناك عدداً ضئيلاً جداً من الصحف في كابول التي في تعرض، بناءً على أوامر من بعض الأوساط، للعائدين إلى الوطن، وبالذات من الغرب، وتوجه لهم، في الغالب، نقداً لأدعاً غير مبرر. بيد أن هناك - في كابول وحدها - وهاء ١٨٠ جريدة ومجلة، إن عدداً هائلاً كهذا لم يكن معروفاً قط في تاريخ بلدنا. يدعو أغلب هذه المطبوعات إلى أفغانستان ديمقراطية ومبعد آمالاً كبيرة على أفغان المنفى. لماذا باترى لا يشير، أولئك المطلعون من مواطني بلدي القميين في باريس وبرلين أو نيويورك، إلى هذه الأصوات؟

■ ما مدى معرفتك للوسط الصحفي في أفغانستان المعاصرة أو بكلمة أفضل في كابول وما مدى الحرية المسموحة للعمل الصحفي؟

رحيمي: في الواقع جيدة. بالطبع، أن أغلب الإصدارات في كابول، ولكنها ليست بالإصدارات الوحيدة. كذلك الحال في باريس، حيث هناك إصدارات أكثر من أي مكان آخر في فرنسا. إذن ينبغي ألا ننسى، أننا نتحدث عن أفغانستان، وهكذا يجب علينا أن نقوم الظروف هناك ونفا للمفائيس المحلية المتبعة. فأوساط الصحافة في كابول ديناميكية جداً ومتنوعة. في السنتين الماضيتين تأسست صحف على مستوى جيد جداً، وهي تتقدم، على سبيل



أحدى دور السينما في كابول
تصوير: Stefan Weichner

كل شيء ممكناً. فهل يمكننا في هذا الوقت بالذات أن ننظر الكثير؟

■ هل تحقق تقدم في مشاريعك الخاصة في أفغانستان؟
رحيمي: نعم، مستبأش دارنا للنشر المسماة «اسباند»، في غضون فترة قصيرة، مهماتها. يهدف عملنا إلى نشر حوالي ستة كتب لمؤلفين أفغان سنويا ولتشجيع القراء على قراءة المزيد. نسعى للتعاون مع الإذاعات الناجحة ومؤسسة التلفزيون الحكومية، للتعريف بالمؤلفين في كافة أنحاء البلاد. إن مشروعنا، الذي يلقي دعماً من الحكومة الفرنسية وأوساط المشفقين، ينص على ترجمة روايتين لكاتبين أجبيين إلى كل من لغتي البلد الرسميتين (الباشتو و الناري)، وبالمقابل ترجمة كتابين لمؤلفين أفغانين إلى اللغة الفرنسية كل عام.

■ هل كان باستطاعتك، في الستين الماضيتين، أثناء تجولك في مناطق كثيرة من أفغانستان أن تتلمس تحسنا مستمرا في حياة الناس؟
رحيمي: بكل وضوح. لكني أريد أن أؤكد مرة أخرى، أنه ينبغي علينا ألا ننسى، أننا في أفغانستان. تأكد لي في ريارتي الأخيرة، قبل كل شيء، أن الناس اخلوا يشعرون بشيء من الاطمئنان. من أين لي أن أعرف ذلك؟ لأنك لم تعد ترى في عيونهم ذلك الوجع والقرط والاستعداد للعنف، الذي كان يسلطه المرء قبل عام من ذلك. من الطبيعي أن هناك أحياء مكنية حتى في كابول ينبغي على المرء تحاشيها بمجرد حلول الظلام، لكن هل يختلف هذا عما هو في باريس أو نيويورك؟

■ ما هو رأي رجل الشارع في حكومة الرئيس حامد قرضاي ووجود الجنود الأجانب في بلده؟

رحيمي: يشعر الناس بأمل كبير، في أن حياتهم ستكون أفضل على المدى البعيد وسرهم الدعم الذي يقدمه الجنود الأجانب. حدثني اسكافي عجوز، بأنه شهد، خلال الثلاثين سنة الماضية، الجحيم بعيته، وأنه مسرور، لأن ذلك العهد قد ولى. إن أبناء وطني في أوروبا وأمريكا لا يستطيعون أن يتصوروا تماماً حجم معاناة الناس في أفغانستان. لذا ينبغي أن ننظر إلى أفغانستان بعيون الناس القاطنين هناك.

■ هل تعتقد أن أبناء بلدك في أوروبا وأمريكا قادرون على ذلك؟

رحيمي: ذهني أرو لك حكاية من حكايات الملا الشهير نصر الدين. لاحظ الملا الحكيم ذات ليلة في طريقه إلى البيت، أن رجلا يبحث عن شيء ما في ضوئه أحد مصابيح الشارع. سأل الملا الرجل الذي أعيته الحيلة، عم تبحث؟ فرد الرجل قائلاً: لقد أضعت مفتاحي هناك، في مكان بعيد من مصباح الشارع وأمل في العثور عليه هنا. اندمض الملا الفطن وقال، أيها الرجل الطيب، إن كنت فقدت مفتاحك في مكان آخر، فلماذا تبحث عنه في هذا المكان بالذات؟ رد الرجل بمصيبة، لأنه لا يوجد ضوء هناك. بذلك أردت أن أقول، أن على أبناء بلدي وزملائي الكتاب ألا يبحثوا عن مفتاحهم في أوروبا وأمريكا، لأنهم لم ينفدوه هناك.

أجرى الحوار: راتيل آمانغ شامل
ترجمة: علي أحمد محمود



لعبة بوشكاري
تصوير: Knut Möller

التصدي للكفار بالمخدرات الافيون الأفغاني في مواجهة السلاح الغربي



جمال مدين، حقول الأفيون في أفغانستان، تصوير: Knut Möller

لا يشتمل على أكثر من بيت مبني بالطين وثير وساحة مربعة لا تزيد مساحتها على ستة عشر متراً مربعاً. في هذه الساحة وتحت ظلال أشجار أحاطها صاحب المطعم بخرسانة من الإسمنت يرقد الضيوف على الوسائد المتناثرة على الأرض. إلا أن الغيُوف الشباب المستكينين للراحة هنا ليسوا حجاجاً؛ أو أن الكشف التوراني، الذي ينشدونه في هذا المكان هو، وعلى أدنى تقدير، ليس ذا طبيعة دينية. ومع أن زراعة الأفيون والحشيش - هذان المحصولان اللذان يتجههما المزارعون في هذا الإقليم بكميات وفيرة وبجودة عالية - محظورة في أفغانستان رسمياً، إلا أن متعة تعاطيهما تقليد جار منذ قرون،

شذنا مُسكر يملأ هواء البراري الجافة التي تسودها، في ظهيرة الصيف هذه، حرارة تبلغ الخمسين تقريباً. ويكاد شعاع الشمس، في هذه الساعة التي يتوسط فيها قرص الشمس كبد السماء، أن يهترق أغصان الأشجار الخمس أو الست الناشرة ظلّالها على هذه الواحة الصغيرة الواقعة على مشارف مدينة بلخ وأن يشق طريقه، من خلال غبار الصحراء المختلط برائحة الحشيش والأفيون، وللحيط بالضيوف من كل جانب. ويتربع، على أحد التلال القريبة، مقام يُزعم أنه يتسم بالقدسية؛ وكان صاحب مطعم قطن قد وعى الأهمية التجارية للموقع، فاضتم الفرصة، فشيّد، بالقرب منه، مكان الاستراحة هذا الذي

فتعاطيهما في سياق جلسات الهناء والصفاء أمر مستغافر كاستمساغة شرب الشاي.

وتقع دار الاستراحة المتواضعة في قلب مكان عمه الخراب والدمار؛ إلا أن الأمر الذي يجدر ملاحظته أن هذا الموضوع لم يدمر، لا من قبل الطالبان ولا القوات الأمريكية. في سالف الزمن وقبل أن يدمرها الإسكندر الكبير، وهو في طريقه إلى غزو أواسط آسيا قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون تقريباً، كانت تقف هنا شامخة مدينة بلغ التاريخية التي شاخت على أرضها خمسة آلاف من السنين والتي كان العالم الإسلامي يسميها «أم المدائن». ولم يكتشف المقبون الآثريون، بعد، آثار هذه المدينة التاريخية إلا بالكاد. فتمتحت الأبناس توجد كنوز تستقطب مطاعم لصوص القبور.

وتحت ظلال الأشجار تنتقل الأيدي الترجيلة وأقدام الشاي الأخضر. ويشارك المضيف، أيضاً، ضيوفه في هذه الحلقة؛ وهكذا راح ينشد أبياتاً شعرية لحافظ الشيرازي بين كل نفس دخان بارد يمتصه بمنعة وتلذذ. ولو غفل المرء عما يحيط به فإنه سيستر، بلا ريب، وكأنه يعيش الأجواء التي تصورها قصيدة الشاعر الفارسي الكبير. إلا أن النظرة الممتعة سرعان ما تنحدر إلى أرض الواقع، فالترانجيل المتداولة ليست سوى قنّان بلاستيكية حولتها يدا عامل هار إلى ما هي عليه الآن، أضف إلى هذا أن الفهم الحشبي والفضيب الملمني المستخدمين في عملية التدخين، قد سخنا على موقد بالغار وأن بعضاً من السيوف البالغ عددهم ما يقرب من الثلاثين، قد طرحوا جانباً مدافعهم الرشاشة. وما هؤلاء الرجال إلا حفنة من قوات غير نظامية يقودها آمر إقليمي يسكن في بلخ، المدينة التي أمتست صغيرة في يومنا هذا. ويرتدي صاحب اللطم اللباس الأفغاني التقليدي: بنطلون فضفاض وفوقه قميص طويل. وكان هذا الرجل قد تملى بعدد لا يحصى من سلاسل تنتظم عليها حيات لؤلؤ رجائي كثير الألوان؛ وهكذا، في هذه السلاسل ويقدمه الماريتين المتحجرتين من عظم ما عليهما من وسخ وشره الطويل الذي لم ير عليه المشط في يوم من الأيام ويلحيته الطويلة المتدلية على صدره أمسى هذا الرجل يترك لدى الزائر الغربي الانطباع بأنه يواجه هاتنا خليطاً سريالياً جمع بين صفات الدراويش واليهيين. وبمنعة بينة يربنا المضيف طريقة تدخين الآفيون: لا يجوز للمرء أن يتصور أن الطريقة المثلى للتدخين تكمن، وبكل بساطة، في إشعال النار في المادة الشبيهة بالصمغ أولاً وفي ابتلاع الدخان المبتسق عنها ثانياً، فالدخان لا يتصاعد من الآفيون إلا بعد تعرضه لدرجات حرارة كبيرة جداً، أضف إلى هذا أنه سيتحول، إذا ما تعرض لدرجات الحرارة هذه، إلى سائل. ولإثبات ما يقول فإنه يضع حبة آفيون خام بنية اللون على قضيب معني ويعرضها للنار المنبثقة من الموقد الغازي تاركاً الآفيون يذوب فوق عنق

الرجاجية؛ وبالتزامن مع عملية الذوبان يبدأ يمتص، عبر خرطوم رفيع أدخل في الفتحة الجانبية الموجودة في جدار القنينة، الدخان الذي يبرده الماء الموجود في القنينة. وبالرغم من نظرتيه الشاردة لا يفوته شيء أو يخفى عليه. فهو يقطع حديثه مراراً وتكراراً ويقفز من مكانه لتلبية ما يطلبه الزبائن. يجلب من كوخه كيساً صغيراً يحتوي على الحشيش والأفيون، وعلى ما يبدو فإنه يتوافر في كوخه هذا على خزين كاف. وحسب ما يقوله بفخر واعتزاز، يأتي إليه الزوار من مناطق بعيدة، مناطق كمنار الشريف، مثلاً، كبرى المدن في هذا الإقليم، ويضيف قائلًا: "الأنا لا تزال الحال تتصف بالهدوء طبعاً"، "ينبغي عليكم أن تأثروا في إحدى الأساليب. فأننا أمتلك مولدة كهرباء، إننا نقيم حفلات صاخبة تنتهي فيها حتى الثمالة. لن يترضكم أحد هنا؛ إن أفغانستان بلد تسوده الحرية."

إنها الحقيقة بعينها، فالحفلات المنيرة في هذا المكان المدمر الحرب تقام على مرأى من الأمر العسكري لهذه المنطقة، هذا الأمر الذي لا يبعد مقر قيادته سوى مائتي متر عن مركز مدينة بلخ، تماماً عند ساحة المرور الواقعة في وسط المدينة. ويجلس نفر من قواته على سطح بناء متقدمة الموضوع لكي يسجلوا بكل دقة كل من يدخل إلى المدينة الصغيرة أو يغادرها. ومع أنه لم يكن هناك إذن مسبق، إلا أن القائد سرعان ما وافق على إجراء محادثة صحفية قصيرة، وبالتالي وبعد مضي دقائق وجيزة خرج الأمر من الدار الرئيسية وجاء مسرعاً للرد، طواعية، على أسئلة الزائر. كلا، كلا، لا قبالاً فوراً وبلا تردد، في المنطقة الواقعة تحت إمرته لا تزوج المخدرات. وأراد أن يؤكد ذلك فراح يقول: "لقد أشعلنا النيران في الكثير من حقول الخشخاش"، وواصل حديثه مؤكداً "أنه سينزل أقصى العقاب بكل من تسول له نفسه بيع أو تعاطي المخدرات." ومع هذا تظل الشكوك تحوم حول كلماته التي ترن في الأذن كما لو كانت قد انبثقت من أعماق الحقيقة. فمن ناحية دورية الحراس، الذين راحوا يراقبون المكان من على بعد أمتار قليلة ويذخون السجائر التي لفوها بأيديهم، ينتشر دخان تفوح منه رائحة الآفيون.

ولو خلع بزته العسكرية، لبدا الجنرال حمزة، آمر بلخ وما يحيط بها، بلحيته السوداء التي تخللها الشيب كثيراً، فلاحاً من فلاحيه المنطقة. وفي الساعة الواحدة ظهرأ تبدوا عيناه للمحترن كما لو كان التوم قد جفا جفته. ويتنحي حمزة إلى مجموعة المجاهدين المسماة «الجمعية الإسلامية»، التي قادت حرب عصابات، في بادئ الأمر ضد المحتلين السوفيت، ومن ثم ضد الحكومة الشيوعية، وأخيراً وفي إطار التحالف الشمالي ضد حركة طالبان أيضاً. إلا أن الحقيقة تشهد على أن الأبطال الأفغان، أيضاً، يتعبون ويخمدون في يوم من

وكما هو الحال مع باقي القادة العسكريين، ارتقى عطا، الذي كان قد حارب ضد الاحتلال السوفيتي، أيضاً، من مجاهد بالنسبة لمعلم رث الثياب إلى أمير حرب ثري، يحتفظ لنفسه بحوالي ٦٠٠٠ رجل. فحينما يراه المرء وهو يطوف في شوارع المدينة ويصحبته قافلة تتكون من عشر سيارات جديدة مصنعة للمناطق الريفية، عندئذ يدرك المرء، على نحو تقريبي، أن الحرب في أفغانستان قد غدت تجارة وقيمة الربح. ونشر عطا نفوذه فأمسى نافذ الكلمة في مناطق تمتد إلى ٢٥٠ كيلومتراً جنوب «نفق سالانغ». في منطقة هذه يتصرف عطا كما لو كان أميراً لا سلطان لأحد عليه، فهو يعين حكام الأقاليم والقادة العسكريين، وإن كان يخضع، كما يزعم هو نفسه، إلى الحكومة المركزية في كابول. وفي الواقع فإن للمخدرات التي التي جعلت منه شخصاً ثرياً. في أفغانستان يحصل المرء على الربح الوفير من خلال المتاجرة بالافيون في المقام الأول، هذه المادة التي يجري تقيحها في كافة أرجاء البلاد في معامل لا يحصى عددها والتي تهرب من هناك إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية. وصار عطا يواجه الأمم المتحدة بنفس الصيغة التي يواجه بها حكومة كابول، فهو معتد بنفسه ويرفض أي تدخل بشؤونه. فحينما أراد مفتشو الأمم المتحدة في ربيع هذا العام منع زراعة الأفيون في الشمال، حال عطا دون ذلك وراح يعلن أن على المجتمع الدولي أن يعوض المزارعين أولاً عن الخسائر التي ستلحق بهم من جراء هذا المنع.

أحد مزارعي الأفيون، تصوير: Knut Müller



الأيام. ففي السنوات الأخيرة، ترهل جسم الجنرال وزنه كما هو باد للعيان، وهكنا صار الجنرال يتعم بالأرباح التي تدرها عليه وظيفته الرسمية. ويخضع أمر بلخ، بدوره، إلى أستاذ عطا، الذي هو أحد المهتمين على مصائر الأمور في مزار الشريف. فبعدما طردت الولايات المتحدة الأمريكية الطالبان، هجم القائد الطاجيكي على نحو مفاجئ على مزار الشريف فصارت تخضع لإمرته وإن كانت قد خضعت، لأمد طويل، لإمرة الجنرال الأوزبكي عبد الرشيد دوستم. وفي الوقت الذي يُظهر فيه الجنرال عطا وجنده، بشي من الفخر والتعدي، سيطرتهم على الشوارع، يتزوى جنود دوستم حاسبين أنفسهم في مسكراتهم. ولكن، ومع هذا، فإن التوتر حقيقة قائمة يدركها كل من يتمتع في الأمور؛ ففي أية لحظة يمكن أن يندلع القتال بين الخصمين اللذين سادت بينهما حرب ضروس في التسعينات، أي قبل أن يوحدا جهودهما في إطار التحالف الشمالي. ويكمن الأساس اللتين الذي يستمد منه الأوزبكي قوته في مقره العسكري الواقع في «شبابارغان» الواقعة إلى الشمال من مزار الشريف وفي قلعة «كسالاه يان»، أي في الحصن العسكري الواقع خارج المدينة والذي كان مدار العناوين الرئيسية في الصحافة عام ٢٠٠١ وذلك بسبب مقتل أسرى يتمون إلى حركة طالبان قدر عددهم بحوالي ٦٠٠ رجل. وكان هؤلاء الأسرى قد قتلوا بنيران الطائرات الأمريكية التي جاءت لإخماد تمردهم على سجنائهم.

المخدرات للكفار. * وهكذا، وإذا كانت منطقة نفوذ استاد عطا قد اشتملت في السنين الخوالي، على براري لا غير، فإن مزارع المخدرات قد اتسعت الآن فوصلت إلى حافة الطريق. ويوسع المزارع هاهنا أن يحصد مرتين في العام: في أيار/ ماير تكون زهرة الخشخاش قد نضجت وأصبحت جاهزة لأن تتحول إلى أفيون خام؛ ثم ثم يُزرع الخشيش. أما الآن، أي في الصيف، فقد تمت شجيرات القنب وزادت كثافتها، فصار طول الشجيرة يزيد على طول الرجل. ومع أن المزارعين يتنازلون للقائد العسكري، لقاء حمايتهم لهم، عن نصف محصولهم أو عوائلهم المالية، إلا أن ما يتبقى بحوزتهم يكفي لأن يتمتوا بمستوى معاشي لا بأس به. وفي حين ينقطع التيار الكهربائي في مزار الشريف باستمرار مساء، تتوافر القرى المحيطة بالمدينة على الوفير من التيار الكهربائي وذلك لأن الموائد المالية التي تدرها زراعة المخدرات أمنت تمكن المزارعين من اقتناء المولدات الكهربائية وما سوى ذلك من معدات.

من هنا، لا عجب أن تتكاثر مزارع القنب المعتمة المخففة، على مدى البصر، على جانبي الطريق المؤدية من مزار الشريف إلى بلغ و تركمانستان. ويحدث هذا كله على مرمى من الأمريكيين والبريطانيين العسكريين في مزار الشريف والمنظمات التابعة للأمم المتحدة المناط بها المساعدة في تعميم البلاد، علماً بأن العديد من هذه المنظمات يعمل في مزار الشريف أيضاً، فالسيارات تنقل هنا بكثافة لا تخفى على العين، أخفى إلى هذا أن مزارع الخشخاش وشجيرات الخشيش بينة وأضحة لا يمكن للمرء أن يخلط بينها وبين نباتات أخرى. هذا ولم يعد، هنا، مزار واحد يزرع الحبوب؛ فحتى وإن تطلع المزارعون لذلك، فإنهم لا يستطيعون منافسة القمح المستورد من البلدان الصناعية لأن أسعاره مدمرة دعماً كبيراً من موارد حكومات هذه البلدان. من هنا، وإلى جانب للمخدرات، يزرع المرء الفاكهة والخضار، فقط، وذلك سداً للحاجة الذاتية؛ فمن بين أدغال الخشيش، التي تقصص حالتها عن مدى العناية الفائقة التي يبلها المرء من أجلها، نعم من بين أدغال الخشيش هذه يرى المرء هنا وهناك مزارع البطيخ وقد تميزت بحصولها الأصفر اللون ويضاف أوراق نباتاتها.

"ما الذي يدعونني لأن أزرع الحبوب؟"، راح يسأل غلام رضا، الفلاح الذي يزرع مخدراته للكفار. "يبلغ العائد الذي أحصل عليه لقاء كيلو من القمح، بالكاد، خمسة أفغاني، أما عائد كيلو الأفيون فإنه يصل إلى ١٢٠٠٠. حينما يتعلق الأمر بالمال، لا مراه في أن كل واحد سيفكر بنفسه أولاً. والأمر الذي تجدر ملاحظته هو أن الفلاح، المجبر على اقتسام عوائله مع "ولي أمره وحامي" الجشع، يحتل أدنى مرتبة في السلم؛ فإلى أن يتحول الأفنيون،

ويجمع استاد عطا، في شخصه، بين الإقطاعي الكبير والنفاد العسكري ويبارون المخدرات. إن اجتماع هذه الصفات المشؤمة في شخص واحد ليس حالة نادرة، بل هو البلوى والمرش الخطيران اللذان يفتكان بأفغانستان الماصرة. فنقود كارتلات المتاجرين بالمخدرات أمست له اليد الطولى في الحكومة ذاتها. وللدلالة على ذلك دعنا نتحدث عن عبد الرسول سياف. لقد كان نجم هذا الرجل الأصولي النزعة قد برز إبان الحرب الأهلية حيث قام بإلقاء القنابل على العاصمة بلا رحمة أو هوادة؛ ولا ريب في أن ادعائه الساخر المستهزئ بأن على المرء أن يدمر سطوح كل المنازل في كابول للقضاء على الإثم والمعصية، قد رن في آذان سكان المدينة المدمرة رنيناً ينم عن عظم ما يواجهون من امتهان واحترار. أما في أيامنا الحاضرة فإن سياف، الذي يقود ستة آلاف محارب أيضاً، قوة فعالة تقف خلف الحكومة وإن كان قد شاخ وغزاها الشيب. فإلى مجموعته ينتمي رئيس المحكمة العليا وعدد من الوزراء وحاكم مدينة كابول. وحتى الرئيس حامد قرزاي نفسه لا يرى مندوحة من الحصول على تأييده عند اتخاذ أية قرارات هامة، كما أنه يزوره باستمرار في مقر إقامته في "باغمان"، التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن كابول باتجاه الغرب.

ونكاد مناطق نفوذ سياف أن تتناثر في طول البلاد وعرضها. إلا أن مصدر ثروته الرئيسي يكمن في "باداخشان"، على وجه الخصوص. ففي هذه المدينة الواقعة في الشمال الشرقي من أفغانستان يزرع القادة العسكريون المؤثرون بأمره الآفون في مساحات واسعة جداً؛ فالآفون المنفتح في معاملهم يصدر حتى إلى روسيا وأوروبا. وبسبب تدفق مبالغ طائلة من الدولارات أوسى السكان هناك يطلقون على باداخشان لقب "كويت الأفغانية".

وفي هذا كله لا يرى هؤلاء المسلمون الاتقياء أي تناقض بين تدنيهم وبين تصديرهم للمخدرات وما ينشأ عن هذا التصدير من إدمان وشقاء. وفي الواقع، فإنهم بهذا الصنيع إنما يواصلون السياسة التي درج الطالبان على انتهاجها: محاربة الكفار من خلال تصدير المخدرات. وفي هذا السياق يقول وكيل عبد الوهاب: "لقد روينا الغرباء بالأسلحة لكي يثقل بعضنا البعض الآخر"، وواصل حديثه لمضي يقول: "أما الآن فإننا نزودهم بالمخدرات التي يسمون بها أطفالهم". وفي الواقع، فإن "رجل الشارع"، هذا المصدر الذي كثيراً ما يستشهد به، قد أسى يعتقد بصواب هذا الرأي. "نحن، ذاتنا، لا نتناول الخشيش. إن هذا يتناقض مع الإسلام." هذه هي الكلمات التي سمعناها من المزارع الذي راح يحصد المحاصيل من مزرعته الواقعة على الطريق بين مزار الشريف وبلغ والذي تقوس ظهره بفعل العمل المرقق في الزراعة. ومضى الرجل قائلاً: "إن

الذي يدر على المزارع مبلغاً يساوي ٢٤٠ دولاراً للكليو غرام الواحد، إلى هيروين وإلى حين وصوله ليد التهلك في الغرب، مستخرف زمر صغيرة من الوسطاء أرباحاً خيالية. وكانت أسنطفي قد استرعت انتباه صاحبنا فصار يرتاب من أي، شخصياً، أود اقتناء الأفيون. ومع أنه كان قد أكمل حساباته الخاصة بالإنتاج الأخير مع مندوبي القائد العسكري، إلا أن هذا لم يمنعه من الاحتفاظ بكمية يخترنها لمواجهة الطوارئ. لكن غلام رضا لا يزال مرتاباً في الأمر: فماذا سيحدث يا ترى لو أن القريب قد أراد أن يتجسس عليه؟ وماذا لو وصل إلى سمع القائد العسكري أنه لا يزال يتوافر على شيء يريد بيعه وطلبه بحصته إثر ذلك؟ ويحذر ويخوف شلدين اصطحب غلام رضا، أخيراً، الزائر إلى قريته للحاطة بالمزارع والتي تبعد عن الشارع العام مسافة غير قصيرة. وكان هناك منزل يتصف بكل صفات منازل الفلاحين: من الخارج لا يرى المرء سوى جدار عال مشيد بالطين ويحيط بالمزحل الصغير من كل الجهات؛ أما في الداخل، فهناك عدة غرف مفتوحة على فناء الدار وملصقة بالجدار بيتاً وشمالاً. وترتفع، في فناء الدار، بسلام وروام بقرة وعدد من الماعز وكثير من دجاج راح يدخل ويخرج من الغرف بين الحين والآخر. وتكومت في إحدى زوايا غرفة النوم، تبعاً للعادة الأفغانية، فرش النوم: لحف من كل لون تطوى في النهار وتلتحف بها القوم في الليل وهم يتمدنون على الأرض. ويتأثر مسموح يخنحي رضا غلام فيخرج من أسفل الكومة، بعنه بين، لفافة عدة بالخيوط بمهارة بالغة. وبعدما راح يرفع عن اللقافة صلب طبقات قماش، ظهر للعيان، أخيراً، قالب أفيون خام بني اللون يميل إلى السواد ويزن حوالي أربعة كيلو غرامات. بهذه الهيئة يبيعها المنتج؛ وللاستهلاك المحلي تمط الكتلة ثانية حتى تتحول إلى هيئة حبال يستطيع المدخن، من بعد، أن يستقطع منها قطعاً صغيرة. وبناءً على السعر الذي طلبه الشيخ المعجور تبلغ قيمة الأفيون الموجود أمامنا حوالي ١٠٠٠ دولار. ولكن، أهله هي كل الكمية الموجودة لديه؟ كلا، أجاب غلام رضا وراح يقول شارحاً أنه باع خمسة عشر كيلو غراماً في هذا العام. وأنه يريد، في العام القادم، مضاعفة المساحة التي يزرعها ثانية. وللمقارنة: في أفغانستان يحصل المعلم على راتب يبلغ ما يساوي ٣٣ دولاراً في الشهر؛ المزارع الطامن في السن يجني من الأفيون الذي ينتجه في العام الواحد عائداً يبلغ قرابة ٣٨٠ دولار في الشهر. وحتى لو تقاسم العائد مع قائد الجاهلدين، لتبقى لديه خير وفير بكل تأكيد. ولا مراء في أن هذا يوضح بجلالة سبب فشل كل الجهود التي بذلتها الأمم المتحدة، حتى الآن، لحصد من زراعة الأفيون: فالبلغ الذي يريد

الفتشون دفعه للمزارعين الذين يدمرون حقولهم التي يزرعون فيها زهرة الخشخاش يبلغ، بالعد والتمام، خمسمائة دولار فقط.

في عام ١٩٩٩، أي في السنة التي سبقت آخر سنوات حكمهم، أنتج الطالبان ٤٨٠٠ طن من الأفيون. بالنسبة للعام ٢٠٠٢ تقول الأمم المتحدة إن الإنتاج حطم الرقم القياسي، إذ بلغ ٥٠٠٠ طن؛ أما بشأن العام الحالي فإن للمنظمات الدولية لفتاً بها المساعدة على إعادة أعمار البلاد تهمس بأن الإنتاج سيزيد على ٧٠٠٠ طن. إلا أن ضابط الشرطة كبير المقام في مزار الشريف يقول، بعدما أصر على أن يبقى اسمه مجهولاً، بأن على المرء أن يأخذ في الحسبان أن الكمية المنتجة ستزيد على ١٠٠٠٠ طن، وأنها ستضاعف في العام القادم، مرة ثانية، على ما يبدو. وأدلى ضابط الشرطة بملاحظات ذلك لأنه كان قد جلب على نفسه مصابب جمّة في سياق خلافاته مع بارونات الأفيون المحليين. فهو كان قد وثق بالبلغات التي أعلنتها الأمم المتحدة ولذا فإنه أراد أن يكون في مقدمة المتصدّين للمتاجرة بالمخدرات. وكان قد عثر في مخزن «إسراء تاج غورجهاني»، رجل الأعمال المعروف والذي يقال عنه أنه يمتلك ثروة تقدر بعدة ملايين من الدولارات، على كمية هيروين صاف تزن ١٣٠ كيلو غراماً بقيمة تقدر بما يزيد على مائة مليون دولار في السوق العالمية. ومع أنه كان قد أبلغ الأمريكيين والفرنسيين والأجانب، إلا أن مافيا المخدرات المحلية استطاعت أن تغطي على المفصّيحة. وهكذا فلت رجل الأعمال من الأمر سلباً أمناً، أما الشرطي الساخن فقد جنى الزجر والموم وأمرأ صارماً مفاده ألا يتدخل، مستتبلاً، في مثل هذه المسائل.

وإذا ما افترض المرء أن الإنتاج المتحقق في هذا العام سيساوي ٧٠٠٠ طن، فسنبليغ عندئذ الربح، للتواضع، الذي سيحققه صغار مزارعي الأفيون ما يقرب من ١,٧ مليار دولار. وفي المحيط الديبلوماسي يتحدث المرء بأن في أفغانستان فقط تدخل في كل عام - وينفخ النظر عن الأرباح التي يجنيها التجار المحليون والأجانب - خمسة مليارات من الدولارات في جيوب الأفغان المهيمين على مصائر الأمور المحلية وذلك من خلال زراعة الأفيون وتناج الهيروين وتهريب المخدرات. ومقارنة بهذا، فقد بلغت قيمة المبالغ التي تعهدت بدفعها لبلديات المانحة في مؤتمر طوكيو الأخير والمخصصة لإعادة أعمار البلاد ٤,٥ مليار دولار. ولكن لسنوات الخمس القادمة؛ هذا وسيرجع ثلثا هذا المبلغ على منظمات الإغاثة وثلث فقط سيكون من حصة الدولة الأفغانية. وإذا ما أخذ في الاعتبار أن جزءاً من هذا المبلغ سيستوي من الأناظر ويختفي في جيوب بعض القوم، عندئذ سيستفح للمرء مغزى ما يقصده الأفغان

والوديان العميقة. وكانت معالم الدرب، غير المعبد والذي بنات معالمه من جراء مرور السيارات المخصصة لقطع الطرق الوعرة، تختفي عن الأنظار باستمرار. فهذه الأرض، المقفرة الخالية من البشر والتي لا تزال توجد فيها الغام خلفتها حروب العقود الأخيرة من الزمن، لا أثر فيها لأحد غير المهرين. فليس هناك سبب آخر يبري المرء بعبور هذه المنطقة، فلا قوى الشرطة الأفغانية ولا مقدمو العون الأجانب يجرون على القدم إلى هنا. بهذا لا أحد يخفض هذه المنطقة للفتيش.

ومن حين لآخر يرى المرء من على البُعد قافلة جمال محملة بمتاع ثقيل الوزن؛ كما ويشاهد الجمال وهي تسلق، بتؤدة، التل أو تنحدر في الوادي. وعلى مسافة تبعد عشرين أو ثلاثين كيلو متراً من فوندوز بقود الدرب الوعر إليها، وبشكل مفاجئ حادث القافلة، التي كنت أراقبها منذ حين، عن الطريق، فسمالت باتجاه أحد الوديان: على هذا النحو تجلب المهربون المدينة فنداروا من حولها. ومن هنا يواصلون سيرهم باتجاه نهر آموداريه، الذي يشكل الحدود مع طاجيكستان.

وإذا كان هدف مايليا المخدرات الأفغانية يكمن فعلاً، لا في جني عوائد تبليغ المليارات فحسب، بل وفي تسميم الكفار أيضاً، فلا ريب في أنها قد أحرزت نجاحاً باهراً في السنوات الأخيرة: فحسب ما يقوله مفتشو الأمم المتحدة المختصون بالمخدرات، تصدر أفغانستان حالياً ٧٠ بالمئة من المخدرات المستهلكة في أوروبا و٤٠ بالمئة من المهربين المتداول في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي الواقع، لم يُستثنى من ذلك ولا حتى الأخوة في الإسلام. ففي البلد الجار باكستان هناك، حسب ما يقال، خمسة ملايين مدمن على تعاطي المخدرات، أما في إيران فإن الإدمان ينتشر انتشار النار في الهشيم، فالهيريون أرعد ثمناً ما هنا من الحشيش. وحتى في البلدان الإسلامية الواقعة في أواسط آسيا، وهي بلدان ما كان بها مدمن إلا بالكاد قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، انتشر تعاطي المخدرات فبلغ عدد المدمنين فيها عدة ملايين، حسب ما يقال.

إثر نشوء الفراغ السياسي الذي خلغته الضربة العسكرية الغربية، تطورت أفغانستان إلى معمل المخدرات العالمي. لقد ظلت التصريحات بشأن إعادة الإعمار والديمقراطية كلمات جوفاء. فالمرج المزدهرة التي وعد بها جورج بوش الأفغان، تتكون من مزارع الحشخاش الكبيرة ومن حقول القنب المتجمعة.

ترجمة: عدنان عباس علي

حينما يزعمون بسخرية تشويها المرارة أن جهود إعادة الأعمار ترمم الطبقات العليا من دارهم فقط.

وتطورت في أفغانستان ثقافة مخدرات شملت كافة فئات الشعب. ويخيل من الإحباط والاحتجاج العنيد - لم لا يشاركون هم أيضاً بالثروة التي تدرها الأرض حقاً وحقاً - بدأ المواطنون يكفون أنفسهم مع الحال السائدة. ويفخر واعتزاز يتحدثون والد المعصومة عن البراعة والمهارة اللتين تحظى بهما ابنتهما البالغة من العمر تسع سنوات. فالصبية كانت تتطلع للحصول على جهاز فيديو، إلا أن العوز المادي حال دون تحقيق تطلعاتها. وهكذا راحت الصبية الصغيرة تزور الحشخاش في فناء المنزل. وتحدث الصبية عن نفسها فتقول: "كنت في صبيحة كل يوم وقبل ذهابي إلى المدرسة أسقي الزرع بسلام وأزيل عنه الأعشاب الطفيلية." في عملية الحصاد، فقط، ساعدها والداهما. وتواصل الصبية حديثها فتقول: "أما الآن فلاني أود الحصول على كاميرا وجهاز تسجيل صوتي. ولذا فإني سأزور ما هو أكثر من هذا في العام القادم." وتعين على بشير، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً والطالب في الصف الحادي عشر من المدرسة الإعدادية، أن ينهض، بعد والده على نحو مفاجئ، بتبديل لقمة العيش للوالدة وللأخوة والأخوات الأربعة الصغار. ولكن، ولما كان الأب قد أورثه بضعة أراض صغيرة، لذا فإنه أقبل على زراعة الأفيون، فحقق عائداً بلغ ٨٠٠٠٠ دولار في هذا العام.

ولم يقتصر الازدهار العظيم الذي حققته زراعة المخدرات على الشمال فحسب، بل هو عم البلاد قاطبة. ويكاد أن يخصص هذا الإنتاج الكبير للتصدير فقط. وهناك العديد من المسالك الكبيرة للتهريب تمر من شمال أفغانستان إلى طاجيكستان ومن الشمال الغربي إلى هيرات وتركمانستان وإيران، حيث يشارك حراس الثورة بجني أرباح عظيمة من تجارة المخدرات، بالإضافة إلى هذا هناك مسالك أخرى تقود، عبر قندهار أو عبر الطرف الشرقي، إلى باكستان. وبعبر قوندوز وتاجار وبواسطة قوافل الجمال ينقل غالبية الأفيون القادم من منطقة مزار الشريف إلى طاجيكستان، حيث تكون مايليا المخدرات الروسية بانتظار الأفيون.

وكان مقصدي التالي هو قوندوز. وكان أحد القوم في مزار الشريف قد قال لي ناصحاً، بآني إذا كنت أريد أن أرى بأم عيني أحد مسالك التهريب هذه، فإنه يعين علي أن لا أسلك طريق "سالان"، بل يجب علي أن أسلك طريق القوافل للسمي «إيرغاناك»، الذي يوصلني، بعد ١٣٠ كيلو متراً، إلى قوندوز. وفي هذا الاتجاه، وحالاً يغادر المرء المدينة، لا شيء هناك سوى الصحراء. الزراعة هنا غير ممكنة وذلك لعدم توفر الماء. وهكذا يعم اللون البني الفاتح الشبيه بلون الطين التلال المتزايدة الارتفاع رويداً رويداً

بين الأسطورة والواقع

من كافرستان إلى نورستان

إلى البلاط في كابول بمثابة «غنائم»، وجرى خونها في قصر الأمير. منح ١٤ منها بعد ذلك إلى متحف كابول و ٤ إلى متحف «غيميه» Musée Guimet و «دي لاوم» Musée de l'homme في باريس. وأرسل اللالي إلى المنطقة كي يعيدوا تشييف سكانها الذين كشفوا، في غالبيتهم، عن تشييف كبير بمعتقداتهم التقليدية ونظامهم الاجتماعي. تمرد الكفار الذين يقيمون شمال غرب

"ليس الكافر قاسيا بالسليقة، رغم اعتقاده بأن قتل المسلم فضيلة تنسجم مع مبادئ دينه ورغم أنه لا يستثني حياة امرأة أو طفل في غاراته على الأراضي المعادية ولا يقيم لحياة الإنسان قيمة تذكر. ويصاب بالدهشة كل من يعرف مبلغ وحشيته ويقارنها بتمحرره النسي من القسوة". هذا ما كتبه الطبيب البريطاني (السير) جورج مكوت روبرتسون بعد أن قضى سنة بين هؤلاء «الكفار»، الذين



رجال نورستان، تصوير: Max Klimburg

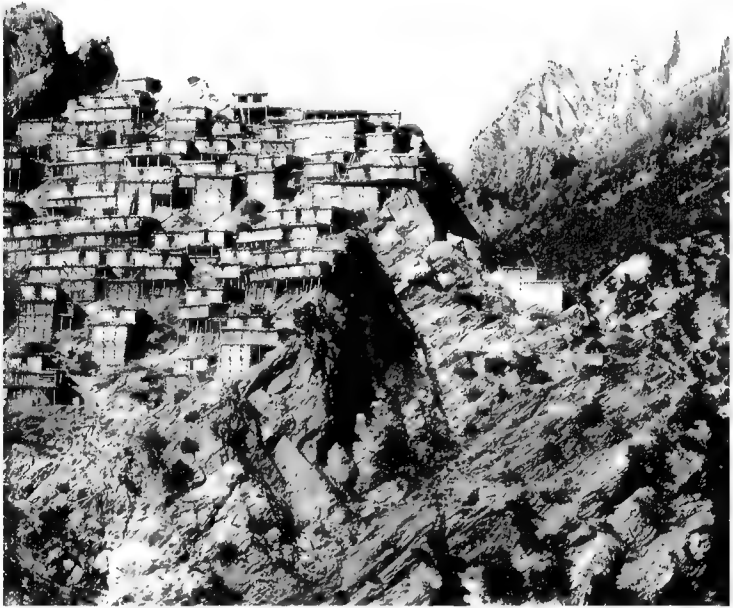


المنطقة، والمعروفون باسم «كاتي Kati» الغربيين، على أسيادهم الجدد، تم نفيهم في الحال إلى مناطق غير بعيدة عن كابول وحظرت عليهم العودة إلى وطنهم طوال عشرين سنة. ومنع وطن الكفار، كافرستان السابقة، اسما يشي بالتنوير الذي نشره الإسلام هو «نورستان» أو «بلاد النور» أو «أرض التنوير».

ظهر إلى اللا كتاب روبرتسون الشهير «كفار الهندوكوش» بالصدفة في تلك السنة المصرية بالذات. عاش هذه الانكليزي المناغم والشجاع، الذي يعمل لحسابه الخاص ولكن بتنهج من الحكومة البريطانية - الهندية، سنة كاملة محمد بين ١٨٩٠- ١٨٩١ مع كفار كاتي الشرقيين في

ذاعت شهرتهم بين التضاريس الجبلية لشمال - شرق أفغانستان كوثنيين قساة تواقين لقتل المسلمين.

تقرر مصير هؤلاء "الكفار المتوحشين" في شباط ١٨٩٥/٩٦ حينما غزا الجيش الأفغاني كافرستان، "أرض الكفار"، بهدف تعطيل هذه الثقافة القديمة، التي تقرب جذورها في الماضي ما قبل المسيحي البعيد، وتحويل الكفار إلى مسلمين. ولم توفر النيران، بعد أن أثبت استهتا على المعابد والأضرحة وأماكن العبادة والأصنام الخشبية، سوى بضعة أصنام وعدد وافر من تماثيل الأسلاف التي وثقها روبرتسون. (تم نقل أكثر من ثلاثين تمثالا خشبيا منها عام ١٨٩٦، أو بعد هذا التاريخ بقليل،



قرية جبيلة في نورستان، تصوير: Max Klimburg

كافة مشاهد سفك الدماء التي سردها عنهم في تجريد خسارة كافرستان من معنى التفريط بثقافة «بدائية» حيوية ومثيرة.

اسللت الستائر بعدئذ على الموضوع بعد أن أوقف حكام أفغانستان إجراء المزيد من الأبحاث الأنثروبولوجية في نورستان. سمح في نهاية المطاف عام ١٩٣٥ لبعثة ألمانية متعددة الاختصاصات العلمية، رعتها مؤسسة الأبحاث الألمانية، في سير غور المنطقة بحرية. وتمخض عمل البعثة عن اكتشاف الكثير من المعطيات الأنثروبولوجية الطبيعية والإثنية العامة. ولم يظهر أي بحث ميداني متخصص إلى

وادي «باشغال» حاصر عنهم بعد ذلك في لندن عارضا الصور التي التقطها يد «الفانوس السحري» - التي فقدت مع كل أسف - ومدونا العديد من القصص الشخصية الحكومية المفصلة والمزوقة بالملاحظات عن نظام معتقدات الكفار للحليين وهاداتهم وحياتهم اليومية. وحقق كتابه هذا نجاحا كبيرا وقتئذ لكونه وصف مشاهد العيان الأول والأخير للكفار. ولهذا فقد استقبلت الأخبار التي بلغت انكلترا، بعد فترة قليلة من نشر الكتاب، عن قسر الكفار على الإسلام بمظاهر عالية من الاحتجاج والحزن. إذ غيغ روبرتسون في تقديم صورة ساحرة عن الكفار فشلت



معظم أنحاء نورستان تقصيا لآثار ماضيها الكافر ثم تابع العمل لاحقا من خلال البحث المحلي المكثف .

إنها حقيقة مذهلة بالفعل أن ينجح من يطلق عليهم لقب الكفار بالاحتفاظ بمعتقداتهم الضاربة في القدم وبثقاليدهم «البداية» حتى نهاية القرن التاسع عشر رغم العالم الاسلامي المحيط بهم . ولا شك بأن سر ديومتهم الثقافية يعود في الأساس إلى عزلتهم في الوديان الملتفة بالأشجار والشديدة الانحدار بعيدا عن طرق التجارة الهامة التي تربط آسيا الوسطى بالهند. هذا إضافة إلى سمحتهم كشر نازعين للقتل التي أسهمت بالتأكيد في ردع الغزاة المحتملين.

يحتل وطن الكفار، كافرستان/ نورستان، المكسو جزئيا بالغطاءات الكثيفة، مساحة تبلغ نحو ١٢ ألف كم مربع من الأرض المستندة بين الجزء الجنوبي من جبال الهندوكوش وشمال شرق أفغانستان، وبين الحدود الباكستانية في الشرق وروادي بانجشير في الغرب. ويخند هذه الأرض، التي تسيل فيها مياه أنهر «الينغ» و «الينغار» و «بيتش» و «باشغال» وغروعا (من الغرب إلى الشرق)، عدد لا يحصى من الوديان الباغية الانحدار والمحاطة بالجبال التي ترتفع بأطراف كلما توغلنا باتجاه قمة سلسلة جبال الهندوكوش الرئيسية. ويبلغ عدد سكان المنطقة في الوقت الحاضر نحو ١٥٠ ألف نسمة يعيشون في خمس قرى كبيرة هي: «كاسمديش»، (حيث عاش روبرتسون) و «نشيغرام» و «واينال» و «واما» و «زهونينغال»، التي يشتمل كل منها على نحو ٣٠٠ - ٥٠٠ منزل، إضافة إلى عدد والفر من المستوطنات الأصغر، والأخرى الباغية الصخر. وبنيت معظم هذه القرى بشكل مدرج على السفوح المنحدرة و بما يوفر ما يكفي من الأرض الصالحة للزراعة. وللببوت المربعة الأحادية الغرف عادة (مع قبو)، والمبنية من خشب أشجار الأرز التي كانت جبال الهمالايا مصدرا غنيا لها يوما، هيكل من الخشب تمنحها في مختلف المناطق شكل سفالات لولبية. وهذا يعني أن تصاميم البيوت مناسبة تماما لمقاومة الهزات الأرضية. يركز الاقتصاد في المرتبة الأولى على الرعي والزراعة القائمة على موسم حصاد واحد في الوديان العليا. يعتني الرجال هنا بالمواشي التي تتألف في الغالب من الماعز الذي يمتش في الشتاء على أوراق شجر السندباد المقدس. أما في الوديان العليا فيسود اقتصاد تسيل الماشية. ويتنقل الرجال مع حيواناتهم كل صيف إلى المروج العليا ليعودوا بعدها في الخريف إلى واديهم. وكان القوم يتمتعون عادة بموسم الهجرة المذكور بسبب غناء مصادره من الحليب والزبد والجبن، إلا أن الاهتمام بحياة الرعي قد علاه بعض الصدا هذه الأيام. ونادرا ما يشارك الرجال في أعمال الزراعة التي تقوم بها النساء عادة.

الوجود إلا بعد الحرب العالمية الثانية على يد علماء دغاريين قادوا مجموعة صغيرة من علماء الأعراق البشرية واللغات. ويأتي هسالم النساب الدغاري لينارت ايدلبرغ Lenart Edelberg وعالم اللغات الهندية النرويجي ج. مورغنشتيرنه G. Morgenstierne، عالم اللغات الهندية الألماني جورج بودروس Georg Buddruss وكاتب هذه السطور، الذي يعتبر مؤرخا وعالم أعراق، في مقالة العلماء المهتمين بالدراسات والأبحاث الميدانية حول كافرستان/ نورستان. ويخدم من مؤسسة الأبحاث الألمانية، أخذ الكاتب عام ١٩٧١ على عاتقه مهمة مسح

آمن الكفار بعدد وافر من الآلهة التي غالباً ما تذكرنا أسمائها بمصادر آلهة الإيرانيين والفيدياوين Vedic والهندوس القديمة. كانوا يؤمنون بآله أعلى هو «مارا» أو «إسرا»، إضافة إلى عدد كبير آخر من الآلهة والآلهات الأهل شأناً المعروفة محلياً بأسماء: «ماندي» أو «ماني»، و «وشوم» أو «شومدة»، «غيش» أو «غيشوش»، «باغيشت»، «إندر»، «ووزوم»، «ديساني»، «كشوماي» أو «كيمة»... إلخ. وكان لكل قرية ولكل عشيرة إلهها الحامي بالإضافة إلى كهنة «شاما»، يبدون المواقف للباحثين عن الخطوة عند الإله ودهيان يقومون على الخدمات الدينية. وركزت العبادة على التضحية بالحيوانات، التي يشكل الماعز معظمها، وعلى التطهير تقرباً من الإله بتأثير دخان المشعلات (وهي نيران كبيرة تضرع في الهواء الطلق) الذي ينطلق عن حرق أوراق العرعر المختزجة برائحة الدم المحترق وزبد الحليب.

واكتسب وادي كفار البارون، الذي يسكنه اليوم نحو ٣٠٠٠ إنسان متوزعين على ست قرى، «أجواء دينية متميزة»، لشدة اهتمام سكانه بأفكارهم الدينية وأساطيرهم (روبرتسون). فقد سادت ذهنية عامة من الاهتمام بالعالم الملوي الذي كان يجري تصوره في الغالب، كما تخبرنا ذلك العديد من الأساطير المطولة، كعالم يحكمه عدد كبير من الآلهة والعماقة المشاكسين. ويحتل مبد «مارا» في كوتشيسكي مركز الوادي، وهو أكبر معابد كافرستان الدينية على الإطلاق ويجذب الحشيج الزائرين بتقديم الأضاحي إلى الإله من كل أرجاء المنطقة. هذا إلى جانب العديد من المعابد الأصغر والأضرحة ومعابد - العشار، التي تحمل اسم «أمول»، والتي تنتشر في كل مكان. والد «أمول» هي بيوت غمלקها العشار ويسمح لكاهن العشيرة «مونت» بالسكن فيها وتقديم الخدمات الدينية للسكان إلى أن يفقد شعبه يوماً ويجري استبداله بكاهن آخر. والمدهش في الأمر هو أن معظم هؤلاء «المونت» عاشوا حتى السبعينات ولم يصيبهم أي مكروه، ونقلوا معهم الألواح منحوتة بأشكال الآلهة، وإن كانت قد شوهتها ضربات القذوس. احتوت معابد «أمول» في كافرستان، في الماضي، على تماثيل خشبية منحوتة قائمة بذاتها تصور الآلهة، الآلهات في العادة، وتؤدي وظيفة التماثيل الدينية المعبودة. وتصور الآلهة عادة وهي جالسة على الماعز أو على الكراسي عدا عن الإله الأعلى «مارا»، الذي يصور محتلياً صهوة جواد. وكتب روبرتسون أن الأشكال المنحوتة على الألواح، وكذا التماثيل الحجر، بدت غريبة برووسها الضخمة الجالسة على أجسادها البليدة العديدة الأعناق، بل غريبة إلى حد «المفارقة المدهشة».

ويزرعون في الوديان الجنوبية (الأوطا) سلعيات منحدرية صغيرة من الأرض غير الصالحة لاستخدام المحراث فيها. إن الخصائص الثقافية للكفار، بدءاً بلغتهم ومعتقداتهم الدينية، وانتهاءً بأشكال فنونهم وهندستهم البنائية، محلية ضيقة، وتضيق في ذلك توقعات المرء وإن وضع في عين الاعتبار العزلة النسبية للوديان عن بعضها. ويمكن تمييز أربعة أشكال من الثقافات المحلية المتميزة وفقاً للغات الأربع المختلفة السائدة في المنطقة. وهي ثقافات كفار «الوينغال» و «الاشكون» في جنوب المنطقة، ثقافة «الكاتي» في شمال - غرب وشمال - شرق المنطقة وثقافة «البارون» بين ثقافتي مجموعتي «الكاتي» المذكورتين. وهناك ثقافة محلية خامسة هي ثقافة كفار «الكلاشا»، الذين يتحدثون لغة شمال غرب الهند. وقد لجأ الآخرون من حملة القسر على الإسلام التي قادها الجيش الأفغاني بفعل استيطانهم في «شيتال» الواقعة في شمال - غرب باكستان، خارج مناطق كافرستان/ نورستان. ويوفر هؤلاء للباحثين مثالا حيويا عن العادات المماثلة إلى حد ما للتقاليد الثقافية المتميزة الحالية لمجموعة كفار كاتي الشرقية التي تعيش على الجانب الآخر من الحدود بين باكستان وأفغانستان. وواقع الحال أن كفار كاتي الشرقية، من سكان وادي باشغال، هم المجموعة التي طفعت شهرتها آثار كل العالم من خلال تقرير روبرتسون التفصيلي. هذا عن ذلك، فقد قام روبرتسون بزيارة قصيرة إلى كفار البارون، وهي زيارة لم تنجح، لشدة قصورها، في تقديم أكثر من بعض الملاحظات، ناهيك عن الوصف التفصيلي لمبد كافرستان الرئيسي الذي كان ينصب مرة في قرية «كوشتيكي» في قلب البارون. واكتنف الغموض ثقافة كفار الوينغال والاشكون إلى أن شرع البعض في بحث ميداني هناك عام ١٩٦٠. أما كفار كاتي الغربية، الذين عاشوا بحدود مشتركة مع الطاجيك في وادي «باتشير»، فقد ظلوا خارج نطاق البحث. لهذا، لأنهم لم يسيروا اهتمام أحد بمد أن فقدوا جزءاً عظيماً من تقاليدهم القديمة جراء حياة الخفى الطويلة التي عاشوها اثر تمردهم على أسياهم المطلقين الجدد.

تتميز ثقافات الكفار المختلفة عموماً بالإلحاد، بمفاهيم متزمنة عن الطهارة والنجاسة ومنظومة عالية التطور من احتضالات - الاستحقاق الدينية المرتبطة بثقافة المحارب التي تعبر عن طقوس صيد رؤوس الأعداء. إلا أن دور الدين وأهمية الحالة الاجتماعية للفرد تختلفان بوضوح بين مختلف الثقافات المحلية. بل أن بوسع المرء هنا الحديث عن تباين قطبي إذا ما ناظر ثقافة كفار البارون بثقافت كفار الوينغال والاشكون. وينبغي هنا وضع ثقافة الكاتي بين الثقافتين المذكورتين بحكم اشتراكها بخصائص هامة مع الاثنين.

البشر الأعداء الذين فُتِكَ الباتور بهم أو عدد ضحاياهم العاديين من نساء وأطفال. وكانوا يبتون لأنفسهم البوابات والأضرحة البسيطة ويخونون وأجهات ودواخل بيوتهم بالمنحوتات. وتستخدم المنحوتات الأساسية الأربع التي تحيط بالموقد والتي تعلق على الجدار الخلفي لعليت كحائز يعترف بالمرتبة الاجتماعية لصاحب البيت. وأبرز هذه المنحوتات هي ديكورات الرؤوس البشرية الشبيهة بالقرون، والثروس أيضا في أكثر هذه المنحوتات جلة. ومن الممتلكات الأخرى الباعثة على الهبة هي «كراسي الشرف» الشبيهة بالعروش والمزودة بظهر مزدوج، طاولات الحديد المطاوع المزودة بثلاث قوائم أو أربع، التي تذكر بالأشياء المصنوعة في اليونان القديمة، وكؤوس التبيذ الفضية الكبيرة التي تفتن من أهم معالم ثقافة الكفار

وفي تباین قطبي تقريبا مع الحماسة الدينية لشعب البارون، المنطوي على الذات بعض الشيء، نرى أن الاهتمام الأساسي لكفار الويفال والاشكون، المفتحين بالأحرى، ينصب على الحالة الاجتماعية. ونجد الرجال، البالغين الاهتمام بمظاهرهم ورجولتهم (يرفضون كمثل حمل أي شيء على ظهورهم)، يزايدون على بعضهم بإقامة الولائم الكبيرة في الأعياد الدينية وفي اجتراح مآثر للحاربين بهدف اكتساب الاحترام اللائق «برجل عظيم». ويسنى للمحاربين العظام، المعروفين باسم «باتورة» أن يجدوا أنفسهم من خلال نصب منحوتات انتصارية بارتفاع الأشجار يتوجها شكل بشري لمطي، وذلك بعد أن ينجحوا في الإيفاء باحتياجات ولائم الأعياد الدينية الكبيرة. وتثبت الأوتاد على جانبي المنحوتة لتصوير أعداد

قرية في دورستاك، تصوير: Max Kimburg



ي مارسوا الجنس مع النساء بعد كإظهار المخلوقات. أما النساء عموما فكان يصنفن كـ «نحسات» لأنهن يصبحن بانتظام عامل «تلوث»، للطقوس أيضا، في أوقات الحيض والولادة. وكان عليهن في هذه الأوقات أن يتقلدن إلى بيوت معزولة مخصصة للحيض والولادة تم بناؤها في ضواحي القرية ويحظر على الذكور دخولها.

فالكفار في هذه الحالة يعزون أي نجاح مادي أو اجتماعي إلى التضامن الخير بين هذين العاملين وإلى التقيد بقوانين الطهارة. بل ينفرد الرجال حتى اليوم بوظيفة تربية الحيوانات، ولا يحق سوى للرجال مرافقة الماشية، وخصوصا للماعز، إلى المراعي الجبلية وإلى عالم «المارخور» البري الذي تسود سمعته كحيوان بالغ الطهارة والفحولة. ويقع على النسوة البقاء داخل السديان «النحسة»، وأن يشغلن أنفسهن بالزراعة والأعمال المنزلية «القدرة».

وكان العمال البدويون يصنفون كإفراء «نجسين»، يختلفون اثنا وجوهيا عن غيرهم. ويطلق على العامل منهم اسم «باري»، يعيشون في حالة تشبه الاسترقاق، يلزمون بالبقاء معزولين إلى حد كبير عن حياة القرية ويقبضون في بيوت تقع جغرافيا تحت مستوى بيوت الكفار «الحقيقيين». ولم يشتغل بمهنة الحرف اليدوية بشكل طبيعي غير كفار البارون. وهذا يعني أن الثقافة المادية للكفار، وخصوصا منحوتاتهم و تماثيلهم المحفورة على الخشب وأدواتهم المعدنية المثقفة، باستثناء عدد كبير من التماثيل والأواني الخشبية والأباريق التي صنعها البارون، هي من منتجات الحرفيين اليدويين «النجسين». وبعد كل الدمار الذي رافق حملة نشر الإسلام، وبيع التحف لتجار الانتيكا طوال عقود، والأهمال المقصود لكثير من الآثار، لم يسلم منها على المستوى المحلي سوى عدد قليل من هذه الشواهد الهامة على حضارة الكفار المدثمة.

أشرق فجر الإسلام إذا في نورستان، وما عاد المرء يجد فيها هذه الأيام غير عدد يزود بأطراف من الحجاج، إضافة إلى غالبية من العاطلين وعدد غفير من الملالي الذين تلمذوا في مختلف المدارس الباكستانية. بل إن شمال المنطقة شهد حملة لـ «إعادة نشر الإسلام» أيضا، بعد أن اعتنق سكانها الوهاية. وتوفر المدارس الوهاية وبقية مدارس القرى شيئا من التعليم للناس، مع وجود بعض الملالي الذين يفخرون بإتمام دراساتهم الدينية العليا في المملكة العربية السعودية. إختفت الموسيقى عمليا واختفى معها الرقص، الذي كان يوما يؤدي بشغف وعلى مدى واسع، من معظم أرجاء نورستان.

ترجمة: ماجد الخطيب

الاحتفالية. ونالت هذه الكؤوس، التي اكتشفت عام ١٩٥٥ ونشر عنها لأول مرة عام ١٩٦٥، اهتماما ظاهرا ليس بسبب فيها الرفيع فحسب، وإنما بسبب تماثلها مع الكؤوس المرسومة على جدران آسيا الوسطى والتي تمثل مآدب الارستقراطية «السوغادية» في الفترة التي تسبق القرنين الخامس والثامن. وبهذا تكون المادة الثقافية بأسرها مكرسة للتعريف، وبأكبر قدراتها على الاقتناع، بالمرتبنة الحقيقية التي حققها الفرد من خلال مآثره.

وتستعرض الحالة الدينية والطولية في ثقافة الكاتي في الجزء الشرقي من المنطقة بطريقة أرفع شأنًا ترتكز إلى إبراز النخبوية القائمة على الأساس العالي. فيبتر «العوائل الكبيرة» تبنى كي تؤثر في الآخرين من خلال حجمها وديكوراتها المحونة الغنية بتعقيداتها وتشابكها وليس بتأثير المنحوتات الخاصة بالكشف عن مرتبة الفرد. وتتمتع تماثيل الأسلاف من الرجال والنساء هنا بأهمية خاصة بلغة التعبير عن الغنى والتقاليد العائلية والحالة الاجتماعية الراسخة. وفي حين تسود في غرب منطقة الكاتي صورة ثقافية نمائيلة، نجد بالمقارنة، أن تماثيل الأسلاف غير معروفة عند الويغال والاشكون لأن الحالة الاجتماعية قد فقدت ببساطة، بسبب احتلال عائلة واحدة في البارون للمركز الاجتماعي الحقيقي، بعد أن خصها الإله الأعظم بالحظوة بالطبع، وفشلت العوائل الأخرى في منافستها.

ويعتبر النحت المحصور الذي يمثل شكلين متشابهين أو متماثلين في حالة عناق جنسي من أهم المعالم المنفردة لثقافة الاشكون والكاتي الغربية أيضا. ويصور هذان الشكلان بوضوح في العديد من الحالات كذكر وأنثى وكشكيلين غير متماثلين جنسيا في حالات أخرى. ويوزن هذان الشكلان، اللذان يشاوح حجمهما عادة بين ٥٠ - ٦٠ سنتيمترا، تيجان «كراسي شرف» أو «دكات شرف» ذات حجوم تتجاوز المعتاد. ولأن أيًا من هذه الكراسي لم يسلم من الدمار كي نراه، فيمكن الافتراض بأن الشكلين المنحوتين كانا جزءا من «كراسي شرف» هدفها تمكين الزوجة، إذا كانت نفسها أهلًا للتقدير، من الجلوس إلى جانب زوجها «الرجل الكبير».

يمثل تصوير هذين الحبيين الرمزية الجنسية الكلية الوجود التي سادت يوما بين الكفار. وهو تصور نشأ من صلب النظم الإيمانية التي تعتقد أن العالم وليد الممارسة بين الجنسين، والذي يفسر أيضا ثنائية الطقوس القائمة على تناقض «الطاهر» و«النجس»، أو على نفس الشكالة تناقض «الجبل» و «الوادي». وعلى هذا الأساس كان الرجال والماعز، وخصوصا الماعز الجبلي من نوع «مارخور» يصنفون كطاهرين، ويعامل الصبيان الذين لم

البوذية في أفغانستان

ازدهارها وأفولها

والتي قد يكون اتخذ منها مقاتلون ومدنيون ملجأ لهم. من المؤسف أنه لم يتم لحد الآن التوصل إلى معلومات دقيقة حول مشا وطريقة اكتشاف هذه المخطوطات. لم تكد تصل المخطوطة الأولى إلى أسواق الفن في الغرب، حتى عد الخبراء تلك اللقطة عملاً هائلاً، وفي الحال ذاع خبر ما يسمى بـ «البحر الميت من مخطوطات البوذية». وقد استقبلت بحماس في وسائل الاتصال الناطقة باللغة الإنجليزية، وأدت وفرة التقارير الصحفية إلى انتشار واسع لخبر للمخطوطة الجليدة.

على حين غرة ارتفعت الأسعار، وفي هذه الأثناء أصبحت تدفع مبالغ سخية لمخطوطات كهذه. وهذا أفضى بدوره إلى تواصل الإمدادات المستمرة عبر باكستان إلى الغرب واليابان حتى يومنا هذا. من الطبيعي أن تسود آراء متناقضة حول هذه المسألة. فمن ناحية يكون مبعثاً للسرور أي تنام في المعرفة تتيح لنا المخطوطات عن تاريخ الأدب البوذي وتاريخ أفغانستان. من ناحية أخرى تبقى الظروف الدقيقة لهذه الاكتشافات مغلفةً بأماناً وبذلك تفلت من أيدي المؤرخين، معلومات لا تفيض. فالمؤرخ تمهده الرغبة في معرفة المكان الذي جاءت منه هذه المخطوطات، وفيما إذا تم اكتشافها في أديرة قديمة مقامة في الكهوف أو من المعابد أو من آثار المقابر البوذية، وإن كان تم العثور عليها كلتي منفردة أو ضمن مجموعات، وأسئلة كثيرة غيرها. كل هذا قد يكشف لنا شيئاً عن الحياة الدينية في أفغانستان قبل أكثر من ألف سنة، بيد أننا لم نحصل لحد الآن إلا على المخطوطات فقط، من دون الإطار، الذي خلطت فيه لأكثر من ألفي سنة.

كيف وصلت البوذية إلى أفغانستان؟ إن الكيان السياسي الذي نربطه اليوم باسم «أفغانستان»، يعد حديثاً نسبياً. وخلف هذه التسمية لا تكمن أية وحدة ثقافية أو لغوية، ذات تاريخ عريق. ففي الماضي، كانت الأراضي الخاضعة للدولة، اليوم موزعة بين عدة عمالك. هنا يصح على القرون السابقة للتاريخ المسيحي، رغم أننا لا نعرف الكثير عن ذلك. إن الاحتكاك الأول المؤكد لحد ما مع البوذية يسمح بتحديد تاريخه في منتصف القرن الثالث قبل التاريخ للمسيحي. في هذه الحقبة أسست أسرة ماوريا

كانت أفغانستان على السدوم بلداً إسلامياً. فحتى زمن قريب كان هذا هو التصور السائد فعلاً، ولايكاد يخطر على البال، أن هناك ديانات أخرى كانت منتشرة في هذا البلد قبل ظهور الإسلام. ولم يكن أحد على بيته، من أن الديانة البوذية كانت من ضمن تلك الديانات، سوى المؤمنين اهتماماً بالغا بتاريخ أفغانستان أو بتاريخ الديانة البوذية، أو بعض السباح الذين وجدوا أنفسهم بالصدفة وجهاً لوجه مع نصبي بوذا أثناء تجوالهم في هذا البلد. قبل ستين ونيف، أي في آذار/ مارس ٢٠٠١، حين شرعت طالبان بتحطيم تمثالي بوذا العملاقين في وادي باميان، حينذاك وعت فجأة أوساط واسعة من الرأي العام العالمي، بأن الإسلام، على كل حال، ليس الدين الوحيد الذي طبع هذا البلد بطابعه. كما يحصل في أغلب الأحيان، أفضت الحسارة التي لحقت بثرات حضاري بطريقة لا رجعة فيها، إلى وحي عام بوجود هذا التراث. إن نصف نصبي بوذا أدى على الأرجح إلى عكس ما كان يأمله المبادرون من ذلك العمل، وهذا ما يبعث على الارتياح فعلاً. لكن ما لا يبعث على المواساة في مثل هذه الحالة هو تدمير أثنين حضاريين عالميين من معالم التراث الحضاري بطريقة لا رجعة فيها. لذا تساورني الشكوك بمدى فائدة كل للمحاولات القائمة الآن والهادفة إلى إعادة ترميم نصبي بوذا. ومكمن هذه الرية أخيراً وليس آخراً هو كثرة المشاكل للملحة التي تعاني منها أفغانستان اليوم والتي تتطلب حلولاً أكثر بكثير من مسألة إعادة النصبين الحجريين إلى وضعهما السابق، مع أن النصبين الضخمين قد يكون لهما تأثير مشجع على السياحة المنتظرة في يوم ما.

وهناك ظاهرة ثانية ساهمت في السنوات الأخيرة في أن تميد إلى الوحي ماضي أفغانستان البوذي، وهذه الظاهرة الثانية مرتبطة يقيناً بتأثيرات الحرب الأهلية. فمئذ ما يقارب العشر سنوات يجري باستمرار عرض مخطوطات بوذية من أفغانستان في أسواق الفن في الغرب والشرق الأقصى.

ربما كانت تلك المخطوطات اكتشافاً تم العثور عليه بالصدفة، في تلك الأديرة القديمة المقامة في الكهوف

الهندية إمبراطورية كبرى في الهند، شملت، إضافة إلى ذلك، في الشمال الغربي باكستان وأجزاء من أفغانستان الحالية. أوعز «أشوكا»، أهم حكام هذه الأسرة باستعمال نقوشه في عموم الإمبراطورية وتم اكتشاف نقوش له في مدينة قندهار. مما له معنى في هذا الصدد أنه لم يتم صياغة هذين النشئين لا في اللغة الهندية ولا باستخدام الحرف الهندي، إنما ترجمتا إلى اليونانية والآرامية ودونا بالحرف اليوناني. هذا يعني أن إمبراطورية أشوكا امتد نفوذها ليصل إلى نخوم منطقة تستخدم فيها، على ما يبدو، اللغة اليونانية كلغة للاتصالات أو الإدارة. يعود هذا النفوذ اليوناني إلى أيام الاسكندر الكبير، الذي قام باجتياح الهند في عام ٣٢٦ - ٣٢٧، ووسع إمبراطوريته لتمتد إلى البنجاب. لكن هذه الحملة لم تترك أثراً تذكر في بلاد الهند بالذات، إذ أخذت إمبراطورية الاسكندر الكبير بالانهلال عند موته. بيد أن نفوذ الحضارة اليونانية في الدول الشرقية التي خلفت إمبراطورية الاسكندر الكبير بقي بشكل عنصر حاسماً. إن المدينة اليونانية الواقعة في أقصى الشرق، هي التي نعرفها اليوم، إذ تم اكتشافها وحفرها في ستينيات القرن العشرين من قبل بعثة آثار فرنسية في أقصى شمال أفغانستان، أي في إيكاتوم الواقعة على نهر اموداريا. إن تأثيرات الحضارة اليونانية وقيما بعد الرومانية أيضاً استمرت لعدة قرون ونحن مدينون لهما بعد الميلاد بمساهمة رائعة في نشوء الفن البوذي، الذي سنتحدث عنه لاحقاً.

يبدو أن البوذية شهدت في عهد أشوكا أول عصر ازدهار لها في الهند، ولهذا فإنه من المحتمل أن يكون استقرار الوضع السياسي والذي أدى بدوره إلى تقدم التجارة الخارجية، شجع على انتشار البوذية في شمال غرب الإمبراطورية. غير أنه لم يتم التعرف على آثار مؤكدة لانتشار هذه النقوش باستثناء تلك التي تعود إلى القرن الأخير قبل التاريخ الميلادي، وبشكل خاص تلك النقوش الثابتة تواربها. لكن العديد منها موثقة في القرون اللاحقة لتاريخ الميلادي وعده بالدرجة الأولى نقوش أصحاب المذهب الديني، التي تظهر عليها، على سبيل المثال، أسماء الطوائف البوذية على انفراد أيضاً. وقد شهدت البوذية نهضة عظيمة، حين أقيمت مملكة كبيرة جديدة في الشمال الغربي في القرن الأول بعد الميلاد. استولى على الحكم في باتكين (إحدى الممالك القديمة حول العاصمة بالكة، التي كان شمال أفغانستان من ضمنها) شعب مهاجر من آسيا الوسطى، مجهول المنشأ. كان يتمتع بحكامه إلى قبيلة «الكوشان» التي أطلق اسمها على الأسر الحاكمة وعلى المملكة. وقد نجحوا في توسيع مناطق نفوذهم باستمرار، لتشمل أخيراً أفغانستان وباكستان

وأجزاء كبيرة من شمال الهند، ومناطق أخرى من أوزبكستان، وترامت أطرافها لأبعد من ذلك حتى وصلت إلى آسيا الوسطى. ومن جديد ساهم الاستقرار السياسي في تعزيز ازدهار التجارة الخارجية. كان أحد أهم الطرق التجارية «طريق الحرير»، هذا يعني شبكة من طرق التجارة تربط في امتدادها الأقصى بين الإمبراطورية الرومانية في الغرب وإمبراطورية قيصر الصين في الشرق. وتصل بفسرورها الكثيرة الممتدة إلى جنوب شبه القارة الهندية مع محور الشرق والغرب، حيث تمر تلك المسالك عبر أفغانستان أيضاً. لا يقتصر استخدام هذه الطرق التجارية على التجار فحسب، بل أفلح الرهبان البوذيون عبر «طريق الحرير» في الوصول في البداية عبر باكستان وأفغانستان إلى آسيا الوسطى ومن ثم إلى الصين، حيث كانوا ينشرون دينهم في كل مكان يرون به.

في عهد حكام كوشان حقق البوذية، على ما يظهر، نهضة عظيمة. تم في أثناء ذلك إنشاء أول الأديرة، وغالباً ما كان يتبرع بها أعضاء الأسرة الحاكمة، كما جرى بناء الـ «شوتوباد». كان أعظم حكامهم كانيشكا الذي ارتقى العرش في حوالي عام ١٢٥ بعد الميلاد، حسب المعلومات المتوفرة لنا حالياً، ويشار إليه في المراجع البوذية باعتباره مشجعاً بارزاً للبوذية. وهذا يصح بالتأكيد لحد ما إن أقدم صورة تشبهية لبوذا ترد على ظهر عملة معدنية لكانيشكا. من ناحية أخرى تظهر العملات المعدنية بالذات، أن حكام الكوشان قد مارسوا، على ما يبدو، سياسة دينية معتدلة وشجعوا في مملكتهم كل الأديان المثلثة هناك.

شجع الاستقرار السياسي التجارة وبدورها خلقت التجارة ازدهاراً اقتصادياً، لم يوفر لمثلي الأديان الأخرى فحسب، بل كذلك للحرفيين والفنانين مورد رزق. وبهذا يكون قد تم وضع حجر الأساس لإقامة «فن غاندهارا»^١. وغاندهارا هي التسمية القديمة للمنطقة الواقعة حول بيشاور، ثم تم استخدام هذا الاسم بشكل موسع، بالأساس، على طبيعة فن عظيم جداً، أي أطلق على منطقة، اتسمت بأسلوب فني موحد نسبياً. وهكذا، كما يستخدم هذا المصطلح اليوم في علم الفن الهندي، فإنه يشمل أجزاء من أفغانستان، والأجزاء الشمالي من باكستان وأقصى ركن في شمال غرب الهند. طيلة قرون لم يتم تصوير بوذا، بل كان يعرض بطريقة رمزية، كان يكون من خلال آثار أقدمه. اعتبرت هذه الفترة «مرحلة الاينكوتني» في الفن البوذي. لكنه تم في عهد الكوشان تقديم صور تشبهية لبوذا في كل من منطقتي شمال الهند وغاندهارا بشكل متزامن. وقد أخذ الفنانين في شمال الهند بمحاولة استخدام النموذج الهندي، وبذلك خلقوا



فن غاندهارا لم يقتصر تأثيرها على الهند وعلى توحيد النماذج القائمة هنا في تصوير بوذا، بل تم كذلك نقلها عبر طريق الحرير إلى آسيا الوسطى ومن ثم وصلت إلى الصين، حيث أصبحت نموذجاً للفن البوذي برمته في شرق آسيا. تم اندماج مكثف لعناصر هندية ويونانية - رومانية، فانبثق عنها أسلوب جديد - أخذ ومستقل. لكن على العكس من ذلك تماماً جرى الحال، على ما يظهر، في الأدب البوذي، كما نستطيع أن نلاحظ ذلك اليوم وبدقة. فمئذ ما يقاربَ العشر سنوات وصلت إلى الغرب واليابان عشرات الآلاف من أجزاء المخطوطات البوذية. بيد أن هذه المخطوطات لا تتضمن أي تاريخ، ولكن من خلال تطور الخط يتضح أنها دونت ما بين القرن الأول والقرن الثامن بعد الميلاد. باستثناء حالة واحدة حررت كل هذه الأجزاء باللغة الهندية ودونت بالحرف الهندي. يستتبع من ذلك، أن البوذية على صعيد الأدب لم تحاول، على الأغلب، أن تتواءم مع الظروف المحلية، على سبيل المثال من خلال ترجمة الأعمال القادمة من الهند إلى اللغات المحلية، كما هو الحال في الصين والتبت مثلاً. إن أقدم أجزاء المخطوطات تعود، على ما يظهر،



صورة بوذا، من القرن الرابع قبل الميلاد

من كتاب: "Gandhara" by Bénédicte Geoffroy-Schneiter. With kind permission by Knechtbeck Verlag, München

إلى النصف الأول من القرن الأول، أي أنها أُنجِزت بعد التاريخ الميلادي بفترة قصيرة. وهذا شيء مدهش. إن لأفغانستان الآن أن تدعي، أنها لم تحافظ على أقدم المعابد البوذية فحسب، وإنما كذلك على أقدم المخطوطات قاطبة مع مراجعها باللغة الهندية. وقد أضيف، لحد الآن، إلى مجد بقايا المخطوطات، تلك التي اكتشفناها بمئة لمانية قبل مئة عام في طريق الحرير في آسيا الوسطى. فهي بالطبع أحدث من تلك التي الجديدة من أفغانستان لفترة تتراوح بين مئة إلى مائتي سنة. كانت هذه اللقطة الجديدة عبارة عن لفائف يبلغ طولها متراً ومصنوعة من قشرة شجرة البَتُولَا. تم تدوينها بالحرف الكاروشتي، أحد أنواع الأحرف الهندية، التي تكتب من اليمين إلى اليسار. إذ جرى استخدامه لبضع قرون قبل وبعد التاريخ الميلادي،

نموذجاً لصورة مسودة. على العكس من ذلك اقتدى الفنانون في غاندهارا بالصيغ الماثلة آنذاك للفن اليوناني - الروماني متخلين منها نموذجاً، ليخلقوا من ذلك تكويناً فريداً غريباً في شكله وهندياً في مضمونه، أصبح مشهوراً عالمياً باسم «فن غاندهارا». استخدموا في تصوير بوذا الإله الإغريقي «إبولو» نموذجاً وللشخصيات المرافقة ببقية الآلهة كـ «هرمز»، وآلهة «الحظ» الرومانية أو «العراب» وتصوير جواهر الكشف، والفئة المهمة من شخصيات المتقدين تم استخدام الغلام الروماني نموذجاً. كان المثال الرائع للغة والأكثر شهرة شاخصاً في التماثيل القائمة في متزة دير هادا (غير البعيد من جلال آباد)، تم ترميمها منذ مدة، بيد أنه، كما قيل، تم تدميرها بشكل نهائي بسبب الأحداث الأخيرة. إن صياغة الصورة المعيزة في

فرعياً، يفضي عبر باميان ويشاور إلى الهند. وقد وصف باميان وعبر عن إعجابه بنصبي بوذا، لكنه أشار كذلك إلى التزمت الديني الذي يتسم به الناس هناك، وهو ما يميزهم عن جيرانهم. لكنه لاحظ في أماكن مختلفة ظاهرة، سبق أن أشير إليها، تنبئ ببدء احتلال البوذية. ربما كانت أسباب ذلك اقتصادية؛ لأنه يحرم على الرهبان البوذيين ممارسة عمل وهم بذلك يتمسدون على الملأ المتعين إليها في دعمهم مادياً. وحين تؤدي الاضطرابات السياسية، على سبيل المثال، إلى القضاء على الرفاهية، فإن ديناً كالبوذية يواجه، على حين غرة، موقفاً حرجاً. وما هو جدور بالاهمية، أن تدهور البوذية قد بدأ، على ما يبدو، قبل وصول الإسلام إلى أفغانستان بفترة طويلة. إن الإشاعة السائدة، التي تقول إن الزحف الحربي للإسلام هو الذي أدى إلى القضاء على البوذية في كل مكان من أفغانستان إلى شمال الهند، غير صحيحة على الإطلاق. إن هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن عوامل اقتصادية وكذلك دينية شكلت، قبل ذلك بفترة طويلة، بداية التدهور. غير أنه من غير الممكن لحد الآن إعطاء تاريخ محدد لنهاية البوذية في أفغانستان. لكن يمكن، على العموم، أن يستدل على ذلك، في أنها أخذت في القرن الثامن والتاسع تنسفي بشكل تدريجي، وهذا ما جرى تأكيد من خلال المشاهدات التي حدثت تاريخها للمخطوطات البوذية الحديثة من أفغانستان في القرن الثامن. وهكذا فإن البوذية قد تركت بصماتها، على امتداد آلاف سنة، على حضارة وتاريخ منطقة الهندوكوش، ومثلما نستطيع اليوم أن نوكد بشغف، أنها خلقت الكثير من الوثائق البوذية البالغة الأهمية في أفغانستان، أكثر بكثير مما كان يعتبره المرء ممكناً قبل بضعة سنوات.

ترجمة: علي أحمد محمود

وبالدرجة الأولى، في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية وقد اقتبس ليستعمل في العملات الرسمية في مملكة كوشانا، لكنه اندثر تماماً، في الحال بعد أن بادت المملكة. عثر على هذه اللقائف في منطقة جلال آباد، حيث وجدت ملفوفة في قدر كبير، ومن المحتمل، أنه قد تم دفنها. إن قشرة البتولا تجف بمرور الوقت ومن ثم تصبح سهلة الكسر. لهذا اقتضت عملية ترميم شاقة، قبل أن تصبح الحروف مستوية ومن ثم التمكن من قراءتها. قام بإجراء عملية الإصلاح هذه خيرة المكتبة البريطانية في لندن، حيث تم كذلك، الآن، حفظ هذه اللقيفة هناك. عند حل فحوى النصوص اتضح أنه جرى حفظ أعمال محددة في هذه اللقائف تقتصر على بوذية هندية. ويعد هذا في متبهي الأهمية، لأن هذه الأعمال كانت تعتبر في عداد المفقودة. بيد أننا، للأسف، لم نحصل على معلومات تاريخية يمكن أن تكشف لنا بالتفصيل تاريخ البوذية في هذه المنطقة، لا في لقايف المخطوطات الحديثة ولا في تلك المدونة على الورق أو على قشرة البتولا أو على الفصوص الهندي. لذلك ستبقى معلوماتنا عن تاريخ البوذية في أفغانستان، مستتبلاً، مجتزأة للغة. فنحن نتمتع، بالأساس، على تقويم الوثائق الأثرية. وهي مع ذلك تظهر لنا، أن البوذية قد لقيت دعماً كبيراً لروح من الزمن. كان بوذا العظيم في باميان الذي يكاد يصل ارتفاعه إلى ثلاثة وخمسين متراً، أضخم نصب لبوذا في العالم. إن إنجاز عمل كهذا قد اقتضى أدوات جسيمة. وباميان الواقعة على الطريق التجاري الذي كان يربط طريق الحرير بالهند، قد انتفعت غاية الانتفاع من التجارة؛ لكن من هم الرهبان الذين عاشوا في أديرة الكهوف حول نصبي بوذا العظيمين، وأية احتفالات دينية وطقوس أقيمت هناك وكم من محتفي البوذية كانوا يؤمنون هذين النصين، كل هذا يبقى في عداد الغيب.

إلا أن هناك وثيقة فريدة، وهي أقرب إلى تقرير شاهد عيان، إذ تم الحفاظ في هذا التقرير على بعض المعلومات عن باميان وعن البوذية في أفغانستان. في الفترة ما بين عام ٦٩٩ - ٦٤٥ قام راهب صيني يدعى اكسون تسانغ برحلة حج إلى هذه الأماكن البوذية المقدسة في الهند، وبهذا دون ما هو أشبه بيوميات عن الرحلة، ثبت فيها الأمكنة والمسافات وما هو مميز. في رحلته من الصين سافر عبر طريق الحرير إلى الغرب ومن ثم اتخذ طريقاً

- ١ - مسيد بني بالأساس لحفظ الآثار التذكارية لبركا ونسما بعد آثار قديمين آخرين. (لترجم)
- ٢ - «فن غلنداهارا»، فن هندي نشأ تحت تأثيرات الفن اليوناني والبردي في مملكة غلنداهارا الهيتية، حيث شهدت ازدهاراً واسعاً للفن من القرن الأول إلى القرن الخامس بعد الميلاد. (لترجم)

التصوف في أفغانستان

الطرق الصوفية وأثرها في الحياة الاجتماعية والسياسية

والشعراء في خراسان، التي كانت تسمى آنذاك بلاد المشرق، وهي المنطقة التي تشمل أفغانستان الحالية، وشرق إيران، وآسيا الوسطى المتاخمة لهما، والتي تعتبر مهد التصوف في العالم الإسلامي. لقد ازدهر التصوف والفن في بعض مدن هذه المنطقة، وبخاصة، مثل مدن هيرات، وغزنة، وبلخ، وإلى بلخ، موطن العلماء، الواقعة في براري شمال أفغانستان، ينسب إبراهيم بن أدهم (المتوفى عام ٧٧٦ أو عام ٧٩٠)، وهو الزاهد الصارم، الذي هجر حياته كامير، وأصبح متصوفاً خالصاً. وفي هيرات غربي أفغانستان عاش عبد الله الأنصاري (١٠٠٦ - ١٠٨٩) شيخ هيرات وحاميها. وكان أولاً من علماء الفقه الإسلامي الخليلي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ثم أصبح شيخ الصوفية المشهور هناك. وألف بالفارسية كتابه المشهور في التصوف «منار السائرين»، وكذلك كتاب «المناجاة»، الذي يشتمل على أدعية في نشر فارسي مسجوع. وفي غزنة وكُند الهجوري. ويُعد كتابه، الذي أُلّف بالفارسية، وسماه «كشف المحجوب» أول مؤلف منظم للتصوف. وفي مدينة لاهور، التي كانت مقر السلطنة الغزنويين، وفي عام ١٠٧١ تُوِيَ الهجوري، الذي يُجبل اليوم كأعظم الأدياء في باكستان. وبعد موته بأعوام قليلة عاش في بلاط الغزنويين الشاعر المبدع، حكيم الصنعائي (١٠٦٠ - ١١٣١). ومساهمته البالغة الأهمية في الأدب الصوفي هي ملحمة الشعرية «حديقة الحقيقة». ولكن درة التصوف في خراسان كان بلا شك، جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣)، الذي يُسمى في أفغانستان مولانا البلخي. وكان قد نزح مع أسرته، وهو في الثانية عشرة من عمره، من منطقة البراري المحيطة بمدينة بلخ، إلى مدينة قونية في وسط منطقة الأناضول، حيث أسس ابنه طريقة الدراويش المولوية. ومؤلفه الخالد هو كتاب المتنوي، الذي يتألف من أكثر من ستة وعشرين ألف بيت شعري، يرددها محبوه في شمال أفغانستان، وفي مناطق القرم الجبلية، حيث يسجل الشيعة الإسماعيلية هناك آثاره ويحفظونها. وإلى جانب هؤلاء المتصوفة، هناك متصوفة وشعراء مشهورون، أمثال الجامي (١٤١٤ - ١٤٩٢)، ويبدل (١٦٤٤ - ١٧٢١)، اللذين ألفا بالفارسية. وكذلك رحمان

يتخذ الدين بالإسلام في أفغانستان، كما في دول إسلامية أخرى، أوجهاً، وتفسيرات، واتجاهات متعددة. وفي ذلك يتعلق الأمر بصورة دينية فرعية، بتفسيرات متفاوتة للقرآن الكريم. وأول ما يشمله هذا التنوع، ما يدعو إليه علماء الدين من أحكام دينية متأورة، وتتركز الدعوة إليها في المساجد، ومنتاس تحفيظ القرآن. ويرتبط بهذا الإيمان القوي بالتصوف المقدمة، موضوع الإسلام السياسي، الذي وفرته جماعة طالبان في الفترة من عام ١٩٩٤ إلى عام ٢٠٠١، وكذلك المجال الواسع للتصوف الإسلامي، وما تأثر به من أشكال محلية لتقدس الأدياء، والمعتقدات الشعبية. ولكن الفارق بين أوجه الدين بالإسلام هذه هي في الواقع غير محددة، وغير واضحة، بل ومتداخلة غالباً. وفي أفغانستان خاصة يهجر الجمع بينهما، كما يتمثل ذلك في قيام متصوفة الطريقة النقشبندية بتدريس الأحكام الشرعية في مدارس تحفيظ القرآن.

والتصوف هناك هو اتجاه ديني يقوم على الحب المسمى للعقيدة، والإذعان لها. ويسمى فيه المتصوفة، اعتماداً على القرآن الكريم والسنة النبوية، إلى معايشة الجانب الباطني للإسلام. فعلى العكس من اتجاه التمسك الشديد والحرفي بالشريعة، والذي يهتم أكثر بالمجتمع ككل، يُعنى التصوف بالدرجة الأولى بالفرد، وتربية باطنه. وفي مسيهم إلى الحقيقة الروحية يسلك «أولياء الله» طريق التصوف إلى الله، الذي يعبثونه في قلوبهم، وهم في حال نشوة الانغذاب إليه. وهدف هذه السباحة الصوفية، التي يلزم فيها المرشد أحد المرشدين؛ أحد مشايخ الصوفية، هو إظهار القيم الربانية الكامنة في النفس البشرية، وبالتالي إظهار الوحدة بين النفس الإنسانية وروحها. وفي الطريق المتدرج للالتزام في الزهد والأخلاق ينسب على المرشد أن يُعني أنانيته المؤلة، وينمي محبة لله وللإنسان.

لقد حاول المتصوفة، الذين يُجبلون في حياتهم وبعد مماتهم كأولياء لله، حاولوا كثيراً التعبير عن إدراكاتهم في القرب من الله ومحبه، بمفطلومات شعرية، تُقرأ، وتُشد، ويُتغنى بها، وتنتشر بذلك بين عامة السكان غير المتجاسين. وفي العصور الوسطى ظهر عديد من المتصوفة المشيخين،

إلى تجليات لمعرفة الله، يكون فيها للأفكار الغنوصية، والتأملات، والزهد دور هام. ويحظى ممثلو هذه الطرق داخل المجتمع باحترام فائق، بل إن لهم في الحياة السياسية مناصب قوية وذات نفوذ. وعلى نحو تقليدي كانوا يتوجون المحاكم وينحونهم شرعيتهم الدينية. وإلى اليوم لا يزال الشيخ المتصوف في منطقة القبائل الباشتونية يقوم أيضاً بدور الوسيط الهام في تسوية الصراعات والنزاعات.

ويقوم شيخ الطريقة مع أسرته في مبنى يسمى الخانقاه. ويتبع هذا المبنى مسجد ومدرسة لتحفيظ القرآن، ومقابر لأسلاف الشيخ القديسين. وبذلك يستخدم هذا المبنى للصلاة، وللدراسات الدينية، وكذلك كضريح للأولياء، يقوم بزيارته أتباع الطريقة، وخاصة النساء بأعداد كبيرة. فضلاً عن ذلك يستخدم الخانقاه كمضيفة، يُقدم فيها الطعام للمريدين، والمسافرين، والدراويش، والمحتاجين.



جرد حجري من قنطرة من القرن الخامس عشر

وفي قاعة منفردة تقام حلقات الذكر، ويشارك في هذا الذكر الشعاري أتباع الشيخ أثناء زيارتهم المنتظمة للخانقاه، والتي تتم مرة إلى مرتين على الأقل في العام، حاملين معهم الهدايا لشيخهم.

وتعتبر الطريقة النقشبندية أكبر الطرق الصوفية في أفغانستان إلى اليوم، وأتباعها كثيرون، وعلى الأخص في شمال أفغانستان، وفي هيرات وما حولها، وكذلك بين قبائل غازياني الباشتونية في جنوب شرق البلاد. وهذه الطريقة المسماة باسم الولي، بهاء الدين نقشبند (١٣١٨ - ١٣٨٩)، والمتسكة بالعقيدة السنية في الإسلام، كانت قد نشأت في بخارى في أوزبكستان، وانتشرت عبر آسيا الوسطى غرباً حتى وصلت إلى شمال إفريقيا، وشرقاً حتى وصلت إلىندونيسيا. ويسلك متصوفة النقشبندية اتجاه صوفي واقعي؛ إذ يولون الأهمية للصلاة، والتأمل، وذكر الله في سكونية بعبارة الذكر، والارتباط القلبي بشيخهم، ويرفضون الرقص والموسيقى، والأشكال الشعبية لتقديس

بابا (١٦٥٣ - ١٧١١)، وحزمة الشينوري (١٩٠٧ - ١٩٩٤)، اللذين يعلنان أدب الباشتونيين. وقد احتفظ المتقنون بمؤلفتهما إلى اليوم، ويجهلها العامة كوليين عظيمين.

لقد أضفى التصوف طابعه في عمق على التدين والتقوى لدى سكان أفغانستان إلى اليوم. وفي ارتباط بذلك يقوم الشعر والموسيقى، كشكلين فنيين للتعبير، بدور هام. ومراكز التصوف في أفغانستان هي مدينة هيرات في غرب البلاد، وشمال أفغانستان، والعاصمة كابل، ومنطقة قبائل «غازياني» في جنوب شرق البلاد. ويتنظم مشايخ الصوفية ومريدهم وأتباعهم في جماعة دينية، تحظى باحترام واسع، وتسمى الطريقة أو السلسلة. وقد تأسست غالبية هذه الطرق فيما بين القرنين الثاني عشر، والرابع عشر. وإلى هذه الطرق، القائمة على نظام التدرج في الرتب، ينتسب الرجال من فئات السكان المختلفة: من المزارعين، والتجار، والحرفيين، والموظفين، والضباط، والعلماء، والفنانين، بل إن كثيرين من الأفغان يتسبون إلى أكثر من طريقة. يتميز بعض هذه الطرق الصوفية، نظراً إلى تركيزها على رياضاتها الروحية، بطابع التقوى والانجذاب الصوفي، بينما تغلب على بعضها الآخر الاتجاهات اللاهوتية أو السياسية الاجتماعية. وإلى جانب هذه الطرق الشعبية، القائمة على سكان الريف بالدرجة الأولى، هناك الطرق المرتبطة بالطبقة الراقية، ويحظى الأدب والشعر فيها بمكانة هامة. وهكذا يختص التدين بالإسلام في أفغانستان بتنوع الطرق الصوفية، مع أن رياضاتها الدينية تشتمل على أمور كثيرة من فترة ما قبل الإسلام، أو غير إسلامية. إن معظم هذه الجماعات الدينية الاجتماعية، التي تتنافس فيما بينها، لها اتجاهات سلفية، وتطبق الشريعة الإسلامية. ومن هنا يقوم الكثيرون من مشايخ الصوفية بالتدريس في مدارس تحفيظ القرآن. وما هو جدير بالملاحظة أنه في داخل هذا الشكل المؤسسي للتصوف يهب شيخ الطريقة لمريده التابيه أو نائبه، ما اختص به غير قربه من الله، من قدرة على الشفاء ومنع البركة، وبهذا تنشأ خلافة روحية تسمى خلافة الإرشاد. بيد أنه في معظم الطرق الصوفية الأفغانية تتوارث ذرية الشيخ نفسه فوته المخارقة، أي أنها تتميز بالطابع العائلي، والمسعى هناك خانوادفي وفي هذه الحالة يرث الابن الأكبر غالباً منصب والده الشيخ ومكانته.

وكما أشرنا قبلاً، تتبع أهم الطرق الصوفية المنتشرة في أفغانستان مجموعة «باشرع»، التي تطبق الشريعة الإسلامية، وتحترم المأثورات المقدسة، أي تدين بما يسمى ببساطة دين المساجد. إنهم يمثلون التصوف المعتدل، الذي يؤكد على العناصر الأخلاقية، ويسعى أيضاً إلى الوصول

اتباع الطريقة النقشبندية، التي ارتبطت طوال تاريخها بالحكام، ليس في أفغانستان فقط، وإنما أيضاً في دول أخرى من العالم الإسلامي، والتي قادت في بعض الأحيان مقاومات مبررة ضد الحكام السياسيين غير الشرعيين. فعلى سبيل المثال كان شيخ النقشبندية «هدا صاحب»، الذي أثر في طرق صوفية أخرى، ذا دور بارز في الكفاح ضد الاستعمار في القرن التاسع عشر، كما كان صاحب نفوذ كبير في شرق أفغانستان. وقام بعد ذلك، ومن خلال ثورات قبائل غلزاي في عام ١٨٨١، وفي الفترة من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٨٨٨ الأمير عبد الرحمن، الذي كان قد تولى الحكم بمساعدة الإنجليز. وكان هذا الأمير قد دعا إلى التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية حسب العقيدة السنية، وألحق الأذى بالصوفية، والدراويش. وفي الحرب الأهلية - أفغانية الثالثة عام ١٩١٩ وقف مشايخ طريقة المجددين إلى جانب الملك أمان الله في الكفاح ضد الإنجليز، إلا أنهم قاموا بعد ذلك ببسطة أعوام بمعارضة سياسته الإصلاحية المتأثرة بالغرب. وظهر التدخل القوي للمجددين في الأحداث السياسية الحديثة في عام ١٩٧٨، متمثلاً في تأسيس الجبهة الوطنية لتحرير أفغانستان، وهي حزب صغير للمقاومة ضد الغزو السوفيتي، أسسه الشيخ صبيحة الله مجددي. وفوق ذلك فإن إسماعيل خان، الحاكم المحلي لمدينة هيرات من أتباع النقشبندية. وإلى جانب المجددين هناك فروع أخرى للطريقة في شمال البلاد وغربها.

الأولياء، واصفين ذلك بأنه ليس من الإسلام. وهذا التدين المتشدد أدى في القرن الثامن عشر بحركات تجديدية في الطريقة، إلى المتادة بالعودة بالتصوف إلى أصوله في فجر الإسلام. ومن الممهدين لانتشار الطريقة النقشبندية الشيخ الصوفي الخراساني، يوسف الحملائي (ت. ١١٤١)، الذي كان الصنعائي من تلامذته أيضاً. وفي عهد التيموريين، المحيين للفنون، والذين حكموا في سمرقند وبخارى وهيرات، عايشت الطريقة في القرن الخامس عشر فترة ازدهار، أدت إلى انتشارها بين الطبقات الراقية المثقفة. وأما الانتشار الهام لهذه الطريقة في شبه القارة الهندية فيرتبط بالشيخ أحمد سيرهاندي (ت. ١٦٢٤)، وإلى هذا الشيخ، الذي لُقّب بمجدد الألفية الثانية للتقويم الإسلامي، يرجع تأسيس فرع الطريقة الذي يسود أفغانستان إلى اليوم، والمسمى الطريقة المجددية. ويؤشرف من عندهم نواباً له في أفغانستان، الشيخ يوسف، ومولانا أحمد، والشيخ حسن، بُني العديد من الخانقاه في قندهار، وكابول، وفي شمال البلاد. وبعد إقامة الدولة الأفغانية عام ١٧٤٧ بقليل صدرت الدعوة إلى طريقة المجددين لإنشاء مقر لهم في العاصمة كابول. ولقب رئيسهم بـ «حضرة شوربازار»، تبعاً لاسم أخي القديم في كابول، الذي كان يضم مسكن الشيخ، والخانقاه التابع للطريقة. وأتذلك انضم أيضاً الملك الأفغاني، أحمد شاه عبدلي (ح. ١٧٤٧ - ١٧٧٣) إلى

منصورة من شمال غرب البجبال، تصوير: Staatliches Museum für Völkerkunde, München



عائلة محمد زاي، واكتسبوا بذلك سلطة دينية وسياسية متميزة. والممثل الرئيسي لهذا الفرع في الوقت الحاضر هو الشيخ سيد أحمد الجيلاني، الذي أسس في ثمانينيات القرن العشرين حزب المقاومة للمحافظ. وكما هو شأن النقشبندية، يوجد في أفغانستان، إلى جانب أسرة الجيلاني، فروع أخرى للطريقة القادرية، لها أتباعها الخاصون، وذلك في شمال وغرب البلاد. وأهم جماعة منها، والتي تتبع مبدأ إرث الروحية، هي أسرة الشيخ تاغاب، المسمى باسم مدينة تاغاب الصغيرة في إقليم كاپيسا شمال شرقي كابول. ومن الرياضات البدنية للطريقة القادرية في أفغانستان يُلاحظ أنها تؤدي الذكر جهرًا.

ويُلي هاتين الطريقتين في الأهمية، الطريقة التشيشيتية، وتُعد ذات تأثير سياسي أقل بكثير من تأثيرهما. ومن مثلها المميزة فخر متصوفيهما، والتوكل المطلق على الله. وفضلاً عن ذلك يفضل أتباعها الموسيقى كوسيط لبلوغ حال الروحية، ويسمحون إلى حد ما بالرقص الانجليزي. ويتوجهها إلى الريف تشتهر الطريقة بخاصة في الهند وباكستان، حيث أدخلها معين الدين التشيشيتي (١١٤٢ - ١٢٣٦)، الذي انتشر تبجيله بين العامة كمعين للفقراء حتى في أفغانستان. ويتسب هذا الشيخ إلى عائلة من الأشراف في وسط إيران. وفي شبه القارة الهندية تحدد هذه الطريقة، بتركيزها على تقديس الأولياء، الشكل المميز

وخلال تاريخ التصوف في أفغانستان قامت الطريقة القادرية أيضاً بدور اجتماعي وسياسي هام. وتعتبر هذه الطريقة أكبر وأشهر جماعة أخوة بين غرب إفريقيا وإندونيسيا. وقد أسسها الفقيه والصوفي البغدادي، عبد القادر الجيلاني (١٠٨٨ - ١١٦٦)، ويلقب هذا الواعظ المبجل في الشرق الأوسط، وفي جنوب آسيا بقطب الأولياء، ويعجده العامة لكراماته الكثيرة بالدرجة الأولى. وذهب قواته الحارقة لعدد كبير من ذريته، ويُذكر أنه تزوج بأربع نساء التحين له تسعة وأربعين ولداً. وابتاعها السلفي في العقيدة حظيت الطريقة القادرية باتباع لها في المدن، إلا أن لها أتباعاً في المناطق الريفية أيضاً. وانطلاقاً من أوساط الهند المتحضرة اكتسبت الطريقة، وخاصة في القرن السابع عشر، شعبيتها، عندما ارتبطت المنطقة بين نهري الغانغ والهندوس في مملكة المغول ارتباطاً وثيقاً بأجزاء كبيرة في أفغانستان. وأتذاك أرسل شيخ الطريقة القادرية المشهور، نوحاد تلميذه، الشيخ (خوجه) محمد فضيل نالبا له إلى كابول. وفي القرن التاسع عشر عززت الطريقة نفوذها بين قبائل غلزيي الباشتونية في شرق البلاد، وفي بداية القرن العشرين انتقل بطن مشهور من عشيرة الجيلاني من شبه الجزيرة العربية إلى إقليم نانتارهار في شرق أفغانستان. وهناك أقام أفراد هذا البطن، الذين وصفوا أنفسهم بأنهم من آل البيت، صلات قوية، من خلال الزواج، مع العائلة المالكة في أفغانستان،

صورة آتاك في يشار، تصوير: Jürgen Fremgen



وبالعي تمام، وكمشندلين متجولين. وكمشخصين في التعامل مع الجن والعفاسيت، توجد في ممارساتهم عناصر من شامانية آسيا الوسطى؛ فللتنبؤ بالمستقبل يدخلون بتأثير المواد المخدرة، والموسيقى في حالة من الغيبوبة. ويغارس بعضهم السحر الأسود، كما تخصص بعض الدراويش السائحين، الذين يتعاطفون على ما يبدو مع النقشبندية، في فن الصلاح المتنقل بالبخان (البخور)، وذلك بحرق بذور نبات السلاب البري.

ومع ملاحظة الانحطاط العام للأدب الصوفي، والمأثورات الصوفية المنقولة مشافهة منذ القرون الأخيرة في أفغانستان، واضطهاد جماعة طالبان قبل سنوات قليلة لأتباع التصوف، إلا أنه يبدو أن هناك حالياً تنشيطاً للهياكل الدينية، والاجتماعية المرتبطة بالتصوف، وما يتعلق بذلك من أنشطة. وعلى كل، فقد أقيمت شعائر الذكر في سنوات الحرب في القديين الماضيين بحماس متميز، كما يجري في الأثناء في كابول، وهيرات. إن الصلوات العميقة، القائمة منذ زمن قديم بين الطرق الصوفية في أفغانستان، ونظيراتها في الهند وباكستان ستشجع على التكبير في العودة إلى التصوف مستقبلاً. ويرتبط بالتصوف ارتباطاً وثيقاً الاعتقاد العاطفي في تقديس الأولياء، الذي لا يزال يعتبر مقوماً أساسياً وحيوياً للثقافة الأفغانية اليومية.

ترجمة: محمد الحشاش

لتقديس الأضرحة في الإسلام. وتعود جذور هذه الطريقة الصوفية إلى قرية جشت الصغيرة، الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومتراً شرقي مدينة هيرات. وفي كابول بالذات يشير كثيرون من الموسيقيين إلى ميولهم إلى هذه الطريقة، وهناك يؤدي أتباعها الذكر مصحوباً بالغناء، وموسيقى آلة القديمة.

والى جانب الطرق الصوفية المذكورة توجد الطريقة السهروردية، التي تعود إلى إيران، والتي كان لها في القرن الثاني عشر في الشرق الأوسط، وفي جنوب آسيا نفوذ قوي. كما أن معظم صلوات هذه الطريقة، التي تُمد أكثر واقعية، وترفض الشعر والموسيقى والرقص كوسيط للمعاشرة الدينية، صلوات ولاء وثيقة بأمر الحكام. بيد أنه لا يُعرف إلا القليل من دائرة نفوذها في أفغانستان.

والى جانب هذه الطرق الصوفية الخالصة، هناك الدراويش السائحون، الذين لا يتسبون عادة إلى أي طريقة خاصة. إنهم مجاذيب منفردون، يروضون أنفسهم على الحياة في فقر، وفي توكل تام على الله، مضفين صفاته على أنفسهم، وهم في نشوة الانجذاب التام. ويُعد هؤلاء المتصوفة، المعروفون في أفغانستان باسم «مَلَنَغ» أو الدراويش، أناساً هامشين، يمثلون نموذجاً خاصاً من النوع، وتلفت أرواؤهم الانظار. وفي إطار المعتقدات الشعبية يُعدون غالباً حماة أضرحة الأولياء، ويتنقلون من ضريح إلى آخر. كما يكسبون قوتهم كمعالجين من عضات الثعابين ولدغات العقارب، وكعرافين ومفسري أحلام،

باجة المسجد الكبير في هيرات، تصوير: Knut Möller



إعادة افتتاح معهد غوته في كابول

حوار مع مديرة المعهد

تأسس معهد غوته في كابول عام ١٩٦٥ وأغلق عام ١٩٩٢ بسبب الحرب الأهلية. وفي الثنائي والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣ أعيد افتتاحه في إطار احتفالي وكأول معهد ثقافي أجنبي. وهذه المناسبة التقت «فكر وفن» في كابول بمديرة المعهد ريناتا إلزيسر وأجرت معها الحوار التالي:

■ ما هي للجانالات التي سيعمل فيها معهد غوته بعد إعادة افتتاحه في كابول؟

ستبايع العمل في ما بدأتها في السنة الماضية، أعني في مجال السينما، المسرح، الموسيقى، الفن التشكيلي وتجهيز المكتبات وتأهيل المكتبيين. هذه هي النقاط الأساسية في عملنا، ستضاف إليها مجالات أخرى، ولكن ذلك يستغرق بعض الوقت. سيكون أي مشروع مجديا حين نقوم بالعمل بشكل منظم وهذا يحتاج إلى وقت أطول.

■ ماذا يعني العمل المسرحي والسينمائي في الواقع؟ هل يعني أنكم ستدعون أشخاصا من ألمانيا وتقيمون علاقة بينهم وبين شركاء أفغان؟

نعم، هذا صحيح، ندعو فنانين ومتخصصين وغيرهم من ألمانيا، ونحاول أيضا أن نقيم ورشات عمل طويلة مع الشركاء الأفغان، فقد ظهر في السنوات الأخيرة أن أسبوعا لأفغانستان هو وقت قصير جدا. ولذا نحتاج هنا إلى وقت أطول لنبتني من الأساس فعلا وننقل المعارف إلى الشركاء الأفغان في مجالات كانوا مقطوعين عنها زمنا طويلا جدا.

■ وهكذا فإن عملكم يتشكل بالدرجة الأولى في أن تكونوا وسيطا بين المتخصصين الألمان في اللجانالات الثقافية والأفغان المهتمين بها والذين يريدون العمل في هذه اللجانالات أيضا؟

لم تعد توجد سوى نقاط ارتباط قليلة في العمل الثقافي. إننا نحاول من خلال الاتصال بالفنانين والمتخصصين الألمان أن نمكن الشركاء الأفغان من الاتصال بالثقافة والفن في البلدان الأخرى ثانية. إننا ننظر إلى مهمتنا كمساعدة لإعادة بناء الثقافة الأفغانية قبل كل شيء. لن يحل تقديم الثقافة الألمانية المكان الأول في مهمتنا في الفترة القادمة. إنه مهم جدا لنا أيضا أن يعرض ما يقوم الفنانون الأفغان بإنتاجه في مجال السينما والمسرح والفن التشكيلي في الخارج، هذا

يعني أننا سنأتي بفنانين أفغان إلى ألمانيا أيضا، وقد أقمنا في نيسان/ أبريل أسبوعا أفغانيا في المسرح الألماني في هامبورغ، كما أقمنا عروضاً سينمائية عديدة للأفلام الجديدة التي أنتجت هنا في كابول. نريد أن نعرض للجمهور الألماني ما ينتجه الأفغان من جديد في هذه اللجانالات. وسيظهر المستقبل ما إذا كان الفنانون الأفغان يعملون أيضا بشكل مستقل عن هذه المشاريع التي نقدمها لهم، وما إذا كان قد تحقق تبادل فعلي. ولكن لا يزال أمامنا طريق طويل لبلوغ هذا الهدف.

■ هذا يعني أنكم لم تقدموا بعد فعالية مفتوحة للجمهور مثل عروض الأفلام والمناقشات العامة والقراءات وما شابه ذلك؟

بلى. إننا نريد أن نقدم شيئا للجمهور المهتم، نريد أن نقوم بعمل إعلامي ونصحب معروفيين. لهذا فإننا نستقدم أفلاما أيضا، ويتوجب على المرء في ذلك أن يختار بعناية بالغة. ربما نرجع الأفلام القديمة، الأفلام الصامتة أيضا، لقد لاقت هذه اهتماما كبيرا جدا من قبل شركائنا في مجال السينما، ولكننا لن نستطيع في الوقت الحاضر أن نستقدم فرقة مسرحية ألمانية. وبدلا من ذلك نريد أن نقدم نتيجة عمل ورشة العمل المسرحي التي تقام منذ أكثر من ثلاثة أشهر في القسم المسرحي في الجامعة إلى الجمهور في النهاية. خطط لثلاث مسرحيات سيقوم بتسليمها الطلاب الأفغان في قسم المسرح. نريد أن نقيم معارض في القاعة الوطنية ونريد أن نقدم في المركز الثقافي، الذي أعيد افتتاحه منذ ثلاثة أشهر ويتلقى دعما لمدة سنة من البنك الدولي، حفلات موسيقية.

■ هل ستقدمون دورات لتدريس اللغة الألمانية؟ نعم إنها بدأت منذ أيار/ مايو. لدينا الآن أربع دورات، ويتنظر أن تضاف إليها أربع دورات أخرى في تشرين

بكثرة. لهذا فليس أساما إلا البحث عن شركاء يعتمد عليهم هناك.

الدعامة الثالثة هي عمل المكتبة في مؤسستنا. ليس لدينا للأسف سوى غرف صغيرة، هذا حل مؤقت للمستئين القادمين. إذا تطور كل شيء تطورا سليما فنكر أن نستأجر فيما بعد بناية أكبر. غرف التدريس في الوقت الحاضر متوسطة الحجم، إنها تكفي الآن، ولكن ليس لدينا سوى غرفتين، المكتبة صغيرة جدا، إنها أيضا مكتبة لإثبات الحضور فقط، وهي ليست مكتبة للإعارة. إلا أن هذا ليس سببا، فلم يعد في البلاد من يستطيع قراءة الكتب الألمانية تقريبا. من هنا اعتقد أننا بهذا المعهد مجهزون تجهيزا جيدا في الوقت الحاضر، ولكننا ندرك أنه يمكن أن نحتاج إلى بناية أكبر في وقت ما.

■ مع أي الشركاء تتعاونون في الوقت الحاضر؟

لدينا تعاون وثيق جدا مع الشركاء في مجال السينما، إنه أيضا المجال الذي لا تزال تتوفر فيه شروط كثيرة جدا، فقد كان الكثير من العاملين في السينما في المنفى في باكستان وإيران واستطاعوا هناك أن يتابعوا عملهم. يعود القسم الأكبر من الأفغان الذين كانوا في المنفى في باكستان وإيران. من هنا لدينا في هذا المجال شركاء نشيطون حدنا معهم نوع للمساعدة بصورة واضحة - بالدرجة الأولى في التجهيزات وورشات العمل. في هذا المجال ينجح في أفغانستان الكثير، حيث يجري الآن إنتاج الأفلام ثانية. وقد حصل الفيلم الروائي لسيدى غولا باماي، رئيس مؤسسة الفيلم الأفغاني، على مسيل المثل على جائزة خاصة في مهرجان كان. وقد بيع حتى الآن في بلدان كثيرة وعرض في بعض منها، وسيعرض في ألمانيا ابتداء من كانون الثاني/يناير. هذه هي أول خطوة كبيرة باتجاه نشاط ثقافي مستقل في أفغانستان. أنتج مخرجون آخرون كثيرون أفلاما قصيرة ويخططون لإنتاج أفلام روائية طويلة أو أفلام وثائقية.

■ يبدو أن افتتاح فرع لمعهد غوته في كابول مغامرة للذين لا يعرفون الوضع في كابول. كيف تقومين الوضع الأمني والاستقرار السياسي في أفغانستان؟

من الصعب تقويم الوضع الآن، ليس ثمة من يجري على التنبؤ بالطريقة التي سيطور بها. من المؤكد أن الانتخابات في السنة القادمة التي يعد لها المجلس التأسيسي في كانون الأول/ديسمبر القادم ستكون حدثا حاسما. مسودة هذا الدستور قد وضعت وستناقش من وجهات نظر متضادة جدا. وقد جرى التفكير بالقيام بعمل توعوي في الأقاليم قبل بدء عملية الانتخاب. إلا أن هذا عمل صعب جدا، لأن الكثير من القرى غير آمنة ومن الممكن ألا يكون جميع

الأول/أكتوبر. الاهتمام باللغة الألمانية في أفغانستان كبير جدا، بسبب العلاقات الطيبة الطويلة بين البلدين، لا يزال ثمة أفغان كثيرون يرغبون في تعلم الألمانية. نريد أن نكون قادرين على الاستجابة لهذا الطلب، فإته مفيد بالنسبة إلى الشبان خاصة أن يتعلموا الألمانية، ربما يستطيعوا الدراسة في ألمانيا فيما بعد أو يحصلوا بذلك على فرصة للحصول على عمل لدى المؤسسات الألمانية الكثيرة هنا.



ربانته (اليسر)، مدبرة معهد غوته في كابول، تصوير: Steffen Weidner

■ وهكذا يستطيع المرء القول إن معهد غوته في كابول ينفذ إلى جانب ورشات العمل التي هي نوع خاص جدا من العمل الثقافي، البرنامج الكلاسيكي لمعهد غوته؟

نعم. نحن نقول دائما إن عملنا يقوم على ثلاث دعائم، الدعامة الأولى هي العمل المنهجي، هذا يعني الفعاليات الثقافية، وورش العمل والتبادل بين الفنانين في البلدين. الدعامة الثانية هي العمل اللغوي بالنسبة لتعلمي اللغة الألمانية في معهدنا، ولكن أيضا التعاون مع الجهات الأخرى التي تعلم اللغة. تدخل في ذلك أيضا متابعة التعلم بالنسبة لحلمي اللغة الألمانية، رغم أنه لا يوجد الآن الكثيرون في أفغانستان، بل لم يعد يوجد أحد تقريبا خارج كابول. نحاول أن نغير هذا تدريجيا من خلال قيامنا بمشاريع في مدن المقاطعات مثل هيرات ومزار الشريف وقونودور. إلا أن هذا صعب ويحتاج إلى وقت، حيث لا يستطيع المرء أن يسافر إلى هذه المدن

الناس قد أبلغوا. أشعر في الوقت الراهن في كابول بالأمان، لم أشعر أبدا أنني مهددة شخصيا. يمنع الأفغان الشعور بالترحيب دون قيد، وهم يتلقون عملا بالاجابية كبيرة. إننا ندرك، نحن الأجانب هنا، وجود مجموعات صغيرة تعارض أي تعاون مع الأجانب وتعتبر الثقافة الأجنبية أداة شيطانية. من هنا لا يتسعد تماما انطلاق أعمال اعتداء من هذه الزاوية. ولكن الخطر في كابول ضعيف نسبيا في نهاية الأمر بفضل الحضور القوي لقوات حفظ الأمن الدولية.

■ هل هناك مؤسسات ثقافية أجنبية أخرى تخطط لإعادة افتتاح مراكزها؟

لدي منذ وجودي هنا، منذ عام بالضبط، اتصال بالبريطانيين والفرنسيين الذين كانوا قد فكروا منذ وقت طويل أيضا بإنشاء معهد ثقافي. لم يتحقق هذا حتى الآن، لكنني سمعت الآن من الفرنسيين أن أحد العاملين في المعهد الفرنسي التابع للمعهد الثقافي الفرنسي سيأتي إلى السفارة الفرنسية. ولكنهم لم يفكروا بفتح معهد خاص، أما البريطانيون فهم مترددون على كل حال، حيث يساوي بينهم وبين الأميركيين بأشكال كثيرة، ووضع البريطانيين والأميركيين في أفغانستان يختلف تماما عن وضع الألمان. يقال دائما إن المرء ينظر إلى الأميركيين كمحتلين ويريدهم أن يغادروا البلاد بالسرعة الممكنة، بينما ينظر المرء إلى الألمان كشركاء ومساعدين في إعادة البناء. لنا من خلال هذا وضع ممتاز جدا. لا يحتاج قيام المرء كالألماني بعمل ثقافي إلى شجاعة خاصة، فالثقة التي يواجها بها الأفغان هائلة، أحيانا كبيرة بشكل مخيف، لأنني أرى في ذلك خطر ألا نكون مستحقين كل هذه الثقة.

■ ألا ترين أن ثمة خطرا في أن تنفصل كابول ثقافيا وسياسيا أيضا عن بقية البلاد من خلال الحضور الأجنبي الكبير هناك؟

نعم، نحن نرى هذا الخطر أيضا ونحاول أن يكون لنا حضور في بعض المواقع على الأقل في مدن الأقاليم وأن نغد شركاء هناك. كنت في مزار الشريف واطلمت على النشاطات الثقافية الموجودة هناك في الوقت الحاضر. يوجد هناك مركز للثقافة والإعلام، أبدى العاملون فيه استعدادهم للتعاون معنا. إلا أنه يصعب جدا إغجار هذا العمل من كابول، فالشوارع رديئة للغاية ولا توجد غالبا سوى رحلة جوية أو رحلتين في الأسبوع، والشركاء لم يصبحوا

قادرين بعد على العمل المستقل حقا. إلا أن معهد غوته يريد أن يبدأ بفعاليات في هرات على سبيل المثال. فقد كانت هرات دائما مركزا ثقافيا في أفغانستان.

■ لقد كنت في ساراييفو أيضا بعد الحرب بوقت قصير، كيف تقارنين بين الوضع هنا في كابول وتجاربك في البوسنة؟

لم أكن في ساراييفو بعد الحرب مباشرة. وصلت ساراييفو عام ٢٠٠١، كانت الحرب قد انتهت عام ١٩٩٥، هذا يعني أنه كانت قد مرت خمس سنوات على انتهاء الحرب. كان قسم كبير من ساراييفو أو النصف على الأقل قد أعيد بناؤه. مركز المدينة قد أعيد بناؤه كاملا. هذا لا يقارن بأفغانستان. يضاف شيء آخر إلى ذلك: لقد خرج من البوسنة حقا أناس كثيرون جدا إلى المنفى عند اندلاع الحرب وازدياد ضراوتها، ولكن عدد الذين عادوا أكبر كثيرا. وهكذا فإن البوسنة لم تنزف ثقافيا تماما كما هو الحال في أفغانستان الآن. لم أر مطلقا شيئا كهذا الذي أراه هنا. كنت في الصين أيضا بعد الثورة الثقافية مباشرة، ورغم قتل عشرات الألوف من لهم علاقة بالتعليم والثقافة في الثورة الثقافية، لم تكن الخسارة بالغة الشدة كما هي أفغانستان.

■ هل تعتقدون بأن عملكم يحظى بدعم الرأي العام الألماني والروسيين الألمان؟

نعم، السياسة الألمانية تدعم عملنا هنا، لقد كانت رغبة وزارة الخارجية الأكيدة أن يفتح معهد غوته هنا، وقد حصلنا على أموال كافية من الصندوق المخصص لأفغانستان. بالطبع كثيرا ما يسألنا الأصداقاء والصحابيون عما إذا كانت المشاريع الثقافية هي الحاجة الأكثر إلحاحا لأفغانستان. إنني أدرك أن حاجة أفغانستان إلى الثقافة ليست أكثر الحاجات إلحاحا، هذا هذا لا تزال البلاد فقيرة جدا ولا يزال الكثير من الناس يعيش تحت مستوى الحد الأدنى، وهم يحتاجون إلى غذاء ومأوى. إلا أنني أعتقد أن الثقافة تلعب دورا مهما في إقامة المجتمع المدني، وأن العمل الثقافي، كما يفهمه معهد غوته، يسهم في الديمقراطية وتشكيل الوعي. وهذا ما يؤكده لي أيضا الكثيرون من شركائنا الأفغان.

أجرى الحوار: شتيان فاينر
ترجمة: سلة صالح

المنفى موت الفنان

الحياة الثقافية لأفغان الشتات

شعب من اللاجئين

عندما انطلقت موجات رحيل الأفغان الأولى باتجاه البلدان المجاورة خلال السبعينات من القرن المنصرم كان عدد سكان أفغانستان حسب إحصائيات الأمم المتحدة حوالي مليونين. والآن، هناك حوالي ستة ملايين من الأفغان مارالوا يعيشون حتى يومنا هذا خارج وطنهم، مليونان منهم في إيران وما يزيد عن الثلاثة ملايين في باكستان وقرابة الـ ٤٠٠ ألف في بلدان العالم الغربي (أوروبا، أميركا، كندا، أستراليا)؛ وفي ألمانيا وحدها يعيش في الأثناء ما يقارب الـ ١٠٠ ألف من المهاجرين الأفغان. وبعد سقوط نظام الطالبان شرع العديد من اللاجئين، من باكستان وإيران في الغالب، في العودة إلى وطنهم المدمر.

لقد تمت حركة هجرة الأفغان من وطنهم على مراحل متتالية. انتصار الحكم الملكي كانوا أول من بدأ بالرحيل على إثر الانقلاب الذي قام به داود خان الذي أطاح بالنظام الملكي سنة ١٩٧٣، ثم تبعهم كل من كانت لديه إمكانيات للرحيل والذين كانوا يريدون النجاة من قبضة نظام داود خان والنظام الشيوعي من بعد. ولقد استطاع المוסرون من بينهم الفرار إلى أوروبا والولايات المتحدة هرباً من حملات القصف التي كان الجيش الأحمر يطر بها البلاد ومن عمليات القصاص التي كانت تمارسها الحكومة الأفغانية آنذاك. ولم يكن هناك سوى قلة قليلة من الموسرين ظلت لا تتجاوز إيران وباكستان حيث كان عليها تحمل العيش في مساكن بائسة ومأوي دون مستوى ما تقتضيه الكرامة الإنسانية.

وعندما وصل المهاجرون ثم الطالبان من يعلمهم إلى الحكم لم يظل في أفغانستان سوى أولئك الذين يتصمون إلى الشرائع الاجتماعية الأكثر فقراً، أو أولئك الذين استطاعوا في ظل الأوضاع الجديدة أن يبلغوا مستوى معيناً من الرفاه.

هكذا تحوّل الأفغان إلى شعب من اللاجئين. هذا الشتات يجد له اليوم مستقراً في ما لا يقل عن الستين بلداً من العالم. وليس هناك من بين هذه الحشود المنجّسة من تربتها الأصلية سوى جزء قليل ممن استطاع أن يضمن لنفسه في أوروبا وأميركا بناء حياة جديدة في أمان ورفاهية، وأن يمنع أطفاله في حالة توفر الاهتمام والمؤهبة فرص التعليم

تنطوي الحياة في المنفى على العديد من السليّات. وكل أولئك الذين وجدوا أنفسهم لسبب أو لآخر مجبرين على مغادرة أوطانهم في يوم ما لا يمكنهم إلا أن يؤكدوا هذا الأمر. إلا أن الكاتب الأفغاني "راهنا وارد رزياب"، الذي كان عليه حتى وقت قريب أن "يعيش حياة الضنك" في فرنسا يرى في حياة المنفى عاملاً إيجابياً محدداً إلى من عرف هذه التجربة: "إن من يعيش في المنفى يندو بإمكانه أن يحيا جذوره وخلفيات تكوينه الثقافي بوعي وينظر إليها بموضوعية أكثر، وأن يقوم بصفة أفضل الجوانب الإيجابية والسلبية للأصل الذي ينتمي إليه". وهذا أمر لا يفتقر عليه المرء طاملاً ظلّ يعيش في بلده حسب رايه. إلا أنه يقرّ أيضاً بأنّ عسران الوطن أمر عميت بالنسبة إلى كلّ مبلّغ - يعني الشاعر والكاتب والرسام والموسيقيار... إلخ - ونهاية عمله الإبداعي، ذلك أنه سيجد نفسه مدفوعاً إلى فسح مجال للحدث السياسي ليقترح أعماله، ولدهم مقوله الأخيرة هذه يحول الكاتب الأفغاني (٥٨) سنة من العمر) على تهميرة الفنانين اليهود الذين اضطروا للرحيل عن موطنهم ألمانيا والهجرة إلى الولايات المتحدة، وكيف أنهم لم يتمكنوا هناك بالرغم من الضمانات الحياتية التي كانت متوقّرة لديهم من استعادة طاقاتهم الإبداعية السابقة.

"داخل أوكارها تغرد العصافير بأعذب الألحان"، يقول رزياب. إلا أنه شخصياً كتب روايته الأولى في المنفى، أما قبل ذلك فلم يصدر سوى قصص قصيرة. هل رزياب على حق في ما يقول؟ هل استطاع الأفغان الذين اضطروا خلال الثلاثين سنة الماضية إلى مغادرة وطنهم أن يوضحوا بصفة أفضل علاقاتهم ببلدورهم عن طريق نظرة نقدية موضوعية؟ وهل أنّ الكتاب والشعراء من بينهم قد غدوا أشخاصاً منكرين ووحيدلين لم يعد لديهم ما يقولونه.

إنّ الإجابة بنعم أو لا عن هذه الأسئلة قد تكون إجابة تعميمية تهمل الخصوصيات والفوارق. ولعلّه ينبغي علينا أولاً أن نرى في أيّة أماكن من العالم تتواجد جاليات أفغان المنفى، وفي ظلّ أيّة ظروف تجد نفسها مجبرة على العيش والتمسك ببقائها.

المشاركين في هذا الاجتماع أشارت باحثنا: "في هذا الوفد ليس هناك من تمثيل للنساء" فعلاً لا يضم الوفد أية امرأة! لكن من الأعضاء المستخين سيكون على استعداد للتنازل لـ «الأختين؟» ثم إن مشكلتنا نائياً قد انضاف إلى المسألة وهو أن السيدتين تسميان إلى نفس الأصل القبلي. وهذا أيضاً لا يصح. حرق المشاركون رؤوسهم تفكيراً وتمحيصاً، لكن لا حل في الأفق، وبذلك أجل الاجتماع إلى وقت لاحق، وظلت مسألة الاموات دون حل، ويامت تجربة الوحدة الوطنية بالفشل. مثل هذه الحالة تحدث وتكرر لدى كل جاليات اللاجئين الأفغان تقريباً؛ "معاً ندنو ضغفنا، ومن دون ثقة ليس هناك من إمكانية لعمل مشترك"، يؤكد مسعود راحل الفيلسوف الأفغاني المقيم بكونوليا.

شعب لا يميل كثيراً إلى القراءة

بالرغم من كل هذا يجتهد الأفغان عادة تكوين الجمعيات. وقد غدا تأسيس الجمعيات الثقافية مثلاً عنصراً ثابتاً من عناصر الحياة لدى أفغان الشتات، لكن دوماً مع حصول النتيجة المتكررة ذاتها وهي أن يرى الأعضاء المؤسسون أنفسهم يفضون كل في طريق في ظرف لا يتجاوز السنة أشهر؛ تفرقهم المحصورات ليؤسس كل واحد بعدها جمعيتهم الثقافية الخاصة، يقول مسعود راحل مأسخراً بمرارة. وبالفضل غالباً ما يحدث أن يرى المرء أفغاناً قليلات ممن يقيمون في مدن صغيرة يؤسسون هداً كبيراً من الجمعيات الثقافية. "هذا الخلاف الذي يسم الأفغان في الداخل كما في الخارج يشل حركتهم ولا يسمح لهم بتوحيد طاقاتهم. وبالرغم من أن الأغلبية الشعب الأفغانية تعيش حالياً في أوروبا وكندا وأمريكا فهي تجد نفسها غير قادرة على تشكيل حركة ثقافية نشطة"، يعلق عتيق رحيمي أشهر الكتاب الأفغان في المنفى متفقاً.

فعلاً لم توصّل أيّ من جاليات المنفى الأفغانية خلال العشرين سنة الماضية إلى التوقّف في إرساء حياة ثقافية نشطة. لا صحف خاصة ولا قاعة تلفزيونية أو برامج إذاعية تستحق هذا الاسم. وحتى في ألمانيا حيث يتواجد أغلب مشاهير المثقّنين اللاجئين الأفغان ومن بينهم شعراء وكتاب وموسيقيون ممن كانوا في ما مضى نخبة الفئات الوسطى بكابل، فإنّ النشاط الثقافي يعد بالآحرى افتراً. هناك بطبيعة الحال قراءات شعرية وحفلات موسيقية، وهناك أيضاً صحف مختلفة ودوريات، لكن لا شيء من هذه النشاطات كلها يتسم بالدعومة أو يخضع إلى رؤية وبرنامج محكم وطويل المدى. لقد أصدرت كل جمعية ثقافية أفغانية في ألمانيا تقريباً صحيفتها الخاصة بها في يوم ما، وكان على كل واحدة منها تقريباً أن تختفي من الوجود بعد طبعها الأولى.

والدراسة في أفضل جامعات العالم. إلا أنّ ضغوطات الحرص على الظهور بمظهر الغنى والتجّاح تبلغ في بعض الأحيان درجة مهولة لدى الأفغان من المقيمين في البلدان الغربية. صفحات الزفاف الأفغانية على سبيل المثال غالباً ما تبدو مبالغ في الفخامة والتبجّع وتكلف نفقاتها الزوجين أو عائلتهما ما لا يقلّ على ٢٠ ألف دولار. في حين يجد الأفغان الذين يقيمون في إيران وبكستان أنفسهم في أغلب الحالات يصارعون من أجل لقمة العيش اليومية، ويتحملون أفضّل أشكال الإهانات. ففي إيران مثلاً لا يحقّ لبناء اللاجئين الأفغان التمتع بما يمنح لبقية الأطفال من تعليم عمومي، الأمر الذي يجعل بعض الإيرانيين يقدّمون أطفالاً أفغاناً على أنّهم من أبناءهم كي يتمكنوا من الحصول على الحق في دخول المدارس.

متحدّين فغدو وضعاء

والآن ما هي الصورة التي تبدو عليها الحياة الثقافية والإبداعية لأفغان المنفى وبصفة خاصة في بلدان أوروبا وأمريكا الغنية والحرة؟ هل هناك جهود للحفاظ على الثقافة الأفغانية كما كانت؟ المثال التالي من كندا سيقربنا قليلاً من الإجابة عن هذا السؤال: في أواخر سنة ٢٠٠٠ دعت جمعية الأفغان لمدينة فانكوفر أعضاء مجلسها الإداري إلى اجتماع خارق للعادة. "أين سندفن موتانا؟ بهذا السؤال البسيط والمتجرّ للغة افتتح رئيس الجمعية الجلسة. كان أعضاء الجالية الأفغانية بفانكوفر يريدون مقبرة حيث يمكن لموتاهم أن يرقدوا جنباً إلى جنب مع أحواتهم إخوانهم المسلمين.

بعد مجادلات طويلة انتهى المجلس المكوّن من ثلاثين رجلاً وامرأتين إلى قرار أن يكلف وفد من عشرة أشخاص بتقديم طلب مكتوب مباشرة إلى رئيس بلدية المدينة. والآن بقي على المجلس أن يقرّر من هم الأعضاء الذين سيكوّن منهم هذا الوفد. وكان الاتفاق على أن يتكوّن الوفد من ناشون لكن بعدد محدود، وطاجيك، وهزار، وأوربيك، وستة، وشيعة، وعناصر من أنصار الإيديولوجيات الدنوية والآخرى الدينية. كان هناك حرص على إظهار أنّ الأفغان في فانكوفر لا تمزقهم النزاعات مثلاً هو الحال بالنسبة إلى جاليات أخرى. كان لا بدّ من جعل الوحدة الوطنية تنعكس في هذا المثال المصغّر أيضاً. ففي أفغانستان ليس للناس متسع من الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور بالرغم من أنّ المسألة العرقية قد غدت موظفة سياسياً وبشكل حادّ خلال العشرة الأخيرة.

تطلب الأمر حوالي ساعتين من الزمن قبل أن يتوصّل إلى الاتفاق على الأعضاء العشرة المناسبين للتركيبة السياسية والقبلية المرغوبة لهذا الوفد. لكنّ إحدى السيدتين

الذي جعلهم إلى اليوم دائمي البحث عن وجهة وشاطئء
 أمان"، يقول عاصف اهانغ المؤرخ الأفغاني المقيم بكندا.
 "لقد عمدت حكومات السنوات العشر الأخيرة إلى تصفية
 جُلّ الشخصيات المهمة في مجال النشاط العمومي للحياة في
 أفغانستان"، يوضح اهانغ. وهكذا غدا المركب الآن دون
 ريثان، تأنها من غير هدف محدد.

أما زلمي هيوادمال الباحث في مجال الدراسات الأدبية
 فيلاحظ من جهته أن الأفغان لم يتمكنوا بعد من هضم
 الأحداث التي طرأت على البلاد خلال الثلاثين سنة
 الأخيرة، لذلك هم لا يستطيعون في الخارج كما في الداخل
 أن ينجحوا في تحقيق أيّ ونام. "فجأة تحوّل كل شيء لديهم
 إلى سياسة. وكان على المرء أن يتخذ موقفاً: مع أم ضدّ
 الحكم الشيوعيّ وتدخل الجيش السوفياتي. الجار الذي كنت
 تثق فيه طوال سنوات قد يكون تحوّل فجأة إلى عدوّ يمكن أن
 يخونك؛ والأطفال يلقّون في المدرسة الوشاية بأبائهم.
 ووجد المجتمع نفسه مقسماً إلى مئات الاتهامات السياسية
 والدينية. لقد حلّ الشرق والغرب هناك كي يحولا حربيهما
 الباردة إلى معركة ساخنة تدور رسما على كامل الشعب
 الأفغاني. ولقد قاما بذلك فعلاً دون وعى أو تحفّظ"، يقول
 هيوادمال الذي يشغل حالياً منصباً في حكومة الرئيس حامد
 قرزضاي بعد سنوات طويلة قضّاها في المنفى بألمانيا. "إنّ
 الحرب، تحوّل كلّ بلد إلى مأوى للمجائين، واللاجئون ليسوا
 سوى مجائين في حالة فرار".

كلّ الجهود التي بذلها من أجل دفع الأفغان المقيمين بألمانيا
 إلى إقامة حوار مفتوح قد باءت بالفشل الذريع. وكذلك
 فشلت كلّ جهوده لتشجيع أبناء وطنه على العودة إلى
 بلدهم. فتفتتهم في حكومة قرزضاي والوعود الأميركية تظلّ
 ضئيلة، وصلاوة على ذلك فإنّ أغليبيتهم لا يريدون التفكير
 في العودة إلى أفغانستان طالما ظلّ أمراء الحرب من أمثال
 دسم وفهيم أو إسماعيل خان عسكين بزم السلطة هناك.

"إنّ مقولات زرياب لا تنطبق تماماً على واقع الأفغان في
 المنفى. فهم لا يتفكّرون في جلودهم إلّا بصفة سطحية في
 أغلب الحالات، ولا يتعاملون بأيّ حال من الأحوال بطريقة
 موضوعية ونقدية مع ثقافتهم، بل بالعكس تماماً"، يخلص
 كاوا "شالفن" أمانغ الشاعر والموسيقي الأفغاني المقيم في
 فرانكفورت، لكنّه يشاطر زرياب الرأي في مسألة واحدة
 وهي أنّ المنفى يمثّل موت الفنّان ونهاية عمله الإبداعي، ذلك
 أنّه يجد نفسه مدفوعاً إلى فسخ مجال لأحداث السياسة
 لاقتحام أعماله. لكن قد يتعلّق الأمر أيضاً بخيارات الأفراد
 من بين الفنّانين؛ إمّا أن يختار الواحد الانحياز إلى الحياة، أو
 يختار الانحياز إلى الموت.

ترجمة: علي مصباح

أما الأفغان المقيمون في إيران، ولئن كانوا مهتّين ذهنياً وغير
 مزيّنين بالخلافات بحكم أوضاعهم المعيشية الرديئة، إلّا أنّ
 إمكانياتهم المادية محدودة للغاية. وإضافة إلى ذلك فإنّ نظام
 الملالي لا يسمح بأيّة صحافة حرة، ومع ذلك فإنّ الكتاب
 الأفغان الذين يقيمون هناك ما فتئوا يهاجرون بين الحين
 والآخر بإصدارات من مستوى رفيع. لكن وبالرغم من عدم
 غياب الطاقات الرفيعة من كتاب وأدباء فإنّ صحافة الرأي
 تظلّ منعقدة تماماً.

أغلب الدوريات تخفق بسبب اعتماد الامكانيات المالية.
 "والصحف القليلة التي استطاعت أن تحقّق صدوراً منتظماً قد
 نجحت في ذلك بفضل الدعم المالي الذي تمكّنها به قيادات
 التنظيمات الحرة من داخل أفغانستان الذين يبحثون من
 خلالها عن قنوات دعائية في البلدان الغربية"، يقول
 الصحافي ناير. أمّا الشاعرة خالدة هيازي المقيمة في
 فرانكفورت فتتلى بقسط من المسؤولية في فشل العديد من
 المنشورات على عدم الميل التقليدي إلى القراءة لدى أهل
 وطنها: "من الواضح للبيان أنّنا نحن الأفغان، في المقام
 الأوّل شعب لا يميل كثيراً إلى القراءة. وبالتالي فنحن لسنا
 على استعداد لإتفاق المال من أجل اقتناء المطبوعات حتّى وإن
 تعلّق الأمر بضرورة مساندة صحيفة أو أدب". وهكذا لم
 تفلح أيّة صحيفة أو أيّ عمل أدبيّ لكتاب أو شاعر أفغانيّ هنا
 في ألمانيا في التوصل إلى إصدار طبعة تفوق الـ ٥٠٠ نسخة.

في جانب الصعوبات الكثيرة التي تربط ببيعة المنفى التي
 لا تخضع إلى نسق انتظام عاديّ يتحمّل أصحاب الصحف
 والمعاملون في الحقول الثقافيّ تسماً وإمراً من المسؤولية في
 هذا المأرق، إذ هم نادراً ما يولون في مهملهم اهتماماً
 بحاجيات وتوقّعات القراء. بل همّهم الأساسي هو كيف
 يضعون منافسيهم في مواضع محرّجة: اليساريّون ضدّ
 القوى الدينية وأنصار الملكية، والفاشيّون ضدّ اليساريّين،
 الديوقراطيّون ضدّ الآخرين، والآخرون ضدّ الديمقراطيين،
 أنصار المجاهدين ضدّ أنصار العهد الشيوعيّ، الباشتون ضدّ
 الطاجيك والنمكس... إلخ. في خضمّ هذه الفوضى
 الضاربة تؤوّل كلّ المناولات إلى الفشل بما في ذلك تلك
 التي تسعى بحقّ إلى إصدار صحيفة جيّدة. وماذا يفعل
 الأدباء؟ أغلبهم يدع نفسه يتقاد إلى رغبات كلّ تيّار
 سياسيّ، إذ أنّ همّهم الأساسي بالنهاية هو أن يقابلوا
 بالاحتراف والمديح، يلاحظ الصحفي المقيم بمونشنغلاباخ
 في ألمانيا حميد عبيدي بلهجة لأذعة.

"إنّ الأحداث التي تلت انقلاب سنة ١٩٧٣ (إلغاء النظام
 الملكيّ الدستوري وإنهاء مرحلة عشر سنوات من التجرية
 الديمقراطية، ثمّ الانقلاب الشيوعي وتدخل الجيش السوفياتي
 بعد خمس سنوات من ذلك)، قد طوّحت بأفراد الشعب
 الأفغاني بصفة بالغة القوة خارج مدار حياتهم المألوفة الأمر

هواجس الجيل الثاني من أفغان المنفى ماذا يعني "أن تكون أفغانياً"؟

مثلاً أنها تدخن، وفي الحفلات الأفغانيّة غالباً ما تنسحب إلى حمام السيّدات إذا ما كانت تقصر على التدخين، وفي ذلك المكان لا تجد أنها الوحيدة التي تلجأ إلى هناك لهذا الغرض، إذ المرأة المدخنة مسألة ما زال يلقها التحريم بالنسبة إلى المجتمع الأفغاني. وعلى أية حال فحوميرا لا تهمل من هذه المسألة مشكلة؛ "حتى في حال سمح لي والدي بالتدخين فإنّه لن يخطر لي على بال البتّة أن أدخن علناً أمام الأفغان الآخرين؛ وبشكل ما فإنّ التدخين لا يتلاءم علانية على ذلك والصورة التي لديّ عمّا يمكن أن تكون عليه امرأة"، تقول موفّحة، وتضيف صديقتها مريم: "هناك أشياء سيكمن من شأنها، إذا ما مارستها علناً، أن تسيء إلى سمعة عائلتي وتدمر بالتالي حياتها الاجتماعيّة. إنّها مسألة علينا كأطفال أن نحاط لها".

بالنسبة إلى حوميرا كان الأمر واضحاً دوماً: "في أفغانستان تسود الحرب، وبالتالي فإنّ أمر العودة إلى هناك غير مطروح - على هذه الفكرة كبرت وترعرعت". لقد غدا الانتماء الأفغانيّ ضرباً من الوجود داخل جزيرة، العودة إلى ما يسمى بالوطن غير ممكنة، واختيار الوطن تكاد لا تستطيع الوصول إلى بلاد الغرب البعيدة، ومع

عندما تُسال جميلة عن بلدنا الأصليّ تجيب دون تردد: "أما أفغانيّة". ومع ذلك فإنّ هذه التعليلة التي تبلغ الثامنة عشرة من العمر تعيش منذ ولادتها في ألمانيا؛ لم تطأ قدماًها أرض أفغانستان أبداً ولا تتكلّم لغة أبويها إلا بشكل ردي. إنّها تجيب هكذا مثل كلّ أترابها من أبناء الجيل الثاني من أفغان المنفى. لكن ماذا يعني: "أفغاني" بالنسبة إليهم؟ يبدو جميلة مضطربة ولا تستطيع أن توضح الأمر بصفة واضحة: "أبوي، ثقافتي، أصدقائي، ...، هكذا نحاول أن نردّ بمباراة رجراجة، ثمّ نهزّ كفتيها.

حوميرا الطالبة في شعبة الأدب واللغة الألمانيّة تعترضها هي أيضاً مثل هذه الأسئلة؛ غالباً ما تُسال عن موطنها الأصلي. "في ما مضى كنت أجيب بأنّي قادمة من بلاد بعيدة، بعيدة تقع في الهندوكوش" - وهي على أية حال قد فتحت عينها على الحياة في أفغانستان. "لكنني لم أعرف ما الذي يمكن أن يعنيه أن تكون الوحدة أفغانية سوى ما لفتني إياه أبوي حول الموضوع"، تقول حوميرا. "أحياناً كان يبدو لي كما لو أنّ الأمر يتعلّق بعالم غير حقيقيّ يجري داخل مسرحيّة: في البيت كنت أمكّل دور الأفغانيّة، أما في الخارج فإنّ الأمر سيّان". إلى اليوم لا يعرف أهلها

لهات الدين، سوق چلر چلغا، الزان مایه، كابول ۱۹۳۱



أما بخصوص ما إذا كانوا سيعودون إلى وطن آبائهم أم لا، فتلك مسألة تختلف حولها آراء الشباب الأفغاني اختلافاً كبيراً على أيّة حال. فالعودة غير مطروحة بالنسبة إلى التلميذة سوزان ناقيد، في الوقت الحاضر على الأقل: "أريد أن أدرس هنا، لقد ترسعت هنا، وأصدقائي هنا، وكذلك ماضي ومستقبلي"، تقول سوزان التي تبلغ السابعة عشرة من العمر. ثم يأتي الاعتراف الأكثر وضوحاً: "إنّ غمط الحياة الذي أعيشه هنا لا يمكن تصوّره في أفغانستان حالياً". وعندما تُسأل إن لم تعد تشعر بنفسها كـأفغانية؟ فإنّها تغيّب محتجّة: "بلى، وبكل تأكيد"، لتضيف: "إنّني ما أزال أحمل في قلبي دائماً تلك العقليّة، لكنني لا أستطيع أن أنكر أنّ جزءاً منّي المانيّ أيضاً؛ إنّ كلّ من يعيش هنا ويدّعي أنّه ليس المانيّ في جزء صغير منه، هو كاذب". لعلّه سيكون بإمكانها في ما بعد - بعد انتهاء دراستها - أن تقدّم لبلد أبويها مساعدة ما، مالية أو في مجال الخبرة المهنيّة. أمّا جميلة التي تعيش في فرانكفورت فتصوّر على عكس سابقتها أنّه من المحتمل أن تعود لفترة من الزمن إلى أفغانستان، "كي أكتشف أخيراً جزءاً آخر منّي هناك". ولملها تستطيع تقديم مساعدة ما في المجال الاجتماعي، لكن بعد الانتهاء من دراستها.

والى جانب هاجس البحث عن الهوية الذاتيّة يلعب الشعور بالمسؤوليّة السياسيّة دوراً مهماً لدى البعض. وهكذا فإنّ أمر العودة بالنسبة إلى مصطفى مسعود شيء وارد جداً، كما يقول: "لأنّ لدي شعوراً بمسؤوليّة مشتركة"، وهو على قناعة بهذه المسؤولية: "إنّ لم يكن جيلنا هذا الذي حظي بالمتّسع بالتعليم والتكوين داخل محيط سلمي هو الذي سيسعى إلى جعل الوضع يسير بنجاحه التقدّم هناك، فإننا لا أدري من ذا الذي سيكون بإمكانه أن يقوم بذلك إذا؟" أمّا أن يُسأل هناك من قبل بقيّة الأفغان أين كان طوال كلّ هذه السنوات الماضية، فذلك ليس من شأنه أن يكون مبرراً لعدم المساهمة في إعادة بناء البلاد. "إنّنا أفغان مثل كلّ الآخرين، حتّى وإن كنّا تريّناً وتأهلنا اجتماعياً بطريقة مغايرة وتلقينا معارف مختلفة".

إلى ماذا ستفضي المخطوطة الجديدة للبحث عن الهوية وإلى أين ستقود هذه الأجيال الشابة من أفغان المنفى، فذلك ما يظلّ سؤالاً مفتوحاً. وحالياً سيظلّ ما تميزه جميلة حالة عميّة لجيلها هو ما يعبّر بصدق عن وضع هذا الجيل: "صراع دائم مع الذات، مصادمات مع العائلة، عدم شعور بالانتماء، العيش بروحيتين في جسد واحد". أمّا مريم فتروي: "أبي قال لي: لا تجعللي حياتك ترتبط بأفغانستان؛ ما الذي ستعلمينه إذا ما انتهار كلّ شيء من جيلك هناك؟"

ترجمة: علي مصباح

ذلك فإنّ الثقافة التي حملها الناس معهم من هناك ستستمرّ في الحياة داخل عائلتها كما داخل أغلب عائلات المنفى الأخرى، وهؤلاء يورثونها بدورهم لأطفالهم. لكن ليست العائلات والأقارب وحدهم هم الذين يجعلون من الشباب أفغاناً. "إنّ المجتمع الألماني هو أيضاً وينصّ القدر يجعل منّي أفغانيّاً"، يقول مصطفى مسعود البالغ من العمر ٢٥ سنة. هناك طبعاً فارق، لا على مستوى المظهر فقط، بل في السلوك أيضاً. "وكما أنّ الأميركيين يحدّدون هويّتهم ضمن "النمط الأميركي للحياة"، كذلك أعتقد أنا أيضاً هويّتي ضمن "النمط الأفغاني للحياة"، وإن كان نمطاً قد داخلته تعديلات أوروبية"، يوضّح مصطفى. وتكاملاً مثل مصطفى تشعر حوмира بنفسها هي أيضاً منجذبة إلى أشباهها من أفغان المنفى. ويختصم ما إذا كان هناك فرق بين أن تقضي أوقاتهما مع أصدقاء ألمان أو أفغان، تجيب بحماس: "هناك عوالم تفصل هذا من ذلك"، وتحاول أن تصف شعورها هذا: "إنّ الأمور تجري على نحو أكثر حميميّة في ما بيننا كالأفغان؛ أعرف عائلات صديقاتي، ونلتقي أيضاً في حفلات أعياد الميلاد والأعراس...". تصمت حوмира قليلاً، تفكّر ثمّ تحاول أن تعبّر بكلمات مناسبة عمّا يجري في داخلها من أحاسيس: "أحسّ بتقسام أكثر للمشاعر هناك، وأنّ الصديقات أكثر قدرة على فهم ما أعيشه وأشعر به. كما أنّنا جميعاً نتابع نفس الغايات". أمّا لدى أصدقائها الألمان فهي تشعر بأنّ "الأشياء تجري على نحو أكثر بروءة، عندما نلتقي داخل مجموعة على سبيل المثال، فإنّ ذلك يتمّ دوماً تحت شعار: من يأتي فليأت. ضرب من عدم الاكتراث". الشعور بالارتياح والسكينة العائليّة، واللغة وتلك الدعابة والفكاهة الأفغانيّة الخاصّة؛ كلّها أشياء ممّا لا ترغب في فقدّه، ومن أجل ذلك تقدّم طوعاً بعض التنازلات وتشجع في الوقوف بتوازن على طرفي متطلّبات العائلة من جهة والمجتمع الألماني من الجهة الأخرى.

منذ إسقاط حكومة طالبان وتولي قرضاي سلطة الحكومة الانتقاليّة، تغيّرت أشياء كثيرة في حياة شباب جيل المنفى. منذ سنتين تدقّ سبل الأخبار والتحقيقات الصحفيّة دفعة واحدة من قلب أفغانستان، وفي الأثناء أصبح هناك أيضاً خطّ رحلات جويّة يربط بين برلين فرانكفورت وكابول. أصبحت أفغانستان الآن شيئاً ملموساً بالنسبة لي، وغداً بإمكانني أخيراً أن أكون لي صورة خاصّة عنها"، تقول حوмира، ثمّ تضيف بحماس: "لقد بدأت لديّ منذ التحوّل مرحلة جديدة من البحث عن الهوية". بل وأكثر من ذلك "سنشارك في عمليّة تطوّر جديدة، فالبلاد انفتحت وسيكون بإمكاننا أن نكون جزءاً منها ونساهم في بنائها"، إنّّه رعي جديد لدى جالية المنفى و حافز اندفاع كبير بالنسبة إلى الكثير من الأفغان.

حيات تحت شجرة الدردار

قصة أفغانية

اعتادت أمي أن تقول: " لا تقترب من أشجار الدردار، فمئنها توجد الحيات!" وكانت تكرر تحذيرها يوماً، وكان من أثر ذلك أن ارتبطت الحيات في مخيلتي ارتباطاً وثيقاً بشجرة الدردار. في قريتنا كان هناك مرج صغير على إحدى ضفتي حوض النهر الذي كاد أن يجف تماماً. وعلى حافة المرج كان هناك عدد كبير من أشجار الدردار المتجاورة، وكانت محاطة بكثير من الأعشاب، ويزهر بيرة مها الأصفر والأبيض والبنفسجي. ولملت الزهور والأعشاب فوق الأرضية الخضراء مثل نجوم صغيرة ملونة. ولا بد من القول إن هذه الناحية من حوض النهر على حافة المرج كانت ساحرة جداً.

وكنْتُ أحب عبور حوض النهر وأن أستلقي وأتدّد على سرير المرج الأخضر ثم أحملق في السماء الزرقاء الصافية واستمتع بالنسيم الخلاب الآتي من الغابة الصغيرة. أحياناً كنت لاحق إحدى الفراشات وهكذا حدث ذات مرة أن اقتربت من الغابة الصغيرة. اختفت الفراشة وسط الأعشاب والأغصان وغمرني فجأة شيء من الخوف. عادت إلى ذاكرتي كلمات أمي: " لا تقترب من أشجار الدردار، فمئنها توجد الحيات!"

نظرت إلى فروع أشجار الدردار بخوف وفضول متطلّراً أن اكتشف ثعباناً يلتف حول أحد الفروع.

اعتادت أمي أن تقول: "الحيات تحب أشجار الدردار. أينما



عزام ر. زرياب، تصوير: Stefan Weidner

كانت أشجار الدردار، فهناك حيات." وقالت أيضاً: "دالما حينما تزهر

أشجار الدردار يهجن جنون الحيات. عطر أرهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة!"

إلا أنني لم أكتشف أبداً أي ثعبان بين فروع الأشجار، لكن أوراق شجرة الدردار كانت تلمع في الشمس مثل ذرات صغيرة من حافظات البذور الداكنة اللون. ولم يصدر عنها أي صوت وساد الصمت في كل الأثناء.

اعتادت أمي أن تقول: "تمد الحيات الموجودة تحت شجرة الدردار لسانها المشقوق للأمام غصباً ويصدر عنها فحيح. وتسحر عينها اللتان تشبهان ماستين سوداوين البشر وتشل حركتهم."

لهذا السبب فزعت من أقل حركة تصدر عن أية ورقة. اعتادت أمي أن تقول: "هذه الحيات عبارة عن مسخرة أصلمهم من الهند. ويحول سُمها البشر إلى رماد."

ذات مرة سألت أمي: "ماذا تفعل الحيات هنا؟ لماذا لا تعود إلى الهند؟"

وأجابت: "جليلها السلطان محمود الغزنوي منذ وقت بعيد وحسبها هنا، وستظل باقية في هذا المكان إلى يوم الدين."

أحياناً كنت أشعر بالشفقة على هذه الحيات. فهذه الكائنات البائسة كانت أسيرة بلا مرطن. محمود الغزنوي، يمين الدولة، كم كان له من نفوذ وسطوة. في كل مرة كان ينطلق فيها بجيشه الضخم للجهاد في الهند، كانت النمر تآني إليه لئيل رضاه والحيات كانت تحني رؤوسها أمامه. على الأقل هذا ما كانوا يحكونه في قريتنا.

أوضحت لي أمي قائلة: "كانت الحيات السوداء الموجودة تحت شجرة الدردار، مسخرة، غفلوا ذات مرة أن يتحسروا للسلطان محمود الغزنوي، وأمر السلطان بقتلهم لكن السخرة تحولوا إلى حمامات واختفوا في السماء. أمر محمود وزيره بأن يقبض على الحمامات. تحول الوزير الذي كان أيضاً ساحراً بارعاً في الخال إلى نسر ملكي. وتبع الحمامات وأمسك بها بسرعة بمخالبه ثم استدار وألقى بها أمام قلعي محمود. ومن قلة

حيلتهم بدأ السحرة في النجيب. لقد بكوا وترجوا السلطان سبعة أيام كاملة وأحمرت أعينهم في البدة فصار مثل الباقوت، ثم تحولت إلى فحم أسود. وفي النهاية تراجع محمود عن اعتزامه قتلهم. لكنه أمر وزيره بأن يحولهم إلى حيات وأن يجلب هذه الحيات إلى غزني حيث يتحتم عليها البقاء بها إلى يوم الدين. وأخذ الوزير الحيات وجلبها إلى قريتنا.

أحياناً كنت أسأل نفسي: "ألم يجد وزير السلطان محمود مكاناً غير قريتنا ليحبس فيه السحرة؟ ولم هذه العقوبة الوحشية؟" ولم أجد إجابة على أسئلتني لكن كلمات أمي جعلت الغاية بالنسبة إلي مكاناً مغرباً وغامضاً ومثيراً للخوف.

في هذا الصام عندما حل الربيع حملت نباتات الدردار زهورها، وتعلقت عناقيد من زهيرات الدردار ذات اللون الأصفر المصلي على الأغصان. عبر شذاها الخلاب حوض النهر وانتشر في كل الأرجاء، وجلبني إلى أشجار الدردار. لكنني خفت أيضاً من الحيات السوداء. وتمنيت لموسم إزهار أشجار الدردار أن يتقضي بسرعة، لكي أتمكن من جديد من عمل رحلات استكشافية في هذه المروج الخضراء الغنية بالفرشاة الرائعة. لكن لم أجد مجالاً لتسحق رغباتي. وبدأ موسم إزهار أشجار الدردار وكأنه لا يسرد أن يقضي. ظلت الزهيرات عالقة على الأغصان في زهو ولم تكف عن نشر شذاها الحلوي في المكان. ومع الوقت فاض الكيل بصبري ولم أعد أحتمل. وهكذا عبرت في أحد الأيام حوض النهر إلى المرج. كان الحصار النضر ناعماً وله لون الفستق. كان خضاراً ندياً بصورة مثيرة. من خوفي لم أنظر مطلقاً إلى أشجار الدردار. تمددت بطولي على الشب الاخضر الندي، وعلق عير زهيرات الدردار في كل أرجاء المكان. وفي وسط المرج الفستقي اللون نمت زهور صفراء وبيضاء صغيرة.

وفي آخر الأمر لحمت فراشة جميلة وقفت فوق زهرة تشبه النجمة. مثات الألوان كانت تزين جناحيها، ألوان بهية مثل قوس قزح، بل ربما كانت ألوانها أكثر بهاءً من قوس قزح. لكن الفراشة استعدت للطيران ورفرفت مغادرة الزهرة، وحلقت فوق المرج الصغير، هنا وهناك وكنت الأحقها. وأخيراً ذهبت تجاه أشجار الدردار واختفت بين الأغصان والأعشاب البرية. وأنا... فجأة تبين لي أنني أقف وسط أشجار الدردار.

تزايد الخوف داخلي وثلّ حركتي. لم أكن قادراً على الحركة. وبالطبع ظننت في الحال أن الحيات السوداء قد سحرته. اختلست النظر من طرف العين إلى فروع الشجر وكنت واقفاً من أنني سأجد هناك حيات تلتف حول الفروع وتقتص عصاة شجر الدردار. فجأة أصابني الهلع لأنني سمعت صوتاً. كان الصوت يشبه صوت فحيح الأفاعي. كنت على وشك الإغماء عندما سمعت صوتاً بشرياً يقول: "لا تخف فأنا لست بحية."

وعندما هدأت قليلاً رعداء الدفء إلى جسدي، اكتشفت بالقرب مني ووسط الزهيرات رجلاً هرمًا. وبدأ لي وكأنه مفيد وسط الزهيرات والخشائش ويحاول تخليص نفسه. كان يرتدي قميصاً قديماً وطويلاً يصل إلى كاحليه، وكان شعره أبيض ولحيته بيضاء كالقطن. وسألته: "ماذا تفعل هنا؟"

وأجاب: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. ولا حتى أنا."

أردت أن أنبهه إلى خطر الحيات السوداء لكنه سبني وسأل: "إنك تخاف من الحيات؟ أليس كذلك؟"

قلت: "سُمها يحول البشر إلى رماذ!"

ضحك. أتت ضحكاته من أعماق قلبه، وترجع جسده من أثر الضحك. لاحظت أنه يمسك عصا خشبية خشنة الملمس، تشبه عصي الدراويش الذين اعتادوا أن يأتوا إلى قريتنا بين الفينة والأخرى. يقضون ليلتهم في المسجد وفي الصباح ينطلقون إلى أماكن جديدة غير معروفة.

توقف الرجل المجوز عن الضحك. وفي هذه الأثناء تحرر من الأغصان والأعشاب. كان نحيلًا هزيلًا داكن البشرة. اقترب أكثر. جلس القرفصاء ووضع عصاه بجانبه واستند إلى أحد أشجار الدردار. تأمل أحد فروع الشجرة وقال: "هل حكى لك أحد عن الحيات الخطيرة؟"

قلت: "أمي حكّت لي عنها."

قال بصوت هادئ: "اجلس!"

جلست على الأرض متبعا طريقة جلوسه واستندت إلى أحد أشجار الدردار. لا أعرف لماذا لم أجد خائفًا من أشجار الدردار. تحدث الرجل المجوز: "في يوم من الأيام، كنت أيضاً صبيًا صغيراً مثلك...، تردد قليلاً ثم استطرد قائلا: "ويومًا ما ستصبح أنت أيضاً شيخاً هرمًا مثلي!" وعاود الضحك من جديد ولم أعرف سبب ضحكته، ثم واصل حديثه: "وهذا هو حال العالم."

كف عن الضحك واستمر في حديثه بهدوء. كان صوته هادئاً ومرحياً. انطبعت كلماته في ذاكرتي، إذ قال: "قبل سنوات طويلة عندما كنت صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات، واستطردت تقول: الحيات تحب أشجار الدردار، فهذه الأشجار تجذب الحيات دائماً! وعندما تزهو يجن جنون الحيات. عطر أزهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة! في يوم من الأيام كانت هذه الحيات سحرة، ثم حبسهم هنا بأمر من الدولة السلطان محمود الغزنوي. عندما كان السلطان ينطلق بجيشه الضخم للجهاد في الهند، كانت النمر تأتي إليه لتل رضاه والحيات كانت تحمي رؤوسها أمامه.

كنت أخاف من أشجار الدردار هذه ومن الأغصان والأعشاب البرية. رغم ذلك كنت أحب عبور حوضي النهر وأتقدم بطولي على سرير العشب الأخضر وأحملق في السماء الزرقاء العاصية واستمتع بالنسيم الخلاب الآتي من الغابة الصغيرة. أحياناً كنت الاحق إحدى الفراشات وهكذا حدث ذات مرة أن اقتربت من الغابة الصغيرة. اخضت الفراشة وسط الأعشاب والأغصان وغمرني فجأة شيء من الخوف. عادت إلى ذاكرتي كلمات أمي: لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات!

لكن في يوم من الأيام لاحظت إحدى الفراشات، مئات من الألوان كانت تزين جناحيها. اخضت الفراشة وسط الأغصان والأعشاب البرية. فجأة تبين لي أنني أقف وسط أشجار الدردار، بل وأني دخلت وسط الأغصان والأعشاب البرية. من شدة خوفي تسمرت في مكاني، كنت مثل المشلول. وعلى الفور دار بذهني أنني صرت مسحوراً. وظننت طبعاً أن ذلك من فعل الحيات السوداء. رفعت عيني خلسة إلى الأشجار وأنا خائف وكنت على قناعة بأن الحيات قد التفت حول أفرع الأشجار لامتصاص رحيق وهيرات الدردار. فجأة فزعت فزعاً شديداً لأنني سمعت صوتاً يشبه فحيح الأفاعي. كنت على وشك الإغماء وفي هذه اللحظة سمعت صوتاً يقول: لا تخف، فلست بحية.

وعندما هدأت قليلاً وعاد الدفء إلى جسدي، اكتشفت بالقرب مني ووسط الزهيرات رجلاً هراماً. وبدا لي وكأنه مقيد وسط الزهيرات والحشائش ويحاول تخليص نفسه. كان يرتدي قميصاً قديماً وطويلاً يصل إلى كاحليه، وكان شعره أبيض ولحيته بيضاء كالقطن.

وسأله: "ماذا تفعل هنا؟"

وأجاب: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. ولا حتى أنا."

أردت أن أنبهه إلى خطر الحيات السوداء لكنه سبقني وسأل: "إنك تخاف من الحيات؟ ليس كذلك؟"

قلت: "سأها يحول البشر إلى رماد!"

ضحك. أثبت ضحكاته من أعماق قلبه، وترجعرج جسده من أثر الضحك. لاحظت أنه يمسك عصاً خشبية خشنة اللمس، تشبه عصي الدراويش الذين اعتادوا أن يأتوا إلى قريتنا بين الفينة والأخرى. يقضون ليلتهم في المسجد وفي الصباح ينطلقون إلى أماكن جديدة غير معروفة.

توقف الرجل المعجور عن الضحك. وفي هذه الأثناء تحرر من الأغصان والأعشاب. كان نحيلاً هزيلاً داكن البشرة، اقترب أكثر. جلس القرفصاء على الأرض ووضع عصاه بجانبه واستند إلى إحدى أشجار الدردار. تأمل أحد فروع الشجرة وقال: "هل حكى لك أحد عن الحيات الخطيرة؟"

قلت: "أمي حكى لي عنها."

قال بصوت هادئ: "اجلس!"

فرصت على الأرض متبهاً طريقة جلوسه واستندت إلى إحدى أشجار الدردار. لا أعرف لماذا لم أعد خائفاً من أشجار الدردار. تحدث الرجل المعجور: "في يوم من الأيام، كنت أيضاً صغيراً مثلك... تردد قليلاً ثم استطردت قائلاً: "وما سأستصبح أنت أيضاً شيخاً هراماً مثلي!"

وعاد الضحك من جديد ولم أعرف سبب ضحكته ثم واصل حديثه: "وهذا هو حال العالم!"

توقف عن الضحك وتحدث متأملاً بصوته المؤثر المريح. وانطبع كلماته في ذاكرتي. قال الرجل المعجور: "قبل سنوات عديدة عندما كنت صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: لا تقترب من أشجار الدردار فعندها توجد الحيات! وكانت تقول: الحيات تحب أشجار الدردار، فهذه الأشجار تجذب الحيات دائماً! وعندما تزهو، يجن جنون الحيات. عطر أزهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة! واستطردت أمي تقول: كانت الحيات الموجودة تحت أشجار الدردار في الأصل سحرة، ثم حبسهم في ذلك المكان بأمر من بين الدولة السلطان محمود الغزنوي وستظل حبيسة هنا إلى يوم الدين!"

كنت أخاف من أشجار الدردار ولكن في أحد أيام الربيع عندما أزهرت أشجار الدردار، اكتشفت فراشة رائعة يتألق جناحها بمئات الألوان. وجريت وراءها لاحقاً. . .

قاطعت كلام الرجل المعجور وسألته: "هل رأيت الحيات؟"

أجاب: "رأيت حية واحدة وحيدة. وهذه الحية كانت موجودة هنا بالضبط ولم تكن هناك أية حيات أخرى." سألته: "ألم تكن خائفاً؟"

أجاب المعجور: "في ذلك الوقت لم أعد صغيراً بعد، كنت رجلاً يافعاً، بل وكبيراً في السن. كان ذلك في أحد أيام الصيف. احترق كل شيء بفعل حرارة الشمس التي لا ترحم. وكان حوض النهر أقرب إلى الجفاف عبرته وجئت إلى هنا، كنت أريد أن أرتاح في ظل الغابة. بدأت أشجار الدردار تنضج بفعل الضوء والحرارة، وبدأت أحسب الأيام الباقية لها حتى تنضج تماماً. في هذه اللحظة اكتشفت حية. كانت تزحف على الأرض ببطء مصدرة فحيحها. كانت سوداء مرقطة ببقع بيضاء. اغلقت عصاي لأهوي بها على رأسها. لكن الحية ابتعدت عني بضع خطوات. كانت عيناها خزيتين. واثارت في نفسي انطباعاً بالكلل وقلة الحيلة. سعلت عدة مرات ثم تحدثت بصوت خزين: "أنا لا أؤذي أحداً. لا تخف مني!"

للمت نفسها بجهد والتفت بشكل لولبي. سعلت ثانية وواصلت الحديث: "لقد صرت عجوزاً جداً، وضحكت. كان لضحكها رنين مري، وقالت: "هذا هو حال العالم!"

وسألته: "ماذا تفعلين هنا؟"

منطقة قندوز، تصوير: Knut Müller



هزت رأسها وأجابت: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم! وأنا أيضاً لا أعرف!" ثم تنهدت وأضافت: "في الظهيرة أتريص هنا في هذا المكان وسط الحشائش والأعصان، علني اصطاد ضفدعاً صغيراً يأتي إلى الغابة. ليس لدي سبيل آخر للعيش."

سألت الحية: "هل أنت الساحر الذي حبسه بين الدولة محمود في هذا المكان؟" ضحكمت الحية بمرارة: "أي ساحر؟ لم أكن أبداً ساحراً، لكن، صحيح أن السلطان محمود قد جلبني إلى هنا." وسألته: "وكيف وقعت في أيدي السلطان؟"

تلفتت الحية هنا وهناك وأجابت: "يبدو وكأن الضفادع لم تأت اليوم." ثم سعلت من جديد. صفرت عينها للتصينات لتصبحا نقطتين ثابتتين. ثم قالت بصوت خفيض: "كنت أعيش في الهند بجانب معبد سومنات. لا شك أنك سمعت اسم هذا المعبد في يوم من الأيام. لقد كان معبداً للإله شيفا أقوى الآلهة الهندوسية. وقد مرت على بنائه قرون عديدة. وكان الأمراء وزوجاتهم يأتون إلى هناك من الأماكن البعيدة مرتدين الذهب والأحجار الكريمة. كانوا يركعون أمام شيفا ويتحنن له. كانوا يقدمون لهذا المعبد قربانين كثيرين من اللائق والأحجار الكريمة. ولكن حتى الفقراء من الرجال والنساء كانوا يأتون حفلة برووس حاسرة ويشترطون بخشوع وطاعة أزهراً جميلة وزيوتاً عطرية زكية أمام شيفا. وكان كهنة المعبد الذين يعيشون حياة راهبة، يتضورون جوعاً ويشبهون في نحافتهم الخشب الجاف. كانوا أناساً مساكين وكانوا كلما نظروا إلي، كانوا يضمون باطن أيديهم ويرفونها إلى جباههم، ويتحنن في خضوع قائلين بعبادة: "أيها الحية الملكية!" وفي كل مرة أتبعهم كانوا يعبرون عن مساعدتهم بي واحترامهم لي. كانوا يتركون لي أنواعاً مختلفة من الطعام. ولم أكن بحاجة لأصطياد الضفادع. كانت حياة مريحة ودافئة. وكانت لأجراس المعبد أصوات ذات رنين حسن. وكانت أغاني المعبد تبعث الراحة في النفس وتبث الهدوء في الروح. وفي لحظات الصمت المطلق التي كانت تسود المعبد أحياناً، كان بإمكان المرء أن يستشعر الخلود.

سعلت الحية السوداء المرتطة. نظرت بعينها الياسمين الخزيين إلى حوض النهر الجفاف واستطردت: "كان ذلك في تلك السنوات التي ذلعت فيها شالعات من بين الدولة، وهزت أرجاء الهند. قالوا إنه سلطان قوي ومهاب الجانب، يأتي من منطقة الجبال البعيدة، وقالوا إنه يخرج في حملات بعيدة بحثاً عن المعابد ليتمرها وينهبها. فبمرور القرون تكومت في معابد الهند كنوز وثروات ضخمة من اللائق والأحجار الكريمة والذهب والفضة. وكل معبد كان يمد في واقع الأمر خزانة للكنوز. وكان بين الدولة يهتم كثيراً بالكنوز. كان يقطع كل عام مع مقاتليه الذين لا حصر لهم مسافات طويلة ويعبر الجبال والصحاري، ويأتي إلى الهند. حطم وقتل وهدم وحرق. ثم حمل كنوز المعابد على ظهور الأبقال والخيل والجمال وجلبها إلى مدينة غزني أي إلى هذه المنطقة. وسلب جنوده الناس البسطاء ممتلكاتهم الثقيلة وأرغموا الشباب والشابات على الوقوع في أسر العبودية."

سعلت الحية السوداء من جديد. وبدا لي وكأن دمعة سنسيل منها. أغلب الظن أنه قد خطرت لها ذكرى تخصها في تلك السنوات البعيدة.

سألته: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

استمرت في الحديث وقد أحسنت رأسها: "وأخيراً جاء الدور على معبد سومنات. وبدا لها من مصيبة حلت بالمعبد في ذلك اليوم. اسودت التلال والصحاري على يد مقاتلي محمود.



أثارت دقات الطبول الضخمة وأصوات الأبواق وصهيل الخيول وضجيج الأقبال وصرخات الفرسان الرعب في النفوس. وانصهرت شجاعتهما وسط هذا الضجيج. وسود التراب الذي وصل حد السماء وجه الشمس الساطع، كان مشهد يشبه خيوسف الشمس. جموع كبيرة من البشر، رجال ونساء وأطفال، وجدوا الملاذ في معبد سومنات. غمرخ الكهنة في التراب ودعوا شيفاً ليحمي معبده. واستمروا في المهمة بأدعيتهم وتعاويزهم وقرعوا أجراس المعبد.

واصلت الحية السوداء حديثها قائلة: "أمسكت النساء بشعورهن المشعة بأطفالهن الرضع، ورحفن واختبأن في زوايا المعبد والتصقن الآخرين بأسوار المعبد وأصمته وكانهن يريدون أن يطفوها عن أعين مقاتلي محمود. صار المعبد في قلب دائرة حصار جيش محمود، وصارت هذه الدائرة مع كل لحظة تمر، أضيق وأضيق. ولول الكهنة الحائزون: شيفاً أيها الإله القوي المدمر؟ أين غضبك؟" وتسر الجميع في انتظار حدوث معجزة. تمثروا أن نار غضب شيفاً ستشتعل وتحول محمود ومحاربيه إلى رماد.

شعر الصغار بالظلم وطلبوا الماء. ولم يكن هناك ماء وهكذا بكوا غير صابرين. كان لتحييمهم أن يلعب القلوب ولو كانت من حجر. بُتت الشيوخ النحاف والرجال والنساء الذين أحرقتهم الشمس نظرتهم على شيفاً بصورة تثير العجب، فهم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يقف هكذا ساكناً ولا مبالياً.

في نهاية المطاف دخل محمود من باب المعبد مرتدياً ملابس الواقية وخوذته الشهيرة المصنوعة من الصلب المنمشنق اللامع، وراكباً على حصان قوي أسود. حطم الجنود الباب ودخل السلطان بحصانه إلى فناء المعبد. عندئذ وصل عويل وصراخ الرجال والنساء والأطفال إلى ذروتهم، ثم ساد فجأة سكون مخيف. خرس بكاء وصراخ وتندب هؤلاء البشر اليائسين، الذين لم يجدوا من يذود عنهم. حتى الأطفال العطشى صمتوا. تسمر الجميع خوفاً من ذلك الرجل القوي يمين الدولة السلطان محمود.

في هذه اللحظة خرجت من مكاني. كنت غاضبة لأن يمين الدولة لم تأخذ شفقة أو رحمة بهؤلاء المساكين البؤساء. كنت غاضبة لأن السلطان دخل بحصانه مكاناً مقدساً بمعبد شيفاً الجبار القهار. كنت غاضبة لأنه عذب وأهان هؤلاء المساكين الذي بحثوا في المعبد عن ملاذ لهم. تلفت حولي لم أعرف ما الذي ينبغي علي عمله. لم تكن لدي أدنى فكرة عن الكيفية التي يمكنني بها المساعدة، لكن الكهنة ظنوا أنني منقذة المعبد. لذلك انحنوا أمامي برفان وإعجاب ونادوا: أيها الحية الملكية! وخلقهم تصاعدت أصوات مليئة بالفرحة والأمل، تجبر عن السعادة والإعجاب وتنادي: أيها الحية الملكية! وعلى شفاه الجميع ارتسمت ابتسامة وجلة مزروجة بالندشة والنشأ.

عندئذ لاحظ السلطان محمود وجنوده وجودي. وشد الجنود أوتار أقواسهم حتى لامست حواف السهام أطراف أذانهم. وتيقنت من أنني سألقب في ثوان معدودة. رأيت الموت واضحاً أمام عيني وشعرت بأنني جزء من الخلود، لكن فجأة لاحظت أن محمود أعطى رسالته إشارة لينكسوا أقواسهم، وفسرت أمره على أنه إشارة للسلم والصالح. لذلك تحركت تجاه محمود. فزع حصانه وبدأ في الصهيل خائفاً. وكان على وشك القفز لولا أن جنوداً أقوياء أمسكوا بالزمام بقوة وهذا الحصان.

رحفت حتى اقتربت على بعد خطوات قليلة من محمود وتسمرت في مكاني.

نظرت للحظة داخل عيني. ولم أر بها شيئاً سوى الشر والطمع، شر وطمع لا حد لهما. رغم ذلك أحنيت رأسي أمامه وأردت بهذه الحركة أن أترجاه ألا يصبح معذباً لهؤلاء البشر البؤساء وأن يصون المعبد من الدمار وأن يعود بأسرع ما يمكن من حيث أتى. أردت أن أبين له أن حية معبد سومنات على استعداد لأن تتذلل أمامه من أجل بلوغ هذه الغاية السامية. أردت أن التمس منه الرحمة للأطفال العطشى وللرجال والنساء الخائفين اليائسين. أردت أن أوضح له أن هذا المعبد، أي معبد سومنات هو مقر العبادة والصلاة لهؤلاء البشر منذ عدة قرون. أردت أن أبين له... لكن في هذه اللحظة، سمعت أحد قادة الجند يصبح بانتصار قافلاً: انظروا! الحية حارسة الكنز، تسلم المعبد إلى السلطان!

أحزنتني كلماته وأفزعني. ارتفع صياح الجنود. أمر يمين الدولة بإلقائي في صندوق. وعندما عدت إلى صوابي وجدته في صندوق مظلم. وسمعت كيف أمر السلطان بتدمير معبد سومنات، وتطعيم شيفاً. في ظلمة الصندوق سمعت شكاوى وصراخ وبكاء النساء والرجال والأطفال. صهلت الخيول وصاحت الأقيال. وهلل الجنود المظفرون عالياً بصيحات النصر. في هذه اللحظة شخبت بمقدار مائة عام. شعرت بأنني تحطمت من الداخل.

صمتت الحية. وسمعت فحيحاً خافتاً. بدا لي وكأنها تنفّس بصعوبة. ثم واصلت حديثها: "في هذه الحالة جاؤوا بي إلى غرّة، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من مقتنيات القصر السلطاني. كان القصر بالنسبة إلي وسطاً غير متداد. كل ما حولي كان غريباً. لم يكن هناك من يحترمني. لم أعد حية ملكية بعد. كنت كائناتاً محترقاً وخائفاً.

عندما أُبقيت إلى غرّة انتشرت إشاعة كالثار في الهشيم مفادها أن ملكة الحيات الهندية قد قبلت قدمي بين الدولة السلطان محمود الغزنوي وتنازلت له عن كل كنوز الهند. وحكوا أيضاً أن محمود قد أحضر ملكة الحيات الهندية إلى غرّة وجسها هناك. بعد ذلك تهاشم الناس فيما بينهم أنه في كل مرة يخرج فيها محمود إلى الهند للجهاد، تأتي إليه الحيات لنيل رضاه. كذلك حكوا أن السلطان محمود قد حول بعض السحرة الهنود إلى حيات وجسها في غرّة.

قدمني السلطان بنفسه إلى كبار ضيوفه القادمين من بلدان أجنبية أو من الأطراف القصية لملكته الشاسعة، وكان يقول: "هذه الحية هي التي سلمتنا كنوز معبد الأصنام في مومناث. لقد وضعت رأسها أمامي في التراب!" وكان الضيوف ينتهشون ويمجدون السلطان: طال عمر السلطان. وكل ما حدث، حدث بمشيئة الرحمن. ويضحك السلطان راضياً وفخوفاً.

وذات مرة عندما كان رسول الخليفة في بغداد في قصر السلطان، أراد محمود أن يرسل هدية إلى الخليفة، لكن ذلك الرسول قال للسلطان أن ببلاءه حيات كثيرة. وعليه أرسل محمود عشر عذراوات جليهن معه من كشمير، إضافة إلى اللائي والأحجار الكريمة. وقبل الرسول هذه الهدايا بسرو.

وأخيراً مرض بين الدولة بالدرن. واكتشف الأطباء أن الضحك أفضل علاج له. وبذل السلطان كل جهده من أجل أن يصفو باله ويعتدل مزاجه. فأحضر مهرجاً لبلاطه اسمه طلالهق. وهذا المهرج دأب على القيام بمزج ثقيلة وسخيفة مع السلطان، لكن السلطان كان يضحك. وكانت حاشية البلاط تخشى المهرج كثيراً، لأن هذا الشخص الوضيع، كان على صلة مباشرة مع السلطان وكان عزيزاً على السلطان.

ودأب المهرج الذي لا يعرف الشفقة على تعذيب. كان يقوم بشكي بإبرة مثبتة في عصا طويلة وكان يأمرني بنعادي: يا الله، اضحك! اضحك!، وطبعاً لم أفعل. كيف لي أن أضحك؟ كانت الإبرة تثقب جسدي. كم كان الألم شديداً! لكن المهرج القاسي كان يضحك فقط وبدا أن السلطان كان يجد في ذلك أيضاً تسليته. أحياناً كنت أبتلع لأول مرة لهم: أنا حية ملكية. أنا حية معبد مومناث، راعوا واحترموا مكثتي، لكن كان من الواضح بالنسبة إلي أن ذلك لن يجدي. وكيف يمكن أن أتوقع من الذين دعروا المعبود ونهسوه أن يحترموا مكانة حية المعبود المقدسة؟ وهكذا تحملت كل شيء ولم أحرك ساكناً. في الحقيقة خرجت مني صرخة وحيدة. كانت هي شكواي، كل حياتي أصبحت شكوى. شكوى عنيفة وقلت لنفسي لو تمكنت من كتمانها لتبخر جسدي وتحلل في الهواء.

في نهاية الأمر أرسلوني إلى منزل أحد الأطباء، اسمه أبو الريحان^١، وكان هذا الطبيب رجلاً طيباً لطيفاً وذكياً، وقد رافق محمود عدة مرات في رحلاته إلى الهند. وكان يعرف عقائد وعبادات وتقاليده البشر الذين يحبون هناك وكان يعلم جيداً بمكائني وتقدير واحترام الناس لي هناك. هذا الرجل لم يعذبني مطلقاً، وفي بعض الأحيان حينما نكون وحدنا كان يتحدث إلي باللغة التي تعلمها من علماء الهند. بل وكان يتحنى أمامي من أن لأخبر ويتحدث بصوت خفيض، وكأنه لا ينبغي لأحد أن يسمعه، ويقول بكل احترام: أيتها الحية الملكية، ثم يتسم بلطف واحساس.

لقد جلبني إلى منزله لإجراء بعض التجارب معي. كانت تجارب غير ضارة. ولم تسبب لي جهداً ولا حزناً، لكن العالم كان يأخذها مأخذ الجد. ذات مرة مثلاً وضع أحجار الزبرجد في قصصي لمدة عشرة أيام. ثم فحص عيني فحصاً دقيقاً، وتبين له أنني لم أشفد بصري. ثم دون بالفعال كل مشاهداته في كتبه. وأثارت المعارف التي توصل إليها إعجاب العلماء الآخرين الذين ظنوا أن الزبرجد يؤدي إلي عمى الثعابين. كان العالم أبو الريحان طوال الوقت غارقاً في كتبه، وعاكساً على تدوين معارفه. كان يسهر الليل بطوله. وكان يصمت ويبقى ساكناً بلا حراك لمدة طويلة قبل أن يعود إلى التدوين والكتابة في صحفه.

ولا بد أن أقول أن الأيام التي قضيتها في بيت أبي الريحان من أفضل الأيام التي قضيتها في هذه المنطقة. لكن هذا الوقت السعيد لم يدم طويلاً. وسرعان ما أصادوني إلى بلاط السلطان مرة أخرى. كان ذلك بأمر السلطان. اقترب مني أبو الريحان للمرة الأخيرة، وانحنى أمامي وتحدث بصوت خفيض: أيتها الحية

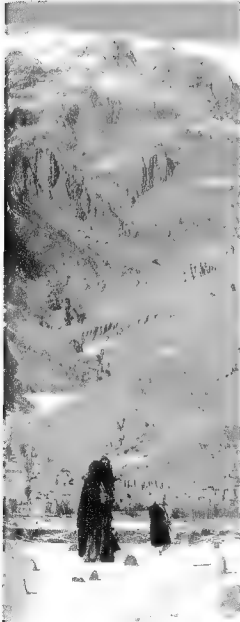
الملكية، ثم جلبوني إلى قصر السلطان. وهناك كان المهرج الوقع في انتظارى بعصاه الطويلة التي ثبت فيها من الإبرة. وصار جسدي من جديد عرضة للوخز وأصبحت ثانية وسيلة لإضحاك السلطان وحاشيته. وأخيراً مات بين الدولة محمود بالدفن، وتولى ابنه مسعود الحكم بعد صراع مع أخيه. ولم يهتم السلطان الجديد بالتعايين والتمائب التعابين. لذلك طردني من بلاطه وبدأت معاناتي من جديد. وانتقلت من يد إلى يد. ويا لكم البشر الأثقال الذين تعرفت عليهم وكم من المهانات تحملت. وفي آخر الأمر وقعت في يد أحد الصعلاليك، كان يصطحبني معه إلى أسواق غزنة ويعرضني أمام الناس مقابل المال. وكان ذلك الشخص البدائي يسميني باحتقار ملكة الحيات «شاه مار». وأصبحت أيضاً لعبة في يد الأطفال في حواري السوق. قضت فترة الإذلال والمهانة تلك تماماً على قدرتي على المقاومة. لم أجد قدرة على الأكل. كنت كالمشلولة، ولم أستطع التحرك إلا بجهد كبير. وأرغمني الصعلوك ذو القلب القاسي، مثله مثل المهرج في بلاط محمود، على الحركة بوزخي بعضاً فيها إبرة مثبتة في قمعتها. كانت حياة مرة مليئة بالعذاب والالام.

صمتت الحية السوداء. كانت عينها مغلقين. ولم يصدر عنها أية حركة. كانت وكأنها قد سقطت مغشية عليها. لكن بعد فترة تحرك رأسها قليلاً. ثم فتحت عينيها للتعبين المخاترين وتحدثت: في أحد الأيام أتى ذلك الصعلوك إلى ضفة هذا النهر وأراد أن يستحم. ونسى أن يحكم إغلاق غطاء السلة التي وضعني فيها. خيأت نفسي بين الأغصان والأعشاب البرية. ورغم أن الصعلوك القاسي القلب قد بحث عني كثيراً، لم يجد لي أي أثر. كان غاضباً جداً وأخذ يسيئ بأقذع الشتائم، لكنه انصرف في آخر الأمر بدوني. ولم أره بعد ذلك مطلقاً.

ومنذ ذلك الوقت انقضت سنوات عديدة. وأنا أعيش هنا معزولة وحيدة دون صديق أو معين. في الشتاء يكون البرد قارساً وتأسمر في ذلك الفصل بلا حراك تحت الأرض. كم كان وقتاً جميلاً في ذلك الركن من معبد سومنات، كم من أيام سعيدة ورائعة قضيتها هناك. كان الهواء دافئاً وله رائحة طيبة. كانت دقات أجراس المعبد تبعث الراحة في القلب. واعتاد الكهنة كلما قابلوني أن يحيوني بـ "أيتها الحية الملكية!" كان الأطفال الصغار عطشى ويطلبون الماء. . . الجميع تساملوا لماذا ظل شيئاً صامتاً. . . وصلت صرشات النساء والرجال والأطفال إلى عنان السماء. . . كنت أريد أن يرى أن الحية الملكية تتحيي أمامه. . . الحية التي كانت حارسة الكنز تسلم معبد الأصنام إلى السلطان. . . ملكة الحيات الهندية قبلت قدمي السلطان محمود. . . طال صبر السلطان. وبالتأكيد فإن ذلك يتطابق مع مشيئة الله. . . كم من الآلام سببتها لي هذه العصا ذات الإبرة المثبتة في رأسها. . . كان المهرج يضحك ويضحك. . . على أية حال أنا حية ملكية، الحية المقدسة لمعبد سومنات. أيا ريحان أيا ريحان لا تسمح لهم أن يأخذوني من بيتك. . . آه من تلك العصا ذات الإبرة. . . أيتها الإنسان الخبيث لماذا تعذبني؟ يا له من ذل. . . يا لها من إهانة، يا لها من إساءة. . . أيتها الحية الملكية. . . كنت صرخة وحيدة. ظننت لو صمت لتسحل جسدي. . . أنا حية ملكية. . . حية معبد سومنات. . . أيتها الحية الملكية. . . يا له من ذل. . . الغوث. . . الغوث. . . محمود. . . محمود بين الدولة، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟

وضعت الحية السوداء رأسها على الأرض وظلت ساكنة. انتظرت بعضاً من الوقت، لكنها ظلت ساكنة. المستها بعضاً، لكنها بقيت ساكنة. أخذتها بين يدي ولاحظت أنها ماتت. كانت خفيفة خفة الريشة. ولم أعرف ماذا أفعل بجسد الحية الخالي من الروح. في آخر الأمر دفنتها وسط الأعشاب والأغصان.

في أحد أيام الربيع وقت الظهيرة عبرتُ حوض النهر وأتيت إلى هذه المنطقة. أزهت أشجار الدردار وكان للنجيل النضر لون الفسق. بحث عن الموضع الذي دفنت فيه الحية. ورغم بحثي المضني لم أستطع أن



أجده. فقد نمت الأغصان والأعشاب البرية في كل مكان. وعندما أردت أن أعود علقت يدي وقدمي بالأغصان. وعندما أردت تخليص نفسي لحت الصبي الصغير الذي كان قد خطا عدة خطوات وسط الحشائش. أصيب الصبي بالشلل من شدة الخوف، وقلت له: "لا تخف، فلست بحية!" وقال الصبي: "ماذا تفعل هنا؟" وأجبت: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. ولا حتى أنا." وكان على وشك أن يقول شيئاً لكنني سبقت: "إنك تخاف الحيات. أليس كذلك؟" قال الصبي: "سم هذه الحيات يحول البشر إلى وعاء!" تذكرت حية معبد سومنات الضعيفة التي لا حيلة لها ولم أجد مقرأ من الضحك. ضحكتم من أعماق قلبي. ثم تحررت من الأغصان والحشائش المتشابكة. جلست على الأرض واستندت إلى شجرة الدردار وسألت الصبي: "إذن فقد حكوا لك عن هذه الحيات الخطيرة؟" وأجاب: "حكى لي أمي عنها." أمرته: "اجلس!" وجلس مثلي على الأرض واستندت إلى شجرة الدردار. قلت بصوت خفيض: "قبل سنوات عديدة، عندما كنت صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: "لا تقترب من أشجار الدردار فمتنعا توجد الحيات!" وأثناء حديثي، كبر هذا الغلام شيئاً فشيئاً. صار رجلاً يافعاً ثم أصبح شيخاً كبيراً ثم صار هرمًا، وهذا ما ينبغي أن يكون. هذا هو حال العالم، هذا ما ينبغي أن يكون."

ترجمة: أحمد فاروق

مطرة بايان، ١٩٦٨، تصوير "Roland and Sabine Muchaud"
من كتاب: "Unbekanntes Afghanistan" Kneisebeck Verlag, München 2002



غوته في حوار مع العالم الاسلامي

صفحات جديدة

حينما تصفح «الديوان الغربي - الشرقي»، تضعنا بدايته في الحال في مواجهة رؤية تنور حول زوال العالم ونهايته:

الشمال والغرب والجنوب تحطم وتتناثر،
والعروش تثلّ والممالك تتزعزع وتضطرب،

أكان هذا نداء يعلن اقتراب يوم الحشر؟ ومن أين أتى هذا الصوت الذي حث الشاعر قائلاً:

لننهجر إذن إلى الشرق الطاهر الصافي
كي نستروح نسيم الآباء الأولين...

وكان عنوان القصيدة التي وردت فيها هذه الأبيات هو «هجرة Hegire»، ولا مرء في أن هذا العنوان قد أقام صلة بين رحلة شاعر الديوان الروحية إلى «الشرق الطاهر الصافي»، حيث كان يقطن الآباء الأولون وبين هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة في عام ٦٢٢ ميلادية، هذا العام الذي بدأت فيه الدعوة الإسلامية فأضحى بداية التأريخ الإسلامي. والأمر الذي يدعو للمعجب هو أن هذه الأبيات، التي تشكل فاتحة الديوان، كانت قد دجبت في الرابع والعشرين من كانون أول/ ديسمبر من عام ١٨١٤، أي في الليلة التي تحتفل فيها الأمة المسيحية بميلاد مخلصها وببداية العصر المسيحي. ويثير هذا التزامن الدهشة ويستأهل أن نتذكر فيه لا سيما حينما نضع نصب أعيننا أن غوته قد نشأ في عائلة بروتستانتية وأن والدته كانت متبجرة في الكتاب المقدس وأنه هو نفسه كان واحداً من أولئك البروتستانت الذين بلغت هوائهم بمطالعة الكتاب المقدس مبلغاً جعلهم يقدون «مشاباة كشافات حية، فهم يتمرنون على بيان أين توجد كل آية، ويعرفون عن ظهر قلب النصوص الرئيسية، ويحسنون الاستشهاد بها في كل التطبيقات الممكنة». إن هذه الجمل، التي استشهدنا بها هنا، مستقاة من «التعليقات والبحوث» التي كتبها غوته ليعين من خلالها القارئ على فهم الديوان. وكان غوته قد أضاف هناك بشأن المشجحين بالكتاب المقدس قائلاً، بأن هؤلاء لابد أن يكونوا قد وجدوا في ذلك عنصراً رائعاً من عناصر التثقيف، ذلك لأن الذاكرة، وهي مشغولة دائماً بأمور رفيعة سامية، تحتفظ للشمور والحكم بمواد صافية للاستمتاع والتطبيق. يتحدث غوته هنا عن تجربة اكتسبها إنسان متبحر بالمعدين القديم والجديد، وذلك - وهذا أمر يثير المعجب لدى القارئ بلا ريب - لكي يعرب عن أحاسيسه الأخوية حيال الشاعر الفارسي محمد شمس الدين حافظ، علماً بأن «حافظ» لقب تشريفي يشير إلى أن هذا الشاعر الفارسي كان مسلماً متديناً حافظاً لأي القرآن الكريم عن ظهر قلب. وكما يؤكد غوته فقد لازم هذا اللقب التشريفي الشاعر محمد شمس الدين نصار بمشاباة اسم له. وتصور قصيدة غوته المسماة «لقب»، الواردة في «الديوان» ضمن الجزء المسمى «كتاب حافظ»، شاعر فارس الأول في القرن الرابع عشر، في حوار مع غوته نفسه. ففي هذه القصيدة التي يتحدث فيها حافظ عن تقديسه للقرآن الكريم،

سافراً تقليدياً واصفاً إياها بأنها "إنتاج بائس". أما وأن غوته كان يناوئ كل الحبائل وأنه كان قد عزم على كسب الود للإسلام، فهذا أمر واضح تشهد عليه الشلوات المتبقية مما يسمى بتراجيديا محمد التي جاءت مناقفة تماماً للصورة الخيئية التي رسمها فولتير للرسل محمد في مسرحيته، الشهيرة آنذاك، المسماة Le fanatisme ou le Prophète.

النشورة عام ١٧٤٢. ولمه تجلر الإشارة إلى أن غوته كان قد حرم على شقيقته كورنيليا، إبان دراسته الجامعية في مدينة لايبزج، لعب دور في العرض الذي نظمه بعض المعجبين بمسرحية فولتير الخيئية. ومهما كان الحال فإن الأمر البين هو أن غوته قد دبح، وهو في سن الثالثة والعشرين، قصائد أشاد فيها بنبي الإسلام إشادة لم يضاهه بها شاعر أوروبي آخر أبداً. إلا أن اهتمام غوته بالإسلام لم يقتصر على هذه الحقبة فقط. فبعد ما يزيد على أربعة عقود من الزمن وفي سياق المحاورات التي تضمنها الديوان الغربي - الشرقي استأنف غوته اهتمامه بالدين الإسلامي، حيث عمق اهتمامه بالمعالم الإسلامي وبناء على قاعدة أكثر اتساعاً وأشد متانة في هذه المحاورات.

وعلى ما يبدو لي، يكمن أهم عنصر لملاقة غوته بالإسلام في الإجلال القوي الأساس الذي كان غوته يكتنه للإسلام وللوقوف على هذه الحقيقة من كسب، اسمحو لي أن استعين ببضعة أمثلة معبرة توضح ما أقصده. في سن الثانية والعشرين، أي حينما كان لا يزال يصارع من أجل أن يفصح لسانه عن الروح الشاعرة الكامنة في أعماقه، بعث غوته رسالة إلى هرد يقول له فيها: "إني أود أن أدعو الله كما دعاه موسى في القرآن: «رب أشرك لي صديري»". ويستشهد غوته هنا بالآية الخامسة والعشرين من سورة طه. ويتبن معزى استشهاد غوته بهذه الآية، متى ما اطلع المرء على الآيات اللاحقة التي اقتبسها غوته من القرآن في وقت يكاد أن يتزامن مع تأريخ تحرير الرسالة. فموسى يواصل دعاءه هناك قائلاً: «وأحل عقدة من لساني، يفقهوا قولي»... ولا مراه في أن استشهاد غوته بالقرآن الكريم في سياق موضوع هو في غاية الأهمية بالنسبة إليه، أعني رسالته الشعرية دليل واضح على القيمة الروحية التي عثر عليها غوته في كتاب الإسلام للقرن في ذلك الزمن المبكر من حياته. وبعد نصف قرن أعلن الشاعر، وهو في عامه

نرى غوته يعجابه دومًا تردد وذلك لأن يوسمه هو أيضاً أن يقول - موقفة في ذلك مثل موقف حافظ حيال القرآن - "إن الذي قبست نفسي الصورة البدئية من كتبنا المقدسة، فانطبعت عليها ... على رغم النكران والتكفير، مع الصورة النقية للإيمان." ويسمي غوته حافظاً في كتاب حافظ المذكور أملاء "توأمه". وهكذا، أهناك صلة أقوى

وأمتن من الصلة التي تجسم بين التوأمين؟ ألا يحيرنا أن يشعر غوته بأواصر قرى مع حافظ شبيهة بأواصر القرى مع الشقيق التوأم، وإن فصلت بينهما قرون من الزمن عديدة وتباعدت ديارهما تباعداً عظيماً واختلقت لختيماً وتباين تراثهما اختلافًا وتبايناً شديدين؟ وكيفما كان الحال، فإن ديوان غوته يظهر، بوضوح وجلاء، "توأمين"، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، في حوار أخوي صادق. وفي الواقع، فإن جلّ الديوان الغربي - الشرقي، ومصطلح ديوان يعني، كما هو معروف، المكان الذي يجتمع فيه، يشتمل على محاورات غريبة - شرقية، يشارك فيها الكثير من مشاهير الشرق: النبي محمد، شاه عباس الكبير، محمود الغزنوي، تيمورلنك، القسبي أبو السمود الفندي، السلطان سليم، والشعراء حافظ والفردوسي وجلال الدين الرومي وسعدي والمتيني وحاتم الطائي وغيرهم كثيرون. وهذه الأسماء قليل من كثير، ففي ديوان غوته لا يسطى مشاهير القوم فقط الفرصة للتعبير عن آرائهم، بل ويمنح أناس آخرون مجهول الهوية، من قبيل الساتي وحادي البغال ودليل القافلة والجوهري والتاجر في السوق، لا بل وحتى المتسول أيضاً، الفرصة للتعبير عما يجيش في خواطرهم من أفكار. ففي ديوانه المشتمل على اثني عشر كتاباً وفي القسم الثري منه، أيضاً، المسمى تليقات وأبحاث، كان غوته دؤوباً على إعطاء أمثلة تشهد على إمكانية الحوار بين الغرب والشرق. (...)

وفي وقت مبكر، أي وهو لا يزال في العشرينات من عمره، كان غوته واعياً بضرورة إقامة الحوار الصادق بين العالم الغربي والإسلام. ففي تلك الحقبة كان قد بدأ يهتم بالقرآن دراسة ومناقشة، فراح يدرن بعض الآيات من الترجمات المختلفة للقرآن صباحاً جام غضبه على ترجمة جديدة كانت قد نُشرت للتو آنذاك وانطوت على ملامح معادية للإسلام عداماً



غلاف القلعة الأولى لكتاب "الديوان الشرقي للوفد الغربي" لغوته

الوحيدة في الأدب العالمي التي ترتبط فيها قصة حياة المؤلف، كما يؤكد ذلك الاستشهاد الحرفي التالي، ارتباطاً وثيقاً بتاريخ "ذلك البلد الجميل المحمود كثيراً وبمحيطه وبإبلان المجاورة له... وبوقائعته وشعريه أيضاً التي كانت، وعلى مدى آلاف السنين، تكن لهذه الرقعة من العالم أعظم إكبار". ويفصح مؤلفه شعر وحقيقة عن اهتمام غوته المبكر بإسماعيل، الابن البكر لإبراهيم من هاجر المصرية والأب الذي انحدر منه العرب. وكان غوته قد رأى في مولده "تدبيراً من السلي القدير" يشبه إنقاذ ملائكة الرحمن لإسماعيل من الذبح وذلك "لكي تكون لإسماعيل، أيضاً، ذرية عظيمة يؤمل أن يتحقق لها ما لا يمكن تصوره"، أي أن تكون ذرية إبراهيم بعدد نجوم السماء.

وكان النزاع بين إسماعيل وإسحاق، أب الإسرائيليين، قد أخذ مساحة واسعة في سياق حديث غوته عن طفولته، الأمر الذي ينوه بأنه كان قد وصى هذا النزاع في وقت مبكر. وكان غوته قد درج على أن يتحدث عن النزاعات بلهجة أسفة ولكن محايدة؛ فهو لا يتحيز لطرف ضد طرف آخر أبداً. وكان قد تحدث في مؤلفه "شعر وحقيقة" بإسهاب عن الكيفية التي استولى بها إبراهيم على بلاد كنعان والأسباب التي دفعته لأن يقيم هو وذريته في هذه البلاد التي تتصارع عليها ذريته من الإسرائيليين والعرب صراعاً دائماً حتى يومنا الحاضر. وتفصح سيرة غوته الذاتية عن عمق الاهتمام الذي أولاه لسكان فلسطين، فهؤلاء كانوا يظهرون، بالرغم من إيمانهم بالله، ملامح "توحش وقسوة"، تبنى "عن المستوى الذي يمكن أن يصل أو يهبط إليه الإنسان". وكما أكد فين "الكتب المقدسة... لا تريد أن تعرض علينا هؤلاء الرجال الذين أتم الله عليهم بالبركة على أنهم القدوة الحسنة في الخلق القويم. فهم أيضاً يتسمون بصفات مختلفة متباينة وبنواصير كثيرة ومهام عديدة، إلا أن ثمة خاصية أساسية أرادت الميثية الإلهية لهم أن لا يحدوا عنها: إيمانهم إيماناً لا يتزعزع بأن الله قد خصهم هم وقومهم برحمته". وكان غوته قد اعتمد في وصفه هذا على الترائين اليهودي والعربي - الإسلامي. وكما هو معروف، فقد تعلم غوته في وقت مبكر ومن دون أن يدفعه أحد إلى ذلك اللغة التي يتحدث بها اليهود الأوروبيون واللغة العبرية كما أنه غطى خطوات أولى لتعلم اللغة العربية نطقاً وكتابة. من ناحية أخرى كانت أفكاره قد توجهت، منذ كان طالباً في ستراسبورغ، إلى القرآن اهتمام به اهتماماً عميقاً.

السبعين على وجه التحديد، على الملأ أنه يحترم أن "يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على النبي". وتذكرنا العبارات التي اختارها غوته أعلاه، أعني عبارات من قبيل «خشوع»، «الليلة المقدسة»، «أنزل فيها»، بالتأكيد بالعبارات التي تستخدمها الأمة النصرانية أيام احتفالها بمولد المسيح (...).

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

(سورة الفاتحة، بخط غوته)

وقبل فترة وجيزة طرحت صحيفة Neue Zürcher Zeitung سؤالاً مفاده: هل كان غوته مسلماً؟ وذلك كعنوان لمقالة نشرها على صفحاتها مانفريد أوستن Manfred Osten. وفي الواقع فإن هذا الموضوع ليس أمراً سهلاً يمكن الإجابة عليه بنعم أو لا. حقاً هناك أكثر من دليل يشهد على أن غوته لم يكن مسلماً، إلا أننا، مع هذا، نعثر لديه على عبارات وسلوكيات كثيرة تبين أن غوته كثيراً ما كان ينسب نفسه إلى ملة المسلمين. ومهما كان الحال، فالأمر الواضح الذي يمكن تأكيده هنا هو أن غوته قد وظف إمكانياته الفكرية وطاقاته الشعرية لد الجسور الموصلة إلى عالم الإسلام. وعلى ما يبدو فقد وصى غوته في وقت مبكر أن القدر شاء له أن يكون صلة الوصل بين الصالحين، كما تنوه بذلك العبارات التي دونها هو نفسه في مؤلفه "شعر وحقيقة Dichtung und Wahrheit"، الذي يقول فيه بخصوص اقتنائه بفلسطين: "بوسع المرء أن يتحول حيثما يشاء، بوسعنا أن يشرع بالقيام بما يريد، إلا أنه سيعد دائماً وأبداً إلى ذلك الدرب الذي رسمته له الطبيعة". وكما هو بين من سيرته الذاتية، كان هذا الدرب، الذي رسمته له الطبيعة، قد قاد غوته إلى الشرق الأوسط، هذا الإقليم الذي فتته منذ سنوات الصبا افتتاحاً جعله لا يشعر بالغربة وهو يتجول، وروحياً، مع الآباء الأولين في أقطار دجلة والفرات والنيل ونهر الأردن. وحسب تعبيره هو ذاته، فإنه كان، وفي ذلك الزمن المبكر من حياته، "قد هاجر عن رضى وطواعية إلى تلك المناطق من عالم الشرق"، حيث كان يجد فيها "الحلوة ويصحب جمعاً يضم عظاماً"، ولعله تجرد الإشارة إلى أن سيرته الذاتية هي السيرة

وكان التسامع صمة عصر التنوير. فتجاوزاً مع روح هذا العصر أمسى المرء يهتم، إلى جانب اهتمامه بالكتاب المقدس، بالكتب المقدسة لدى الشعوب الأخرى، مؤكداً على أن هذه الكتب أيضاً تستحق الاحترام والتبجيل من قبل ذوي المعتقدات المغايرة. ومع هذا، فالأمر الملاحظ هو أن الآيات التي اقتبسها غوته من القرآن، وبالبلغ عدد الباقي منها في أوراقه أكثر من عشرين آية، تبين بجلاء أن ثمة تبجيلاً متميزاً يتصدى مساعي التسامع التي نادت بها حركة التنوير. فهي تشير إلى وجهات نظر إسلامية أثارت آنذاك إعجابه الشديد بها وذلك بفعل ما انطوت عليه من وجهات نظر قريبة الصلة بمشاعره وطرائق تفكيره الشخصية. وتبدأ مدونات غوته بسورة البقرة، التي ظلت سورته المفضلة حتى بلوغه سن الشيخوخة: فقد كان قد دون في البداية الآية رقم ١١٢ ذات المغزى الرابع الفاتلة: ﴿بَلَىٰ مَن سَلَّمَ رُجُوعُهُ لَهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وتلي هذه الآية الآية رقم ١١٥ لكثافته: ﴿وَكُلِّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَكُم وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ من ثم يتقبل غوته إلى الآية رقم ١٦٤ التي تقول: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَزْكَىٰ اللَّهُ مِنَ الْمَسَامِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَيَتَذَكَّرُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَايَةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْتَظَرِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وتعبر الآية أمكانه عن وحدانية الله. وفي الواقع لم يستق غوته ترجمة معنى هذه الآية من القرآن اعتباطاً. فغوته دأب على تسمين دعوة النبي محمد المباشرة إلى الإيمان بوحدة الله. واشتملت اقتباسات غوته، من ثم، على تأكيد القرآن على ضرورة تادية أعمال البر والإحسان. ولربما يمتد لنا المساحة الواسعة التي احتلتها، بعد ذلك، الدعوة إلى أعمال البر والرحمة والإحسان في الديوان عن اهتمامه الكبير بهذا الجانب من العقيدة الإسلامية.

وتؤكد الآيات الأخرى التي دونها غوته في العامين ١٧٧١ و ١٧٧٢ على أن مشيئة الله اقتضت أن لا تبلغ رسالته إلى البشرية عن طريق رسول واحد فقط، بل اقتضت أن ينهض بهذه المهمة أكثر من رسول. وهكذا دون غوته من سورة آل عمران الآية رقم ١٤٤: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبِهِ قُلْنِ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُجْزَىٰ اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وكذلك الآية رقم ١٧٩: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَسِي مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَمَاتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلُهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وكما هو معروف فقد جرت نقاشات مسهبة بين الشاب غوته وبين لافاتر Lavater حول ما إذا كان الله قد اجتنى المسيح فقط، أم أنه اجتنى رسلاً آخرين لتبليغ رسالته. وأسفرت هذه النقاشات عن خصومة آلت إلى قطع العلاقة بلافاطر. وكما تبين من الملاحظات اليومية التي دونها لافاتر، كان القرآن أيضاً، موضوعاً للنقاشات التي كانت تدور بينه وبين غوته آنذاك. وفي إشارة منه إلى النبي محمد سعى غوته جاهداً لاً يرشد لافاتر إلى أن تاريخ الإنسانية قد عرف أنبياء عظاماً خارج محيط التصرانية.

وتتو اقتباسات غوته القرآنية على أنه اعتمد اهتماماً شديداً بالدور الذي نهض به نبي الإسلام وبالمكانة التي حظي بها لدى أمته. فقد دون من سورة العنكبوت الآية رقم ٥٠ التي يرد فيها: ﴿... قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وامتدني أيضاً: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلكُلٌّ قَوْمٌ هَادٍ﴾ (سورة الرعد، الآية: ٧). وانبهر وشغف غوته طيلة حياته بالمغزى الذي انطوت عليه الآية الأضفة الذكر، وهو مغزى تقسمته الآية رقم ٤ من سورة إبراهيم أيضاً. ولعل في الرسالة التي بعثها عام ١٨١٩ إلى عالم شاب، خير دليل على انبهاره وشغفه بهذه الآية، فقد كتب مضمناً ما جاء في الآيتين المذكورتين آنفاً: "لقد صدق قول الله في القرآن"، "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه". وكرر غوته مضمون الآية القرآنية ذاتها في رسالة بعثها إلى الأديب الإنجليزي توماس كارلايل Thomas Carlyle عام ١٨٢٧، يقول القرآن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيًّا يُلَاسِنُهَا﴾

وتركت الاقتباسات من معاني القرآن الكريم للترجمة انطباعاً طويلاً لدى في وجدان غوته. فقد ضمن باليتين التاليتين من الشعر، اللذين نظمهما إبان مرحلة تاليغه الديوان الغربي - الشرقي، أي بعد مضي عقود من الزمن على استخراجه للآيتين من القرآن، ما جاء في الآيتين المذكورتين أعلاه من معنى:

لست قلداً على تحقيق المعجزات

مكذا قال النبي

إن أعظم معجزة هي أي موجود

ولهممت الدراسات القرآنية في العامين ١٧٧١ و ١٧٧٢ غوته كتابة عمل تراجمي من حياة النبي محمد لم تصلنا منه، للأسف، إلا بعض شذرات من نواته. ومع هذا، وبالرغم من قصرها، توضح هذه الشذرات عن النماحي الأساسية لما كان يشد غوته ويجلبه نحو الإسلام، أعني: شخصية النبي وكونه رسولاً لم يكف بالكلمة في نشر دعوته، مثله في ذلك مثل المسيح، بل جاهد واضل مستخدماً وسائل دنيوية بحثة أيضاً. ويتبين لنا عمق الإعجاب الذي كان غوته يكنه لشخصية النبي محمد من

ثم يظهر المشتري الجميل، فلا يلبث أن يصبح ملك الأفلاك الذي يحظى بمفردة بالقرصنة والابتهاج. غير أن هذا الأمر لا يدوم طويلاً، فيبعد برهة يتوسط القمر كبد السماء، فيستحوذ على بصر التسبد وقلبه، ولكنه سرعان ما ينتعش ويتقوى بروعة الشمس المشرقة فيفتح نحوها بالحمد والتسبيح. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن ينطوي عليه هذا التحول من فرح وبهجة، إلا أنه يظل مبشئاً للقلق، فالفضاء لا يزال يشعر بأن عليه أن يتجاوز كل ما شاهده ويعمل بذاثة لينرك الله، الواحد الأحد، السرمدا الأزلي الذي لا يحيط به حد وله وحده الحمد والشكر على خلق كل هذه الكائنات المحدودة الرائعة. وكنت قد نظمت هذه المناجاة بحب شديد، غير أنها ضاعت مني.

ومما يدعو للدهشة أنه استرجع ذكرياته عن هذا المشروع بكل دقة وعمق بالرغم من بلوغه سن الشيخوخة وضيق المسودة منه قبل ذلك بزمان طويل. ولم يُعثر على تشيد "ليس في مقدوري أن أفشي إليكم بهذا الشعور... إلا بعد موته؛ وكان غوته قد اختتم تشيده هذا بآيات رائعة نسبها إلى النبي محمد يقول فيها:

ارضع أيها القلب العارم بالحب إلى خالقك
كن أنت مولاي، كن إلي
أنت يامن تحب الخلق أجمعين
يا من خلقني وخلق الشمس والقمر
والنجوم والأرض والسماء.

ويتضح من هذه الآيات أن إيمان غوته بالطبيعة ينسجم مع التصورات الإسلامية. فاعتقاده بأن الواحد الأحد يتجلى في الطبيعة، فكرة مستقاة من الصور التي وقع عليها في ترجمة معاني القرآن.

وكانت عقيدة وحدانية الله من الأهمية بالنسبة إلى غوته، بحيث أنه جعلها محوراً لحوار تخيل أنه دار بين السفي محمد ومرصعته حليلة السعدية، حينما رآته واقفاً ليلاً في العراء، الأمر الذي أثار قلقها عليه فراحت تسأله: "أهكذا وحيداً في هذه البطحاة التي يرح فيها المصوص فلا تنعم بالسلم والأمان ولا ليلة واحدة." فأجابها قائلاً: "لم أكن وحيداً. لقد كان الله أقرب إليّ من حبل الوريد."

حليلة السعدية: وهل رأيته؟
محمد: ألا تريه؟ إنه يتجلى عند كل عين جارية؛ وتحث كل شجرة مزهرة... وفي حرارة عطفه ودفء حبه. له، سبحانه، الشكر والحمد - فقد شق صدري وأزال ما يحيط بفؤادي من غلاف سميك، لينفخ فيه اسمه جل شأنه.

حليلة السعدية: أنت في حلم أليس صدرك، وتبقى على قيد الحياة؟
محمد: إنني أتوجه إليه، سبحانه جلّ وعلا، طالباً منه أن يغفر لك وأن يحمك القدرة لتفقه في أعنيه.

خلال قصيدة المديح الشهيرة المسماة "تشيد محمد"، التي جاءت صيغتها الأولى على شكل حوار يدور بين الإمام علي وفاطمة ابنة النبي. وكان غوته قد دمج قصيدة المديح هذه في ربيع عام ١٧٧٣، أي بعد أن درس كل ما في متناول يده من مؤلفات عن الرسول. ويصور (غوته) النبي، بصفته هادياً للبشر، في صورة نهر يبدأ بالتدفق رقيقاً هادئاً، ثم لا يلبث أن يجيش بشكل مطرد ويتحول في عنفوانه إلى سيل عارم. من ثم تصور القصيدة اتساع هذا النهر وتعاظم قوته الروحية في رحفه الظاهر ليصب أخيراً في البحر المحيط، رمز الألوهية. وتقدم هذه الصورة على فكرة مفادها أن العقري الرباني يرى في الآخرين اخوة له يأخذ بأيديهم ويشدهم معه، متولفاً بهم كالسيل العارم الذي يجرف كل ما يصادفه في طريقه من جداول وأنهار إلى البحر المحيط:

... وهذا هو جري
في الزمان فخوراً بعبابه السلسال الفضي...
وأنهار الوهاد
وجداول النجاش
تهلل جميعاً من الفرح متصليحة،
خذنا معك! خذنا معك!
خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلي
الذي ينتظرك،
باسطاً ذراعيه...

وعنصر، من ثم، وبعد تغيير طفيف، قائلاً:
خذنا معك أنهار الوهاد
وجداول النجاش
خذنا معك! خذنا معك!
إلى البحر المحيط الأزلي
وينتهي غوته تشيد محمد قائلاً:

وعنصر إلى الأمان بأخوته
بكنوز، بآبائنا،

إلى أبيهم إلى خالقهم الذي ينتظرهم
ليضمهم إلى صدره،
وهو يهيك ويكبر زخراً للفرح العظيم.

وقد تضمنت هذا الآيات ثناءً ومديحاً عظيمين لم يسبق لأي شاعر أدربي في أي عصر من العصور أن استبهمها على نبي الإسلام.

وكما تبين لنا عند الحديث عن الآيات القرآنية التي اقتبس غوته معانيها من القرآن الكريم، تبين شدات تراجيدية محمد، أيضاً، بجلاء أن غوته كان قد أولى اهتماماً خاصاً لعقيدة التوحيد الإسلامية. وقد علق غوته في كتابه شعر وحقيقة، فكتب ما نصه: "بدأ المسرحية بتزئمة يترنم بها محمد وحده وقد أحاطت به سماء الليل الصافية. فهو في بادئ الأمر، يتبدد الأفلاك* التي لا تحصى على أنها آلهته.

على الاهتمام العميق الذي حباه لهذه المخطوطة المكتوبة باللغتين العربية والفارسية. من ثم وصلت إلى فايمار، بصحبة جنود التحالف الذين حاربوا ضد نابليون، جماعة مسلمة من البشكير، وكان غوته قد شاهدتهم وهم يؤدون الصلاة في المدرسة الثانوية البروتستانتية؛ وفي الواقع لم تكن هذه للمعيشة أول معايشة في حياته كلها يرى فيها رجل دين مسلماً فحسب، بل كانت أول مرة، أيضاً، يسمع فيها ترتيل سور من القرآن. بعد ذلك بفترة قصيرة، توجه إليه تاجر تحف فنية من لايسغ كان يعاني ضائقة مالية، فالتفت منه غوته لمخطوطات للمكتبة الأميرية في فايمار، وذلك بعد دراسة وافية أخذت من وقته عدة شهور. ولا ريب في أن هذه للمخطوطات الشرقية وما ضمت من دواوين لشعراء فرس وعرب كبار، أيضاً، قد حفزت غوته للسبر قدماً نحو لقائه التاريخي بكامل ديوان حافظ وذلك حينما أهداه الناشر «كوترا» في إيار/ مايو من عام ١٨١٤ نسخة من الترجمة التي قام بها يوسف فون قار لهذا الديوان. لقد كانت هذه الأحداث جميعاً مقدمات حفزت غوته لأن يؤلف الديوان الغربي - الشرقي الخاص به وذلك كمبارزة منه لديوان حافظ. فهو يسير هنا على خطى قصائده التي كان قد دبجها قبل أربعة عقود مشيداً فيها بالنبي محمد وبالدين الإسلامي ومتعلماً لأن تدفع هذه القصائد قومه لأن يتخذوا موقفاً أكثر إيجابية حيال الإسلام. وفي الواقع فإن كثيراً من قصائده الديوان مستلهم من كتاب الإسلام المقدس، أو وبعبارة غوته نفسه مستقى من «التراث القرآني العظيم». وهناك أبيات شرعية كان أحد نصفيها مستقى من أبيات القرآن ونصفها الآخر من تلميذ غوته، من هنا فقد أمتست هذه الأبيات غريبة - شرقية الطابع حقاً وحقيقاً. ولعل خير دليل على ما نحن في صدى الحديث عنه الرباعية التالية ذات النغمة التجسدية التي يقول فيها غوته: "لله المشرق/ لله المغرب/ والأرض شمالاً والأرض جنوباً/ تسكن أمانة ما بين يديه." وجاء في رباعية أخرى اشتملت على معان مستلهمة من ترجمات القرآن ومعان من صياغات غوته:

يريد الضلال أن يريكني،

لكنك تعرف كيف تلهيني.

فلن أقدمت على عمل أو أشدلت شعرأ،

فأتركت لي جلافة الطريق.

وباستخدامه عبارة "جادة الطريق" يزه غوته هنا بما يسميه المؤمنون المسلمون «الشرعة»، أي الطريق الحق الموصلة إلى المورد. إن هذا هو المعنى الأصلي لمصطلح «الشرعة»، الذي حُرِفَ كلمة من قبل الإسلام السياسي.

ويذكر ديوان غوته، أيضاً، على عمق الميل الذي كان يكنه الشاعر لعقيدة «الإسلام» الحق، أعني عقيدة الخضوع لإرادة الله ومشيئته. فكما هو الحال بالنسبة إلى المسلمين، يؤمن

حليمة السعدية: من هو ربك؟ أم هو بل أما القفاس؟
محمد: أيها القوم، ما ألتصمكم، ما ألتصمكم حينما تضرعون إلى الصنم معبرين له عن تجليلكم إياه وتسجدون للحجر الأصم طالين منه أن يحميكم ويرعاكم! أسمع هؤلاء تضرعكم؟ أوعوا دعاءكم؟ أقدموا لكم يد المساعدة؟

حليمة السعدية: إن الروح الساكنة في الصنم والمرفرفة فوق الحجر الأصم تني ما أقول، إن جبروتها خطير عظيم.

محمد: كم هو خطر؟ كم هي عظمتها؟ إنه نذ لثلاثمائة آخرين يقفون بجوارها، ولكل واحد منهم هيكلي يُقدم فيه للضرعون الفرائين. لو دعا أحدكم إلهه لمساعدته على جاره، ولو دعا هذا الجار صنمه أيضاً للوقوف إلى جانبه ضد جاره ذلك، أما ستبدو ألتحكم هذه وكثاين مجموعة من أمراء صغار يسود بينهم تنازع وصراع دائماً، أما سيفسد كل واحد منهم الأمر على الآخر.

حليمة السعدية: ليس لربك أنداد؟

محمد: لو كان له فكلاً واحداً، أكان يمكن أن يكون هو الله الأحدث؟

حليمة السعدية: وأين تكون سكناها؟

محمد: في كل مكان.

حليمة السعدية: هذا يعني أنه ليس له مكان معين. ألتدرك سواعد بمقدورك أن تجمدا لتحيط به؟

محمد: أشد قوة وأكثر تحرقاً من هذه السواعد التي أهداها نحوك شاكرأ لك حبك لي وعطفك علي. لقد أعطيت، منذ عهد ليس ببعيد، القوة على أن أستخدم ساعدي. أه يا أماء، لقد كنت أشعر كأنني طفل رضيع مقيد بالقضبان، لقد أحس ساعداي وقصدماي بسجن القضبان، إلا أن خروجي من ظلمة السجن لم يكن أمراً خاضعاً لمشيئتي.

إني أدعوك، اللهم، أن تنقذ البشرية من قيودها، فأعماق أعماقها، تتحرق شوقاً إليك.

ويدل هذا الحوار، من ناحية، على عمق اهتمام غوته بطفولة النبي كما نقلتها كتب السيرة النبوية، ومن ناحية أخرى، على إيمانه بأن هذه الأفكار تتسجم مع تصوراتها.

وكان غوته قد لمس، وفي وقت مبكر، ما في البيان القرآني من جمال وبلاغة. وهكذا كان قد شيد لنفسه في طور الشباب الأساس المتينة التي مكنته، حينما تقدم به العمر، من معرفة العالم الإسلامي معرفة أكثر عمقا، وذلك حينما حفزته سلسلة من أحداث تتسم بالغرابة على الاهتمام مجدداً بالقرآن الكريم وعلى التعرف على عالم الشعراء المسلمين في المقام الأول. وعاش غوته إحدى هذه الأحداث التي لا تخلو من الغرابة، وذلك حينما سلمه محاربون، كانوا قد عادوا إلى مسقط رأسهم فايمار، صحيفة مستقلة من مخطوطة تشتمل على سورة الفلق. وتدل محاولات الشاعر لمحاكاة الخط الذي كُتِبَ به للمخطوطة

غوته أيضاً أن الله قد حدد قدره سلفاً وأن التدين الحق يفرض على الإنسان التسليم بمشيئة الله والإذعان لإرادته. وينسجم مبدأ القدورية هذا مع ما جاء بكتاب «الأخلاق Ethik» لفيلسوفه المفضل آسينورا، هذا الفيلسوف الذي كان غوته تلميذاً مخلصاً له منذ الزمن الذي تصود إليه، أيضاً، الشذرات المتبقية من مسرحية محمد. ومن الأمور التي لها دلالتها على شخصية غوته أنه ظل مؤمناً بهذه العقيدة حتى عندما أصابته أقسى ضربات القدر وعضته نوابل الدهر. فعندما توفي راحيه وصديقه أمير البلاد الدوق كارل أغسطس، لم يكن منه إلا أن قال لحصده أكرمان وهو يتنهد حسرة ويرفض أي عزاء أو مواساة: "إنها مشيئة الله التي اختارها بحكمته، أما نحن البشر الفانيون فلا نملك إلا التحلي بالصبر". لقد كان غوته يؤمن في كل الأحوال، وفي حالات الوفاة على وجه الخصوص، "بالعناية الإلهية". وهكذا راح يقول عام ١٨٢٧ في سياق حديث له مع المستشار فون مولر: "إن حياتنا وأعمالنا رهن بمشيئة الله". وكثيراً ما كرر غوته تسليمه بالقضاء والقدر من منظور إسلامي. فقد تحدث في كتابه الموسوم «الحملة الفرنسية Campagne in Frankreich» عن مشاعره وهو يواجه، حالة اتسمت بمخاطر عظيمة عاشها عندما رافق القوات الغازية لفرنسا عام ١٧٩٢ قائلاً: "لقد أثقلت لي، عندما كانت المخاطر أعظم ما تكون، جبرية عياني، كما أنني لاحظت أن أولئك الذين يمارسون مهناً تهدهدهم فيها أعظم الاعتقار، يشعرون باستئساد أزهرهم وتعاطف قوتهم، عندما يؤمنون بهذه العقيدة. إن الدين الإسلامي خير شاهد على هذا".

وفي عام ١٨٢٠، عندما كانت زوجة ابنه تعاني من مرض عضال، كتب غوته بنية مشبعة بالإيمان بالقضاء والقدر إلى أحد أصدقائه قائلاً: "لا يسعني أن أقول أكثر من أي أحاول أن ألوذ بالإسلام". وعلى نحو مشابه كتب غوته عام ١٨٣١ بشأن وباء الكوليرا الذي انتشر في طول البلاد وعرضها يقول: ليس بوسع امرئ أن يقدم النصيح لامرئ آخر في هذا الشأن، لتختلج كل إنسان القرار الذي يناسبه. إننا جميعاً نعيش في الإسلام مهما اختلفت الصور التي نقوي بها عزائمنا". وحينما كان في الثمانية والثلاثين من عمره، وقبل وفاته بأربعة أسابيع فقط، كتب، عندما أوعيت الكوليرا الناس ثانية: "هنا، في المدينة وفي الريف، أظهر الناس رابطة جاش ملحوظة عندما أدركوا أن دعمها (أي الكوليرا) أمر مستحيل. فقد أغثت المستشفيات وما شابههم من مؤسسات. ولو أمعن المرء النظر لللاحظ أن الناس، رغبة منهم في التحرير من الخوف الفظيع، قد ألقصوا بأنفسهم في الإسلام وفي الأطمئنان لحكمة الله الخفية".

ترجمة: عدنان عباس علي

١ - ورد في الأصل الآية ١٠٦، والصحيح هو الآية رقم ١٢٢. ويصمر الاختلاف إلى أن الباشة أطلقت في ترميم هذه الآية والآيات اللاحقة من الترجمة الألمانية للقرآن الكريم، من هنا فإننا سندرج بشأن الآيات اللاحقة، أيضاً، الترميم الأصلي طباعاً. (للترجيم)

٢ - المقصود هو الشاعر واللاهوتي السويسري، Johann Kasper Lavater المولود عام ١٧٤١ والميت عام ١٨٠١ وتميزت شخصيته بصدقه الشديد لاكتكار فلسفة التنوير وذلك بسبب رفض هذه الفلسفة للتجريب الدينية والصوفية. (للترجيم)

٣ - أي الآية الكريمة: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم». ﴿

٤ - ليس بخلاف على المقاريء أن هذا كله ينطبق على النبي محمد، كما أعبرتنا بذلك سورة الأنعام، التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَرَأَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَآيَةٍ أَوَّلَ أَخْذٍ أَصْنَاءَ كَهْمِهِ إِنِّي لَأَرَاكَ وَفِرْعَوْنَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ رَأَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَيْكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَمَّا حَسَّنَ عَلَيْهِ الذِّلَّي رَأَى كَرِيحًا قَالَتْ هَذِهِ لَمَّا بَعِيَ لَمَّا آتَى قَالَتْ لَآ إِسْبَ الأَلْبَانِ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَتْ هَذِهِ لَمَّا دَلَّ قَالَتْ لَمَّا بَعِيَ رَأَى الْقَمَرَ فِي الْكَوْنِ مِنَ الْقُرُونِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغًا قَالَتْ هَذِهِ لَمَّا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَتَتْ قَالَتْ يَقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ عَمَّا تَكُونُونَ إِنِّي وَجْهٌ وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حِينًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾ (للترجيم)

* إشارة إلى تعبد النبي إبراهيم وقصته المذكورة في القرآن الكريم، إذ ربما حصل التباس لدى غوته.

فكرو وفن ٥٦ Fikrun wa Fan

نظرة جديدة إلى الاستشراق

أنا ماري شمل والتواصل الثقافي بين ألمانيا والعالم الإسلامي

تجسد وفاة أنا ماري شمل في السادس والعشرين من شهر شباط / فبراير للماضي، بالنسبة إلى الحوار بين ألمانيا والعالم الإسلامي، نهاية عصر بكل معنى الكلمة. ولا يعني هذا، طبعاً، أن الحوار الثقافي نفسه قد بلغ نهايته أو انقطع حين من الزمن، بل يعني أنه سيأخذ صيغاً جديدة كانت مجهولة حتى ذلك الحين؛ صيغاً قد لا يكون لمحتواها علاقة وثيقة بما درجنا على الأخذ به لحد الآن. ولكن، وقبل أن نبرز الخطوط العريضة لهذا المنحى الجديد المختلف، يجدر بنا أن نحاول تحديد خصوصية مفهوم الحوار الثقافي في ذلك العصر الذي كانت أنا ماري شمل آخر كبار رموزه؛ أعني العصر الذي تزامن فجره واتخذ صيغته المميزة له في مطلع القرن التاسع عشر. وكان يوهان فولفغانغ غوته (1749 – 1832)، أشهر رمز لهذه الحقبة من الزمن، فديوانه الشعري المبدع بين عام 1814 وعام 1819 الموسوم «الديوان الغربي الشرقي»، كان ولا يزال إلى يومنا هذا أشهر بيان يعلن اندلاع فجر هذا العصر.

وتضرب جيلود هذا العصر، الذي يقف غوته في مقدمته وأنا ماري شمل في نهايته، في حركة التوزيع الأوروبية عامة والألمانية منها على وجه الخصوص. وكانت دراسة اللغات الشرقية، وخصوصاً العربية والعبرية، وسيلة يتوخى المراء منها المعلن على فهم أفضل للكتاب المقدس. فالراء كان يمتي نفسه أن تقدم له العون على تعرف أكثر عمقاً لنصوص التوراة والاناجيل المكتوبة باللغة العبرية، كالتعرف على كنه الكلمات للمجهولة المعنى؛ إضافة إلى هذا كان المراء مهتماً بالتعرف على المحيط الجغرافي لمسرح الحوادث التي تحدث عنها التوراة والاناجيل، أعني أنه كان يسعى إلى تحديد مواقع المدن التي جرت على أرضها الوقائع المذكورة في الكتاب المقدس، وإلى إقامة الدليل على أن هذه الوقائع حصلت تاريخية. وهكذا كمن هدف تلك الرحلة، التي كانت واحدة من أكثر الرحلات العلمية إلى الشرق الأدنى كلفة في القرن الثامن عشر، أعني الرحلة التي نالت شهرتها الواسعة من خلال الوصف الذي قدمه عنها كارستن نيبور، في دراسة المواقع التي تحملت عنها كتب التوراة والاناجيل في المقام الأول، وليس في التعرف على واقع الحياة التي يعيشها العرب. بهذا، فحتى الدراسات

القرآنية ذاتها كان الهدف الأول منها هو الإحاطة، على نحو أفضل، بما ورد في الكتاب المقدس. من هنا فإن بمقدورنا، فضلاً، القول بأن هذا الاهتمام بالشرق كاد ألا يكون محاولة للتعرف على ذلك العالم الغريب، بل كان محاولة للتعرف على الذات؛ بهذا المعنى فإنه كان اقتراباً غير مباشر من الشرق، أي أن الاقتراب من الشرق لم يكن هدفاً بحد ذاته، بل كان حصيلة جانبية أثمرتها المساعي الرامية إلى التعرف على الذات. فحدد محدود من الشخصيات العلمية تخطى هذه العلاقة المحدودة بالشرق، وراح يكثف على دراسة الشرق اهتماماً بالشرق ذاته. ويتعين علينا أن نذكر، في هذا السياق، يوهان ياكوب رابسكه على وجه الخصوص، فهو كان، وبفضل ما بذل من جهود قيمة في منتصف القرن الثامن عشر، المؤسس الحقيقي للاستشراق الألماني.

إلا أن الأثر الأعظم على غوته، وبالتالي على أنا ماري شمل أيضاً، لم يأت من أولئك المستشرقين الذين تركزت مادة دراساتهم على الكتاب المقدس أو الدين بالمقام الأول، بل تأتي من أولئك المستشرقين الذين عكفوا على دراسة الدولة العثمانية تاريخياً وأدبياً. ونشأت هذه الدراسات في سياق التفاعلات الحربية مع العثمانيين؛ ومن هنا فإن جيلودها كانت تمتد إلى فيينا على وجه الخصوص. وكان هامر - بورجستال (1774 – 1806) من أكثر رموز هذه الدراسات شهرة. حقاً تمحورت غالبية هذه الدراسات حول التاريخ العثماني، إلا أنها، مع هذا، توجهت باهتماماتها إلى الأدب أيضاً، وإلى الأدب الفارسي على وجه الخصوص. فترجمة هامر - بورجستال لـ «ديوان حافظ»، المنشورة عام 1812 كانت إلهاماً دفع غوته لتبني القصائد التي حوّاها مؤلفه الموسوم «الديوان الغربي - الشرقي»، المنشور عام 1814. وفي الواقع فإن كلا الحداثين، أعني ترجمة هامر - بورجستال الشعرية لقصائد حافظ والمعارضة الشعرية التي قدمها غوته نفسه لهذه القصائد المترجمة، يستحقان منا أن نتحدث عنهما حديثاً موجزاً على أدنى تقدير. فكلتا الحداثين كانا بمثابة النموذج الذي حلل حله الحوار الثقافي الألماني مع الشرق إبان بداياته الأولى في ألمانيا. وأثبتت الدراسات المتخصصة بغوته أن أسلوب هامر

الإشارة هاننا إلى أن غوته نفسه لم يكن مستشرقاً، بل كان هاوياً يجاري المستشرقين. فهو لم يأخذ بناصية أية لغة شرقية، كما أنه لم يترجم، أبداً، بنفسه، وعلى نحو مباشر، قصيدة شرقية واحدة نقلًا من لغتها الأصلية. وكان الحال بالنسبة إلى هامر - بورجستال على النقيض من ذلك، فهو كان عالماً ذا شأن، إلا أنه، وبالتأكيد، لم يكن شاعراً كبيراً يبيع الشعر من خاطره. من هنا، ويقدّر تعلق الأمر بالاستشراق، فإتنا نعرض في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقط، على تلك الحال الشيئية بالحال التي اتسم بها العصران الإغريقي واللاتيني على نحو واسع. ويجدر بنا هنا أن نخص بالذكر شاعرين يميزا بإتقان اللغات الشرقية، أعني فريدرش روكرت وأغوست فون بلاتن، الذي ظل وللأسف مغموراً وأن كان أد يكون الشاعر الأكثر أهمية مقارنة بفريدرش روكرت، الأديب الأكثر شهرة منه من حيث الشاعرية والذي كان عطاؤه فاتحة ذلك التقليد الأدبي الذي سارت على نهجه أنا ماري شمل لاحقاً. فروكرت كان عظيم التأثير في أنا ماري شمل منذ سنوات طفولتها، كما تؤكد هي ذاتها في سيرتها الذاتية، فقد كتبت هناك قائلته: "ومن حيث الأهمية والتأثير فاق فريدرش روكرت كل الشعراء الآخرين الذين ملأت أصواتهم صديري بالغبطة والسرور أيام طفولتي وصباي." وليس ثمة شك في أن روكرت كان ولا يزال حتى يومنا هذا أهم شاعر في تلك ناصية ترجمة القصائد الشرقية، لا من حيث غزارة المادة فحسب، بل ومن حيث الجودة اللغوية أيضاً. وكان روكرت قد استلهم الشرق وتأثر به في القصائد التي دبعها من نبات الفساركة وبوحي من خاطره. وبوسمنا أن نقول أن روكرت كان القدوة العظيمة التي حذت حذوها أنا ماري شمل. إلا أننا نتكفي الآن بهذه التوضيحات، وذلك لأثنا مستشرق، في هذه الورقة، إلى روكرت وأنا ماري شمل في سياق آخر.

بهذا فإن الاهتمام الشامل والمعرفة العظيمة والطاقت الشعرية الفذة في الملامح التي ميزت بداية ذلك العصر الذي تحدثت عنه أعلاه، والذي حددت نهايته بوفاة أنا ماري شمل. وفي الواقع، وهذا أمر يؤسف عليه، لم يتصف مجمل هذا العصر بهذه الملامح المميزة. فلو قارن المرء المائة عام للمستد من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لأدرك، في الحال، عمق وغزارة الحوار الثقافي الذي تميز به النصف الأول من القرن التاسع عشر. خطأ الاستشراق، بصفته علماً قائماً بعد ذاته، خطوات كبيرة في المائة عام هذه، إلا أنه ظل، مع هذا، بلا تأثير يذكر في المحيط الثقافي العام وعلى الأدب بصفة خاصة. ففي هذه الحقبة لم يد شاعر ذو منزلة مهمة اهتماماً جدياً بالأدب الشرقية. كما لم يكن

- بورجستال في ترجمة ديوان حافظ كان أحد الأسباب التي تُفسر اشتنان غوته بحافظ. حقاً لم يكن هامر - بورجستال شاعراً كبيراً، إلا أنه، مع هذا، استطاع أن يقدم ترجمة لحافظ تسم بأسلوب أدبي سبق لغوته أن تأثر به في شبابه؛ من هنا، فقد شعر غوته بدافع قوي يدفعه للمعارضة الشعرية حينما التقى، وهو في الستين عاماً من عمره، عند حافظ، الشاعر الذي يتمي إلى عالم آخر بعيد عنه كل البعد، بهذا الأسلوب ثنائية. وفي الواقع، فإن حافظاً كان قد أسمى، وبالمعنى اللغزالي لهذه العبارة، ألمانيا، حينما التقى به غوته - الشاعر الذي لم يتكلم أية لغة من لغات الشرق. ومع هذا، فليس ثمة شك أن إعجاب غوته الشديد بحافظ وإقباله الحماسي عليه يدعوون للدهشة والانبهار؛ وينطبق الأمر نفسه، طبعاً، على حوارهِ الشعري مع حافظ، الشاعر الفارسي الذي رأى فيه غوته شقيقه التوأم. ومع كل سعادتنا بالإعجاب الذي كان غوته يكتنه لحافظ، لا يجوز أن نغيب عنا أن هذا الإعجاب قد تعرض في داخل حدود المعرفة الضيقة التي اكتسبها غوته بشأن حافظ وبشأن معلوماته العامة عن الشرق. من هنا، فإن الأمر الذي ينبغي علينا أن نقشدي به اليوم، لا يكمن في الجزئيات التي فحمت غوته لأن يكن إعجاباً شديداً لحافظ، وإنما يكمن في موقفه المفتوح على العالم وفي توجهه للحوار مع هذا العالم. كما أن المهم هاننا هو أن غوته كان، دائماً وأبداً، على وهي تام بتناحي التباين التي تميزه لا عن حافظ فحسب، بل وعن باقي الشعراء الذين عارضهم شعراً وتناولهم دراسة، فهو لم يحاول أبداً إلغاء تناحي التباين هذه؛ من هنا فقد اتخذ غوته موقفاً ميزه عن كثير من اللاتينين به، أولئك الذين شغفهم الشرق فهاموا به، نعم اتخذ موقفاً ميزه في بعض الأحيان عن أنا ماري شمل أيضاً. ولا مراء في أن هذا لا يقلل من أهمية إعجاب غوته بالشرق، فالأمر الواضح هو أن الوعي بالتباين والاختلاف هو الذي يعطي الفرصة للحوار (فلولا وجود التباين والاختلاف لكان الأمر حديثاً مع النفس لا غير).

وكان قد بدأ بهرد وغوته افتتاح أصيل على الثقافات الأخرى وعلى إنتاجها الأدبي، افتتاح يكاد أن لا يكون له مثل في العصور اللاحقة؛ وكانت المدرسة الرومانسية قد واصلت هذا المنحى، فاهتمت بأداب اللغات والثقافات الأخرى اهتماماً عميقاً لم تضاهها فيه أية مدرسة أدبية أخرى. علاوة على هذا، فقد كانت المدرسة الرومانسية، التي تنسب على نحو تقريبي إلى منتصف القرن التاسع عشر، الحقبة الوحيدة في ألمانيا، بقدر تعلق الأمر بالاستشراق على أدنى تقدير، التي نعرض فيها على اتحاد العالم الكبير والشاعر الفذ في شخص واحد. ومحمد



أنا ماري شمل في كراتشي سنة ١٩٦١

واستعمار الشرق الأقصى، من قبل فرنسا وبريطانيا. وعزز، أعني هذا الضعف، لدى المهتمين بالثقافة الاعتقاد بأن الشرق الإسلامي لم يعد مُحدِّثًا ذا شأن وأهمية في الشؤون الثقافية.

لقد كان هذا هو الموقف السائد حينما بدأت أنا ماري شمل تدرس الاستشراق في جامعة برلين أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين. وفي الواقع، لا يوجد سبب خارجي يبرر نفس الدافع الذي حدا بآنا ماري شمل لأن تتعلم العربية وهي في الخامسة عشرة من عمرها؛ فلا أبويها ولا معارف أسرتها كانوا على اتصال يذكر بالشرق، هذا إذا ما استثنينا أنها كانت، من ناحية الأم، سليلة أسرة كان أفرادها يجهلون البحار بلذات المتاجرة. وكانت أنا ماري شمل قد ذكرت في سيرتها الذاتية، المنشورة قبل وفاتها بعام واحد، بأنها كانت شغوفة باللغات وأنها كانت قد انكبت، آنذاك، على قراءة بضعة حكايات شرقية. وأثر في نفسها تأثيراً متميزاً الحديث النبوي (الشريف) الذي وقعت عليه في العام السابع من عمرها في سياق قراءتها لإحدى الحكايات؛ ونص هذا الحديث النبوي المعروف في كل أرجاء العالم الإسلامي هو أن (النامس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا). وتصف أنا ماري شمل في سيرتها الذاتية انهيارها بهذا الحديث النبوي فتقول: "في هذه اللحظة عرفت أن دربي يبدأ من هنا: لقد أصبح للشرق هو الهدف، الشرق موطن الحكمة الخفية الغامضة". وعلى ما اعتقد، فإننا لا نسيء

للمستشرقون الكبار يتوافرون على الإلهام اللغوي الذي يمكنهم من ترجمة الشعر الشرقي، أو لرما لم يشعروا برغبة داخلية، ملحة تدفعهم لمواصلة ترجمة الشعراء الشرقيين. من ناحية أخرى كاد النسيان أن يطوي الترجمات الشعرية وأن يمحو من الذاكرة الاقتراب والتعارف في المجال الأدبي. ولعل مؤلف غوته الموسوم «الديوان الغربي - الشرقي» خير مثال على ما نحن في صدد الحديث عنه. ففي وقت متأخر، في القرن العشرين على وجه التحديد، اكتسب هذا المؤلف الشهرة التي يستحقها، باعتباره أحد أهم مؤلفات غوته الشعرية؛ ويمكن للمرء أن يشرح التحول الذي طرأ على العلاقة بالشرق على أنه كان تحولاً من مُحدِّث يحاوره المرء ويستلهم منه - حتى وإن كان هذا المُحدِّث هو ذلك الشرق القديم الذي لم يبق منه أثر - إلى مادة يتحدث المرء عنها، أي أن المرء أمسى يتحدث عن الشرق ولكن من دون أن يكون لهذا الشرق تأثير يذكر على طرائق تفكير المتحدث. وتعددت أسباب هذا التحول، بحيث صار يصعب على المرء إيجازها ببساطة واحدة. ولكن، ومهما كان الحال، فإن الأمر البين هو أنه لم يكن من محض الصدفة أن يتزامن تحول الموقف الألماني من الشرق مع استعمار القوى الأوروبية الأخرى للبلدان الشرقية. ولربما كانت الأسباب الحقيقية لهذا التحول في الضعف الذي عصف بالدولة العثمانية؛ فهذا الضعف سهّل، بلا ريب، استعمار شمال أفريقيا، من قبل فرنسا،

وتثريه، بل صار ينظر إليه على أنه التقويض الذي يلوذ به المرء حياً بالأمن وربة في النجاة.

وتكمن جوانب القوة والضعف لدى آثا ماري شمل في أنها لم تنظر إلى الشرق بعين فاحصة بموضوعة ومدقة بنان وتجرد، بل كانت قد دأبت على النظر إلى الشرق من منظور متحسم متحيز، بعين المحب الهائم بشرق متخيل، شروق لا وجود له على أرض الواقع. على هذا النحو، أسس مستطاعها، من ناحية، أن تهيم بالشرق هياماً شديداً، ومن ناحية أخرى، أن تحجز عجزاً بيئاً عن رؤيته بكامل جوانبه، ومن يعلم، وربما كان مستطاعها فعلاً رؤيته رؤية كاملة، إلا أنها ما كانت تريد ذلك، أو أنها ما كانت تريد، أصلاً، تصويره على النحو الذي تراه. ويعني يرفع من مكانتها ويشهد على كرم خصالتها ظلت آثا ماري شمل متمسكة بذلك التقليد الذي كان يرسم للشرق صورة متخيلة، صورة كانت، في كثير من النواحي، تقليدية (إيجابية). وأرد التأكيد على أنني لا أريد طبعاً، حينما أبرر هذه الحقيقة، الانتقاص من شخصية وعطاء آثا ماري شمل العلمي. إن كل ما في الأمر هو أنه لا مستدوحة لنا من الإقرار بأنه استعمال، عملياً، على جبل آثا ماري شمل النظر إلى الشرق من منظور آخر - تماماً كما كان الحال بالنسبة إلى الأجيال التي سبقتها أيضاً. وتجعل هذه الاستحالة العملية، التي حالت دون معاشة الشرق معاشة مختلفة والنظر إليه من منظور آخر، نعم تجعل هذه الاستحالة، بالذات، آثا ماري شمل ابنة لذلك العصر الذي قلت عنه، في مطلع حديثي، بأن فجره بزغ بغوته. ويمكن للمرء أن يسوق تفسيراً مهماً لهذا الموقف، أي أن يسوق تفسيراً للسبب الذي جعل، عملياً، من المستحيل النظر إلى الشرق من منظور آخر غير متخيل. ومع اعترافنا بأن هناك أكثر من سبب، إلا أننا نرى أن السبب المهم جداً كان يكمن، وبكل بساطة، في أنه ما كان مستطاع المرء السفر إلى الشرق ورؤيته على أرض الواقع. ويوسعي، أن أردف، كتكملة لهذه الحقيقة، راعياً أن هذا العصر، الذي انتمت إليه آثا ماري شمل، قد بلغ نهايته منذ حين من الزمن. فكما هو معروف، فإن السفر إلى الشرق لم يعد يشكل مشكلة. ولربما أدركنا أهمية هذا السبب، حينما تقارن الحال السائدة حالياً بالحال المختلفة تماماً التي واجهتها آثا ماري شمل. لقد تزامن صياها مع أكثر الحقب ظلاماً في التاريخ الألماني. ولكن، وحتى وإن تجاهلنا السلطة النازية، فقد كان السفر إلى الشرق أمراً غير محتمل كلية بالنسبة إلى ابنة موظف في مرتبة متواضعة، كما وكان تعلم العربية، في سنوات عمرها الباكرة، موضوعاً يدهو للتصعيب والاستغراب. لقد كان بمقدور أغنى الأغنياء ورجال الأعمال، فقط، السفر إلى الشرق. أضف إلى هذا

إلى ذكرى آثا ماري شمل، حينما نقول بأن الشرق كان بالنسبة إليها، دائماً وأبداً، هو ذلك الشرق الذي دأبت على أن ترى فيه «موطن الحكمة الخفية الغامضة». ونحن لا نشك بأن الحكمة الخفية الغامضة تنتشر في الشرق أكثر من انتشارها في الغرب؛ ومع هذا فإن الأمر الواضح هو أن المنظور الذي لا يرى في الشرق غير موطن الحكمة الخفية الغامضة لن يركز اهتمامه على الشرق السائد على أرض الواقع بكل مشاكله وتمقيتهاته. وحسب اعتقادي يجسد هذا الترابط القائم بين الانبهار بالشرق، من ناحية، والحاجة إلى الهروب من العالم السائد حقاً إلى عالم متخيل، من ناحية أخرى، سجية مميزة اتسم بها العصر الذي أنا في سياق الحديث عنه هاهنا، أعني العصر الذي حظي فيه الشرق بالإعجاب. وكان غوته قد عبر عن هذا على نحو نموذجي حينما قال بشأن الدافع الذي يدفعه للاهتمام بحافظ: "إن كل ما صنته واحطته بالرعاية والاهتمام من مادة ومغزى مشابه (للمادة والمغزى عند حافظ) نطق به لساني وانبعث من داخلي بقوة فاقته القوة العظيمة التي كانت تدفعني إلى الهروب من العالم للموسم، الذي أسس يهدد نفسه بنفسه بكل وضوح، والهجرة إلى عالم روحي، أحظى فيه، حسب ما أشاء وبمقدار ما تسمح به عزمي وإرادتي، بقسط من البهجة التي يمنحها". وإذا ما أخذنا مأخذ الجد ما يذكره غوته وآثا ماري شمل بشأن الدوافع التي دفعتهما إلى الاهتمام بالشرق، فيكون بيسورنا عندئذ تحليل خاصية أساسية من خصائص العصر الذي يقف غوته في بدايته وتجدد آثا ماري شمل نهايته. فإذا تأتى الإعجاب بالشرق إبان عصر الباروك من أزمة دائمة النتائج - حرب الثلاثين عاماً - أزمة دلفت علماء عصر الباروك إلى التفشي في الأدب الشرقي عن شيء يفهم ويعينهم، كقاعدة وأسلوب لحياة أفضل، على سبيل المثال، أخلدين مؤلف مسعدي الموسوم «روضة الورد» (جلستان)، أو ما سوى ذلك من حكايات شرقية، فإن الأمر الواضح هو أن الأزمات والأحداث التي تسببت في الإعجاب بالشرق ثانية (بالنسبة إلى غوته تمثلت هذه الأزمات والأحداث في التحولات التي أفرزها العصر النابليوني والعصر اللاحق به؛ أما بالنسبة إلى آثا ماري شمل فقد تمثلت هذه الأزمات والأحداث، في البنالية، بالأزمة الاقتصادية الكبرى في نهاية العشرينات، ومن ثم باستلام النازيين رمام السلطة، أي أولئك الذين كان والدنا يأخذنا منهم مسوقاً حذراً وريان فيهم همماً عظيماً). نعم فإن الأمر الواضح هو أن هذه الأزمات والحوادث ما كانت تشكل، في الحيات العامة، دافعاً إلى التعلم من الآخر، بل شكلت دافعاً إلى الهجرة إلى هذا الآخر بهذا المعنى، وخلافاً للمعاني، لم يعد يُنظر إلى الشرق على أنه إضافة تعني العصر المعاش

كانت تظاً بإحدى قديمها أرض المستقبل، أي أرض حاضرتنا السائد حالياً، كانت لا تزال تنقف بقدمتها الأخرى على أرض القرن التاسع عشر بثبات وفي عمقه. فجنود مجمل ثقافتها الروحية كانت تمتد إلى هناك. حقاً كان هو فماتستل وويلكه أحدث الشعراء الذين قرأت لهم، إلا أنها ظلت تخص، بتجليلها العظيم وتقديرها الرفيع، وروكرت، كما سبق لنا أن نوهنا. ويلمس المرء هذه الحقيقة من خلال ما قامت به من ترجمات. فالغريب هو أن آنا ماري شمل قد ترجمت الشعر الشرقي الحديث وفق السجعية التي تميز بها وروكرت، أي بسجعية القرن التاسع عشر. فغالبية هذه الترجمات ترن في الأذن الألمانية، حقاً، كما لو كانت، من حيث الجودة وفي من حيث الضعف، من ترجمات وروكرت؛ فلفسة وروكرت تنطوي، في كثير من الحالات، على رنين يكاد أن يذكرنا، في يومنا هذا، بأساليب أكل الدهر عليها وشرب. وفي حين راحت آنا ماري شمل، سعيها منها إلى تصريف القارئ الألماني، تترجم بحساس قصائد بعض الشعراء الشرقيين من أبناء جيلها، كعبد الوهاب البياتي، الشاعر العراقي المحرف والذي كان يصفرها بأربع سنوات، إلا أنها لم تنحرف، أبداً، على أي جسر يربطها بالشعراء الألمان الكبار من أبناء جيلها. من هنا، لا عجب ألا تسامر لغتها لغة العصر الذي تحيى في كفه ولا ينسجم مفهومها للشعر مع طابع هذا العصر أبداً في الواقع الملموس.

والمؤسف هو أننا نعجز، في هذه العجالة وفي هذه المساحة الضيقة المتاحة لنا، أن نستعرض مجمل الجهود العظيمة التي بذلتها آنا ماري شمل، ولكن، ومهما كان الحال، فهي كانت قد قدمت، في سياق هذه الجهود، التي أثمرت على ما يربو على مائة كتاب منشور، خدمة جليلة للتصوف الإسلامي، على وجه الخصوص. فباهتمامها المركز هذا كانت قد عرّفت الكثير من الناس بموضوع من مواضيع الثقافة الإسلامية غاية في الأهمية، موضوع كان الاستشراق في ألمانيا قد تجاهله على مدى فترة طويلة من الزمن. وكان تركيزها على الجوانب الروحية في الإسلام قد منحها الحرية لأن تتنصل، على نحو خفي ولكن أكيد، من التيارات التقليدية في الإسلام. من هذا المنظور وفي سياق هذا التنصل لا مسراه أن في آن بوسننا أن نرى في عطاء السيدة شمل مؤشراً على تطورات مستقبلية. كما كان اهتمام السيدة شمل بالإسلام في الهند وباكستان أمراً ليس معناداً بالنسبة إلى الاستشراق الألماني التقليدي. فبهذا الاهتمام كانت السيدة شمل قد نهبت إلى أن منظور المسلمين للإسلام يتباين تبايناً ما كان بمقدور البحث العلمي التقليدي الإحاطة به؛ فهذا البحث كان يركز جهوده على أقاليم الإسلام التقليدية، أعني مصر والهند والصين وإيران. ويجدر بنا، أخيراً وليس آخراً، الإشارة إلى أن آنا ماري

إن المرء العادي، وخلافاً لما عليه الحال في يومنا هذا، حيث أمسى يستحيل على العروض الإخبارية والبرامج السياسية أن تتجاهل الأخبار المتعلقة بالشرق، وما كان يسمع من أخبار الشرق إلا ما ندر آنذاك. ففي تلك الحقيقة من الزمن، ومن وجوه عديدة، ما كان الشرق عالمًا قائماً حقاً وفعلًا، بل كان عالمًا بعيداً بعد اليونان القديمة والإمبراطورية الرومانية، عالمًا من اختصاص علماء اللغات القديمة لا غير. وإذا ما صافد وأن كان الشرق مادة إخبارية، فما كان ذلك إلا في سياق نزاع بين القوى العظمى وليس كعالم له وجود سياسي خاص به.

وكانت آنا ماري شمل في الثلاثين من العمر حينما سافرت، لأول مرة، إلى الشرق. وكان الهدف من سفرها إلى هناك هو التدريس في اسطنبول لمدة ستة أعوام. ولا مسراه في أن آنا ماري شمل، وإن كانت لم تعد شابة مبتدئة، قد سبقت برحلتها هذه، وبما انظوت عليه هذه الرحلة من معاشة مباشرة عميقة للشرق، عصرها وياقي جيل المستشرقين السابقين عليها. فغالبية المستشرقين من أبناء الجيل السابق على الحرب، وأبناء أجيال القرن التاسع عشر، على وجه الخصوص، ما كانوا قد أقاموا في الشرق حين من الزمن، لا بل أنهم ما كانوا قد سافروا إلى هناك أصلاً. وواصلت آنا ماري شمل رحلاتها حتى بعد انقضاء فترة تدريسها في أنقرة؛ بهذا فلا شك في أنها فاقت غالبية زملائها من حيث الاطلاع على عالم الإسلام ومشاهدته معاه. وبناماً على هذه المعاشة العملية للعالم الإسلامي (وهي معاشة لم تنلج، طبعاً، في حفزها على التحول من الصورة المثالية التي رسمتها للشرق)، يمكننا اعتبار آنا ماري شمل رمزاً لتعطّل مهم، أي يمكننا اعتبارها الشخصية التي أمتت علماً على نهاية عصر وبداية عصر جديد. وإقامة البرهان على هذا يمكننا الاستشهاد بالمهام الأخرى التي نهضت بها، مهام كانت، في منظورنا، نيرة وغاية في التقدمية في العديد من الناحي. فخلافاً لفصالية زملائها من المستشرقين، لم تكف آنا ماري شمل بالتدريس والبحث فحسب، بل كانت قد وظفت طاقاتها في تصريف أبناء جلدتها بمالم الإسلام، تماماً كما فعل الرومانيون ذلك فيما مضى من الزمن. ففي الفترة الواقعة بين الخمسينات والسبعينات كادت آنا ماري شمل أن تكون المترجمة الوحيدة للشعر الشرقي في ألمانيا. فلولاها لظل هذا الأدب مجهولاً عند القارئ الألماني. والأمر الذي يجلب الانتباه هو أن آنا ماري شمل لم تكن مطلعة على الشعر الشرقي الحديث فقط، بل أنها قامت بترجمة قصائد منه أيضاً؛ وكان هذا الحدث، أيضاً، وبلا ريب، سمة لا مثيل لها في تاريخ الاستشراق، ويرهانا أكيداً يشهد على المدى الذي سبق به آنا ماري شمل عصرها. ففي حين

إليها من خلال منظور شديد التحيز)؛ أضف إلى هذا أن الشرق كان قد أمسى مرتعاً خصباً للتخيل. من هنا لا عجب أن يلعب غوته، في مرحلة من مراحل إنتاجه، دوراً يُظهره كما لو كان شرقياً. ولا مراه في أن غوته قد كان على وعي تام بأنه يلعب دوراً لا غير، ولذا فإنه سرعان ما رفع القناع عن وجهه (ولعله تعهد الإشارة هاهنا إلى أن الكثير من المسلمين يأخذون لعب غوته لهذا الدور مسأخداً الجدد، فترام يزعمون وهم واقفون بأنه كان مسلماً).

وأتا ماري شمل، أيضاً، تقمصت الشرق بالطريقة التي تناميها. فقد دأبت على متابعة لعب دور المسلمة. وفي الواقع ليس هناك مستشرق (أو مستشركة) غربي تشيع بأفكار للمادة التي يدرسها بالمقدار الذي تشيعت به آنا ماري شمل. فمع أنها درجت على التأكيد باستمرار على أنها نصرانية الدين بروتستانتية المذهب، إلا أن شرحها للثقافة الإسلامية انطوى على الحرارة والقوة اللتين لا يتوقعهما المرء، عادة، إلا من مسلمة قوية الإيمان. ولم تأت الفتيود المفروضة على آنا ماري شمل من عجز في الإدراك أو عيب في البصيرة، بل تأتت من نقص في وضوح الانتقاء. فلأن الشرق والغرب يتدمجان ويذوبان في بعضهما عند آنا ماري شمل، لذا أمسى دورها كصلة وصل محصوراً داخل حدود معينة.

وتنطلق آنا ماري شمل من منظور مثالي يفترض إمكانية التماثل السلمي بين الحضارات. بهذا يمسى النزاع مع الآخرين حالة شاذة، يمسى خروجاً على القاعدة وحدناً عارضاً. وفي الواقع، لقد أثبت الاستقطاب بين الشرق والغرب أن تبرير تقارب الحضارات بأفكار تدعو إلى الانسجام والوئام لا غير، كان، دائماً وأبداً، أمنية ليس إلا، أمنية لا سند حقيقياً يدعمها. ومنذ حوادث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وما تبع هذه الحوادث من تطورات أمت غالية الناس تمى أنه لا جدوى من التفاهم المتبادل من دون إمعان الفكر بالأمور المهددة للتماثل بالانسجام ووئام ومن دون مناقشة مناحي الخطر هذه. من هنا، فبإمكاننا أن نؤكد بشأن الصفة المميزة للحوار والتبادل الثقافي في العصر التالي على آنا ماري شمل على ما يلي:

الأمير المطلوب الآن هو الحفاظ على الوعي بمناحي الاختلاف، الوعي بما يفصل بين الثقافات. كما يتعين تقبل مناحي الاختلاف هذه وتعلم العيش في ظلها. أما بشأن ماهية هذه الاختلافات، فإن هذا أمر يجب أن يقرره كل طرف بنفسه وأن يترك تحديده له بكل حرية. وفي الواقع، فإن هذا هو ممكن الإشكال: ففي عصر المعولة لم تمت الحدود الفاصلة بين الثقافات بينة واضحة المعالم، بل أمتت عناصر الثقافات تتداخل وتتفاعل على نحو

شمل نادراً ما كانت توجه بكتاباتنا إلى ذوي الاختصاص فقط؛ فغالبية مؤلفاتها كانت موجهة إلى الجمهور العريض أيضاً. فبالنسبة إلى كثير من الناس كانت كتب آنا ماري شمل بمثابة مدخل يمهّد لهم التعرف على الإسلام. وفي الواقع ما كان هناك مستشرق ألماني يضاهيها من حيث عدد القراء والقارئات. من هنا، وبكل إيجاز، ليس هناك أحد أدى ما أدته آنا ماري شمل في ألمانيا بالنسبة إلى شرح الإسلام لآبناء قومها وتميز معرفتهم به. وهكذا فقد كُرِّمت عن حق واستحقاق حينما منحت عام ١٩٩٥ جائزة تعبير من أشهر الجوائز التي يكرم بها الكتاب والمثقفون في ألمانيا، أعني جائزة السلام التي يمنحها ناشرو الكتب الألمان.

ولكن، لم قلت في مطلع حديثي أن عصراً معيناً من عصور العلاقة بين الشرق والغرب قد أشرف على نهايته بوفاة آنا ماري شمل؟ وحينما يأخذ المرء جهود آنا ماري شمل كافة في الحسبان، ألا يتعين علينا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أنه ينبغي علينا أن نواصل جهودها وصملمها وأن نسير على نهجها معنيين ذلك صراحة ومعترفين به على رؤوس الأشهاد؟ لا مراه في أن بوسعنا أن نفعل هذا كله. إلا أن ثمة مخاوف تساورني، مخاوف من أننا، بمسعاتنا هذا، سنفقد المنظور الشمولي الذي نستطيع من خلاله وضع يدنا على الإشكاليات الجديدة الخاصة بعصرنا، والتعرف على الإشكاليات الجديدة المتعلقة بالحوار بين الثقافات. فبالرغم من إشاراتنا بعناء السيدة شمل، لا يجوز لنا تجاهل الحدود التي أحاطت بهذه العطاء. ولا ريب في أن هذه الحدود كانت من إفرازات العصر الذي أنشأ آنا ماري شمل إليه وأنا واثق من أنها لن تشعر بغضاضة حينما أنسبها إلى ذلك العصر الذي أود أن أرسم ملامحه هاهنا ثانية. لقد بزغ فجر هذا العصر في تلك اللحظات التي انتهى فيها تهديد الدولة العثمانية لأوروبا. فبعدما درى الخطر أمت أوروبا على علاقة مختلفة بالشرق واكتسب اهتمامها به صيغة جديدة. فانطلاقاً من مشاعر التفوق التي صمت الغرب بدأ المرء يهتّم بشقافة الشرق وصار يحيط علماً بأن الشرق، بنحو ما، جزء من تاريخ الغرب. وذلك حينما أدرك، على سبيل المثال، بأن الشرق جزء من تاريخ الكتاب المقدس. وسرعان ما واح الغرب يسعى جامداً لالتهام هذا الشرق، التهامه حقاً وحقيقاً من خلال الاستعمار، والتهامه بالمعنى المجازي لهذه الكلمة من خلال ترجمة واستلهم نصومه الشعرية. وهكذا كان الشرق، من خلال التهام آدابها ترجمة واستلهمها ومن خلال التهام بلذاته استعماراً، قد غدا، ومن دون الخوض في التفاصيل، فرصة تعكس الذات، صورة للهوية التي تريد أن تكون عليها النفس، تجسيداً للرؤى والتصورات الذاتية (وطبعاً لا ينبغي هذا أن المرء قد أضفى على هذه الفرصة سجايا غريبة جداً ونظر



آغا ماري شمل في الست مع مجموعة من النساء

أي إذا ما تناولناها كما لو كانت ثقافة خالية من عناصر الثقافات الأخرى. انطلاقاً من هذا المنظور لا يمكننا إبداء الرأي بمجمل تلك الثقافة، بل بجانب من جوانبها لا غير. فعلى سبيل المثال، ليس شمة شيء أخصي وأكثر خطورة من اعتبار الأصولية الإسلامية هي الإسلام بعينه. ولا يقل عن هذا خيابةً وخطورةً نفي أن هناك أصولية تسعى إلى تحقيق أهدافها مستخدمة العنف. وعلى نحو معكوس يسري هذا، طبعاً، على الطرف الآخر أيضاً. من هنا، وعلى ما أرى، ينطوي لعن العولمة على سخط وغياء. فالملطوب منا هو أن نميز بين الجوانب السلبية والإيجابية لهذه العولمة.

وفي سياق مسعينا لتحقيق الهدف المنشود، أعني الوصول إلى تعايش سلمي بين الحضارات وخلق علاقة تطوري على الهام متبادل، لا مرأه في أن يوسعنا، في سياق هذا كله، ويرغم نقشنا لأثا ماري شمل، أن نستمد الصون منها في المقام الأول. من هنا يحسن بناء، فعلاً، أن نخلد ذكرها ونذكر محاسنها القيمة دوماً.

ترجمة: عفنان عباس علي

نص محاضرة ألقيت في معرض الكتاب بطهران بمناسبة ذكرى وفاء آغا ماري شمل.

فها نحن نستمتع في ألماتيا إلى الموسيقى الإيرانية، وها هم الإيرانيون في طهران يقودون السيارات الألمانية. وتقرّر هذه التطورات حالة تسم بالتناقض. ففي تلك اللحظة التي لا تكفي فيها مواظبة كلا الطرفين على تأكيد حسن النوايا وتجماع وجود العناصر الخالقة للتباين، نعم في تلك اللحظة ستأخذ عناصر التباين في الانتقال من ثقافة إلى أخرى والديبب في داخلها ديبباً يؤدي إلى تلاشي مناحي التباين القائمة منذ قرون وقرون. فالإسلام، الذي يسمى الغرب جاهداً لأن يتخذ حياله موقفاً واضحاً، غذا جزءاً من الغرب ذاته بفعل الحشد القفير من المهاجرين القادمين من البلدان الإسلامية. فلقد أسى لهؤلاء المهاجرين صوت يشارك في تحديد هوية الغرب؛ بهذا المعنى فهم جزء من عالم الغرب ومن عالم الإسلام في آن واحد. وأست الحال في العالم الإسلامي على شبه من هذا، ولكن على نحو معكوس طبعاً. حقاً لا وجود هاهنا للمهاجرين من الغرب، إلا أن السلع والأفكار الغربية، على وجه الخصوص، هي التي تهاجر؛ وكما هو بين تلعب هذه السلع والأفكار دوراً، سواء بالمعنى الإيجابي أو السلبي، مهماً في حياة الناس هناك. وهكذا، وسواء رضينا بذلك أم أبيتنا، لم يعد هناك وجود «للثقافة» الثقافي. بهذا، فنحن حينما نعن النظر في ثقافة أخرى فإن جهلنا هذا لن يسفر عن نتائج مهمة إذا ما تناولنا، شرحاً وتقييماً، مجملها،

أمريكا والمحكمة الجنائية الدولية

خلفيات وأبعاد قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٤٢٢

لم يحظ تبني مجلس الأمن الدولي للقرار ١٤٢٢، بعد قيام الإدارة الأمريكية بممارسة ضغط شديد على الدول الأعضاء، بالاهتمام الكافي من قبل الرأي العام العالمي، رغم أن أبعاده وتداعياته المستقبلية تمس جوهر قضائية القانون الدولي. كلوس كريس، الأستاذ في جامعة كولونيا والمتخصص في القانون الدولي والجناحي والعضو المشارك في الوفد الألماني، الذي ساهم في صياغة معاهدتها التأسيسية، يحلل الصراع الحاد حول صلاحيات هذه المحكمة الحديثة الإنشاء.

في الأول من شهر تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠ أصبح النظام الأساسي المكون للمحكمة الجنائية الدولية الجديدة نافذ المفعول. هذه المحكمة هي الأولى من نوعها، لأنها تتمتع بصلاحيات تخولها ملاحقة ومعاينة أفراد متهمين باقتراح جرائم ضد الإنسانية، جرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب الواسعة النطاق، إذا لم تكن السلطات المختصة في دولهم غير قادرة أو مستعدة للقيام بذلك. الإدارة الأمريكية الحالية، وبشكل مناقض للغاية مع موقف أغلبية الأمريكيين، ترفض حمل هذه المحكمة الفريدة من نوعها لكونها تطمح إلى شمولية وديمومة عملها على أسس القانون الدولي. لم يمر أحد عشر يوماً فقط على دخول المحكمة الجنائية الدولية مسرح الأحداث العالمية، حتى قامت الإدارة الأمريكية بممارسة ضغط شديد على الأطراف المتعاقدة، لنجحت من خلاله في تحديد نطاق عمل هذه المحكمة، خاصة فيما يتعلق برعايا الدول غير الموقعة على الاتفاقية التأسيسية هذه الدول الثلاثة. وقد سجلت «نتائج هذا الضغط، أي في تبني مجلس الأمن الدولي للقرار ١٤٢٢، والذي اتخذ في الثاني عشر من شهر تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠، ويحظر على المحكمة الجنائية الدولية القيام بإجراء تحقيقات للملاحقة برعايا الدول الثلاثة، وذلك لمدة عام كامل، حتى يتم اتخاذ قرار جديد.

الجدل الحاد حول قرار مجلس الأمن ١٤٢٢ يمكن اعتباره بمثابة الضرورة العليا للنزاع بين الحكومة الأمريكية والأغلبية العظمى للمجتمع الدولي حول ترسيخ هذه المحكمة. هذا التصعيد الحاد في أسلوب المواجهة يعكس أهمية هذه المحكمة، وجسامة للتغيرات المتوقعة، ولذلك ستقوم بعرض تفصيلي للحجج القانونية الخاصة بعملية إرسالها والتعليق عليها لتسليط الضوء على أبعادها وعواقبها المستقبلية.

القانون الدولي وقضائية المحكمة الجنائية الدولية

المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية تخولها - بصورة عامة - صلاحيات القيام بإجراء تحقيقات للملاحقة جرائم ارتكبتها مواطنو دول موقعة على هذه المعاهدة، أو جرائم ارتكبت على الأراضي الإقليمية لهذه الدول، وهذا يعني أن بمقدورها معاينة برعايا الدول غير الموقعة على معاهدتها التأسيسية في حالة ارتكابهم جرائم ضد الإنسانية، جرائم إبادة شعوب وجرائم حرب أخرى على الأراضي الإقليمية للدول الموقعة على المعاهدة المذكورة آنفاً. هذه المنظومة القضائية

تم التوصل إليها بعد مفاوضات صعبة وطويلة مع الوفد الأمريكي، الذي استغل موقع الأرجحية المطلق الذي باتت الولايات المتحدة تتمتع به، للحيلولة دون الوصول إلى هذه النتيجة. الصراع الشائك للوصول إلى صيغة مشتركة لنص المعاهدة التأسيسية وصل إلى طور دراماتيكي في الأسبوع الأخير لمؤتمر روما في صيف 1998، حيث قام الوفد الأمريكي برفض اقتراح كوري، أبه أكثر من ثمانين في المئة من الوفود المشاركة، يخوِّك للمحكمة صلاحيات واسعة للملاحقة رعايا الدول غير الموقعة على نظامها التأسيسي «الدول الثالثة»، خاصة إذا كان ضحايا الجريمة من رعايا الدول الأطراف في المعاهدة. والأهم من ذلك إذا قامت هذه بتقديم الحماية للمشتبه بهم. الوفد الأمريكي قام برفض الاقتراح الكوري، لأنه لم يف بمطلبه الرئيسي، وهو إرساء حق كل دولة في رفض ملاحقة رعاياها في كل حالة انفرادية. الليلة الختامية لمؤتمر روما شهدت جولة دراماتيكية نهائية، لأن الوفد الأمريكي قام بتركيز كل جهده على ضمان حق الدول التي لم تصدق على النظام التأسيسي للمحكمة، في رفض الملاحقة القضائية لمواطنيها، ولكن بدون نجاح. وأخيراً تم قبول «الصيغة النهائية» في روما من قبل الأغلبية الساحقة لدول العالم ضد أصوات ست دول، من ضمنها الصين، إسرائيل والولايات المتحدة.

لم تمر فترة وجيزة بعد انتهاء مؤتمر روما حتى قامت الحكومة الأمريكية بنشر ادعاء مضمونه أن صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية تشكل انتهاكاً لأجندات ومُسلمات القانون الدولي، وبرت هذا الادعاء بالإشارة إلى المُسلمة القضائية الأساسية التي تنص على أن الواجبات القانونية الناتجة عن أية معاهدة تلزم فقط الأطراف الموقعة عليها. وبمقتضى هذا المبدأ فإن المحكمة الجنائية الدولية تمتلك صلاحيات لمراقبة مواطني الدول التي تصدق على معاهدتها فقط. هنا أود القول، بكل احترام وتقدير: إن وجهة النظر الأمريكية تتعارض مع وجهات نظر أكثر من 139 دولة قامت بالتوقيع على المعاهدة التأسيسية لهذه المحكمة. علاوة على ذلك فإن مشروعية المحكمة لا تشكل اختلاقاً لواجبات جديدة من نوعها على حساب الدول التي لم تصدق على معاهدتها، ولما تُشكّل تجميعاً للحقوق التي تتمتع بها كل دولة بصورة منفردة. ما يجب الوفاء به لطرح إمكانية الشك العقلائي المتفق في شرعية صلاحيات هذه المحكمة، هو وجود حظر واضح لمنع التطبيق الجماعي لهذه الحقوق غير القابلة للتركيز. من ناحية مبدئية فإن هيكله النظام القضائي للمحكمة الجنائية الدولية تقوم على مبدئين مترفع بهما في نطاق القانون الدولي، وهما: مبدأ الاختصاص الإقليمي Territorialität ومبدأ الاختصاص الشمولي «العالمي» Universalität، ويمكن قراءة الملامح في الآتي:

- مبدأ الاختصاص الإقليمي يعطي كل دولة الحق في ملاحقة ومعاقبة كل اجنبي قام بانتهاك قوانينها على أراضيها الإقليمية.

- مبدأ الاختصاص الشمولي (قانون الصلاحيات الدولية) يخول كل دولة الحق في ملاحقة مرتكبي جرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب الواسعة النطاق، وذلك بمنزل تام من مكان ارتكاب الجريمة وجنسية المجرم أو ضحيته. جوهر هذا المبدأ، حسب المفهوم العام لكثير القانون الدولي، يكمن في طبيعة هذه الجرائم التي تم صميم شرعية القانون الدولي و «ماهية» التعايش البشري ككل. بالإضافة إلى ذلك فإن المحاكم الأمريكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أسهمت إسهاماً كبيراً في بلورة وإرساء هذا المبدأ كأحد قواعد القانون الدولي. والجدير بالذكر في هذا السياق هو أن القاضي الأمريكي الواسع الخبرة والعامل في محكمة العدل الدولية بورغنتال Buerghental أكد بمشراكة زميله القاضي هينس Higgins وكومونانس Kommoijmans شرعية سريان مفعول مبدأ الاختصاص الشامل في تقرير عام أصدره بخصوص نزاع بين الكونغو وبلجيكا. استناداً إلى هذه الآراء فإن وجهة النظر الأمريكية تعترف، وإن كانت على مضض وبكثير من الشك، بحق كل دولة في تطبيق القانون الدولي بمقتضى مفهومه الشمولي. وعلى ضوء ذلك، فإنه لا توجد أية ضرورة قانونية لتبرير التطبيق الجماعي لمبادئ قانونية معترف بها، كما أن الموقف الأمريكي لم يستطع الاستناد بواقع القانون الدولي وشفافية إجماع القانونيين في هذا الصدد. ومن هذا المنطلق فإن أي تقسيم آخر يجب أن يكون مشيراً للتناقض الشديد؛ لأن مصلحة المجتمع الدولي تكمن في الملاحقة الفعالة لهذه الجرائم البشعة، وتطبيق ذلك سيكون أكثر ضماناً إذا تم القيام به من قبل منظمة دولية تتمتع بالشرعية والشمولية كأداة مثالية لتحقيق هذا الهدف. الملفت للنظر هنا هو رد فعل الإدارة الأمريكية التي لم تقابل هذه الحجج بالاستهجان المتوقع، رغم مواقفها السياسية معروفة تجاه هذه المحكمة. من المعروف حق المعرفة، كأحد أبجديات جوهر القانون، أن الإدراك البرهاني التفريقي لموضوع ما هو الطريق للوصول إلى مغزاه، فعلى أرض الواقع لا يمكن تجاهل الحقيقة السياسية التي تؤكد على أن عمل المحكمة الجنائية الدولية لن يكون ملاحقة لأفراد فقط، وإنما تقسيماً لسلوكيات دول. ولهذا يتم المطالبة من قبل المعارضين للمحكمة بتفسير آليات عملها، وتبني مبدأ الحل الوسط المتبع في التعامل مع النزاعات الحدودية. الإجابة على هذا المطلب بسيطة ومقنعة في آن واحد، لأن تطور مبدأ الاختصاص الشامل لا يشهد بتجاهل الواقع السياسي المذكور أعلاه، وإنما يُجسّد نزوح الوعي «بتسوّط» دول في ارتكاب هذه

أمل أن تفهم وجهة نظري لأن مصلحتنا المشتركة تحتم علينا الحيلولة دون فقدان مجلس الأمن لمصداقيته وسلطته الشرعية. " وفي مناقشة جدلية تمتعت بقدر كبير من الشفافية عقدت في مجلس الأمن في العاشر من يوليو/ تموز عام ٢٠٠٢ قامت دول كثيرة بالتشديد على رفضها للاقتراح الأمريكي. السفير الأردني لدى الأمم المتحدة عبر عن استيائه بطرحة السؤال التالي: "كيف يمكن لمجلس الأمن تبني هذا القرار، بناءً على الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، إذا لم يكن هناك أي تهديد للامن والسلام في العالم؟" السفير الكندي أعرب عن تخوف بلاده من إشكالية قانونية جديدة، لأن بلاده "ستواجه وضعية قانونية لم يسبق لها مثيل تحتم عليها اختيار شرعية قرار المجلس". لكن الإدارة الأمريكية أصرت على جوهر مطالبها، وكررت التهديد باستخدام حق الفيتو في محاولة ابتزاز واضحة للمجتمع الدولي. الموقف المتعنت للإدارة الأمريكية، والتأييد المطلق له من قبل المملكة المتحدة أدى إلى "رضوخ" الدول الراضية له وتبني القرار ١٤٢٢. وكانت ردود الفعل الرسمية على تبني هذا القرار متباينة ومدهشة للغاية. السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان أعرب عن "ارتياحه العميق" للوصول إلى هذا الحل الوسط، رغم أن هذا الارتياح يتناقض نصاً وروحاً مع محتوى خطابه المرسَل إلى وزير الخارجية الأمريكي خلال مرحلة التصويت. الرئاسة الدولية للإتحاد الأوروبي والتي كانت تحت رعاية الدائمك وصفت تبني القرار بأنه "إيجابي"، مما يمثل لغزاً يصعب فهمه! وفي تناقض حاد ومثير للانتباه لردود المذكورة أعلاه، طلبت نيوزيلندا، البرازيل، جنوب إفريقيا وكندا من دول المجلس رفض صيغة القرار متسائلة عن مدى مشروعيته وذلك قبل طرحه للتصويت. التحالف الدولي للمؤيد لعمل المحكمة الجنائية الدولية، والمكون من شبكة عمل لأكثر من ١٠٠٠ منظمة غير حكومية استخدم لغة واضحة للتعبير عن استيائه الشديد، قائلاً: "لقد تم إلحاق الضرر بهيبة مجلس الأمن الدولي، لأنه تجاوز الصلاحيات المخولة له. لقد كان من العار على الدول المصدقة على المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية، السماح بتجاهل ميثاق الأمم المتحدة وانتهاك القانون الدولي."

وفي نفس الاتجاه صب النقد اللاذع الذي وجهه زعماء البرنامج البرلماني للدفاع عن حقوق الإنسان والقانون الدولي، وهي منظمة ناشطة تضم أكثر من ١٣٥٠ برلمانياً من ١٠٣ دول، حيث كتبوا معبرين عن سخطهم: "لقد قسام مجلس الأمن الدولي بإلحاق الضرر، ليس فقط بالمحكمة الجنائية الدولية والقانون الدولي ولكن أيضاً ببعيته وشرعيته، وذلك لأنه قام بتجاوز صلاحياته وتغيير معاهدة دولية متعددة الأطراف."

الجرائم البشعة. ولأن أغلبية الجرائم هي جرائم مرتكبة بشكل مباشر من قبل دول معينة، فإنه ليس بديهياً ومنطقياً أن تقوم هذه الدول «المشتبه» بها بالملاحقة القضائية الزبينة للمشتبه منهم من رعاياها. ويبرز جاز شديد فإنه يمكن القول إن الاقتراح الأمريكي، الذي يعطي كل دولة الحق في رفض ملاحقة رعاياها في كل حالة فردية، سيؤدي إلى فقدان المحكمة الجنائية الدولية لفعاليتها كأداة مناسبة لمحكمة مرتكبي أسوأ الجرائم وحيثية في العالم. وخشاعاً للجزء الأول من هذا التحليل يمكن استخلاص الآتي: صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية، المحدودة للأسف، ما يتعلق بالدول التي لم تصدق على معاهدتها التأسيسية، مسيرة للقانون الدولي، وقائمة على عقلانية مقننة وإدراك سليم لقواعد السياسة الدولية.

قرار مجلس الأمن الدولي ١٤٢٤ والقانون الدولي

في الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٠ قام الرئيس الأمريكي السابق كلينتون بالتوقيع على المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية، مما أعطى بصيصاً من الأمل في إمكانية إيجاد صيغة للتعايش السلمي بين هذه المحكمة والولايات المتحدة.

لكن معارضة الإدارة الأمريكية لعمل المحكمة ازدادت بشكل واضح تحت إدارة الرئيس بوش الابن، التي ألفت، في خطوة غير اعتيادية، توقيع الرئيس كلينتون على المعاهدة التأسيسية للمحكمة، وهددت بعرقلة بعضات الأمم الدولية الواحدة تلو الأخرى، إذا لم يتم إغفال الجنود الأمريكيين من المثل أمام المحكمة الجنائية الدولية. الإدارة الأمريكية قامت لاحقاً بأخذ زمام المبادرة، وهددت باستخدام حق النقض «الفيتو» لمنع تمديد الضغوط الدولي لقوات حفظ السلام المتعددة الجنسيات في البوسنة. الوفد الأمريكي قام بالاستناد إلى المادة ١٦ للنظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية والتي تنص على الآتي: "في حال قيام مجلس الأمن بتوجيه طلب إلى المحكمة الجنائية الدولية، استناداً إلى الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، فإنه لا يجوز القيام بإجراء تحقيقات أو ملاحقة قانونية وفقاً لمعاهدة المحكمة الجنائية الدولية لمدة ١٢ شهراً، وهناك إمكانية لتجديد هذا المطلب تحت نفس الشروط." هذه المبادرة الأمريكية شكلت استغفالاً صارخاً لأغلبية الدول التي صدقت على المعاهدة الإنشائية للمحكمة، وأدت إلى نوبة غضب عارمة عبر عنها السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان في رسالة فريدة من نوعها، وجهها إلى وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، قائلاً فيها: "إن المنهجية المقترحة تتناقض بصورة صارخة مع نص العقد الموقع عليه من قبل الدول الأطراف في المعاهدة الإنشائية، لأنه سيحجب هذه الدول على قبول قرار يعثر هذا العقد. كلي

السلام الأوروبية تبقى دون تفويض من قبل مجلس الأمن الدولي، لذلك فهي معتمدة على موافقة الحكومة البوسنية كخيار قابل للتطبيق. وانطلاقاً من التهديد الأمريكي باستخدام حق الفيتو، فإننا نعود تحليلياً إلى المادة ٣٩ لميثاق الأمم المتحدة؛ كما أنه لا يمكن تجنب طرح السؤال الآتي: هل يجوز لعضو دائم في مجلس الأمن الدولي استعمال حق الفيتو لخلق تهديد مصطنع للأمن والسلام العالميين؟ وعلى ضوء ذلك فإنه من الصعب تجنب الاستنتاج بأن التهديد الأمريكي المعلن باستخدام حق الفيتو يمثل إساءة استعمال لصلاحيات أعطيت للولايات المتحدة لميثاق الأمم المتحدة. السؤال المفتوح الذي يبقى حاضراً في الأذهان يتطرق إلى إمكانية حظر إساءة هذا الاستعمال من قبل ميثاق الأمم المتحدة، لأنه لم تمنح الفرصة لحكمة العدل الدولية للقيام بفحص جلري وتقييمي لهذه الإشكالية. إجمالاً يمكن القول: إن التهديد المدعى للأمن والسلام العالميين يمكن أن يُفسر كنتيجة من نتائج الاستخدام التهديدي الخاطيء لحق الفيتو، التهديد الحقيقي يكمن في التشكيك في هبة مجلس الأمن وشرعية القرار ١٤٢٢.

القرار ١٤٢٢ وتوازنات القوة والضعف

تبني القرار ١٤٢٢ وتداعياته لا يطرح أسئلة نقدية ذات زخم جنلي حول شرعيته فقط، ولكنه يجلب حقائق توازنات القوة والضعف إلى ضوء الواقع، وذلك بصورة نموذجية جداً. فغيبا يختص ببلور الولايات المتحدة الأمريكية في العالم الحالي الذي تسرع على عرشه "كقوة عظمى وحيدة"، فإنه أصبح جلياً أنها نجحت في فرض إرادتها ضد الأغلبية الساحقة لدول العالم، الرفضة مبدأياً وأخلاقياً للموقف الأمريكي. وعلى الرغم من ذلك فإنه لمن المشكوك به أن تتجسد الإدارة الأمريكية في تحويل مجلس الأمن إلى أداة لخدمة أولويات السياسة الأمريكية. وفي تطور جديد، أظهر الجدل الحاد حول مدى شرعية استخدام القوة ضد العراق أن سلطة مجلس الأمن الدولي، القائمة على بنود الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، "كتن لا يقدر بشئ"، ليس فقط للدول الضعيفة، ولكن للولايات المتحدة أيضاً. هذه الأزمة تظهر بشكل دراماتيكي أن شرعية الموقف الأمريكي تعتمد كل الاعتماد على هبة وسلطة قرارات مجلس الأمن. وفي هذا الصدد فإنه ينبغي الإصرار مبدأياً على احترام القرارات للزمنة التي يتبناها مجلس الأمن والهادفة إلى الحفاظ على السلام العالمي، والقيام بتطبيقها حتى في غياب هذا الاحترام. السؤال المطروح والذي لم يلق إجابة بعد هو: هل ينجم مجلس الأمن بدور الشك عن مصمم نطق بصلاحياته؟ أم يستسلم للتهديدات البسيطة له

ولكن بقول القرار ١٤٢٢ من قبل المجتمع الدولي، نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في فرض إرادتها بصورة جهرية، لأن هذا القرار وما يتضمنه من تأجيل واستثناء ساري المفعول على كل بعثات الأمم المتحدة لحفظ السلام. وخصوصاً إذا قام مجلس الأمن بتنفيذ نيته المعلن عنها، وتجهيز هذا الإضعاف في بداية شهر قور/ يوليو من كل عام، وهذا يعني أن الإدارة الأمريكية نجحت في الوصول إلى هدفها "بتقويض" وإعادة صياغة صلاحيات المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية.

ثم هذا "النصر" سيكون باهظاً، لأنه يعني إلحاق الضرر بمصداقية مجلس الأمن بشكل جاد وذلك لعدة أسباب: السبب الأول، هو الجدل الحامي الوطيس حول مدى شرعية القرار ١٤٢٢، لأن هذا القرار يجب أن يستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. كما أن المادة ١٦ للنظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية تشير إلى ضرورة توفر شروط معينة، قبل اتخاذ قرار بتأجيل ملاحقة المشتبه بهم.

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن الغزى العام للمادة ١٦ يستلزم وجود وضع سياسي معين يتطلب هذا التأجيل خدمة للأمن والسلام. ويمكن تصور السيناريو البراغماتي لهذا الوضع السياسي المعين من خلال التعاطي البناء مع عملية المفاوضات للوصول إلى هدنة بين أطراف متنازعة، وذلك بتأجيل ملاحقة المشتبه بهم لعدم عرقلة التوصل إلى هذه الهدنة السلمية. ومفازة مع هذا السيناريو فإن القرار ١٤٢٢ ليس قائماً على وضع سياسي معين، وليس له أية علاقة بذلك على أرض الواقع. كما أن الادعاء القائل بأن "التأجيل العام للملاحقة المشتبه فيه يعتبر أداة لحفظ السلام والأمن العالميين ضمن نطاق المادة ٣٩ لميثاق الأمم المتحدة"، يمثل ادعاءً مثير للريبة والشك. ومن البديهي في هذا السياق عدم اعتبار إمكانية التحقيق المجردة من قبل مجلس الأمن تهديداً للأمن والسلام العالميين، وإنما تعزيزاً لهما، لأنه تم التأكيد من جماعة وفاعلية عمل مجلس الأمن من خلال عمل مهمات حفظ السلام الدولية. ما يهدد السلام العالمي بصورة حقيقية، هو التهديد الأمريكي بالانسحاب من المشاركة في عمليات حفظ السلام. ولكن مجلس الأمن لم يقم بتقييم جلري للزعم لإدراك الأمر على حقيقته. فلو قمنا بافتراض مفاده أن الاتحاد الأوروبي كان مستعداً لتحمل مسؤولية حفظ السلام في البوسنة، فإنه من الصعب تصور الإنسحاب الأمريكي من للمشاركة في هذه القوات كتهديد حقيقي للسلام العالمي. النقطة الجوهرية هنا لا تكمن في التهديد الأمريكي بالانسحاب من قوات حفظ السلام، ولكنها تكمن في التهديد باستخدام حق الفيتو لمنع تفويضها، وذلك بغض النظر عن المشاركة الأمريكية فيها. وبالرغم من ذلك فإن قوات حفظ

صراعات السياسة العالمية المعاصرة. القرار ١٤٢٢ لم ينجح في تقديم أرضية للتعاون التكميلي بين مجلس الأمن الدولي ومحكمة الجنايات الدولية لدعم الشرعية الدولية. لكن هذا التطور لا يمثل نهاية المطاف، لأن الإدارة الأمريكية الحالية قامت بالتوقيع على ما أسمته "مسودة إجراءات لحماية وخدمة الأمريكيين American Servicemembers Protection"، التي تضمنت تصريحاً للقوات المسلحة الأمريكية "بالتحرير" الجنود المخطفين بنادقاً على طلب المحكمة الجنائية الدولية، مما يمكن أن يجعل مولندا، البلد المستضيف لهذه المحكمة، هدفاً لمهام عسكرية أمريكية يوماً ما! بالإضافة إلى ذلك بدأت الإدارة الأمريكية في التوقيع على اتفاقيات ثنائية مع كثير من الدول المصدقة على النظام التأميني للمحكمة لضمان عدم مقاضاة المواطنين الأمريكيين.

وينط خطورة وإبعاد هذا القرار دليلاً قاطعاً على تصعيد النزاع بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين. ما يدعو للأسف هو حقيقة عدم وجود خلاف من حيث المبدأ حول ضرورة وجود مثل هذه المحكمة بين أوروبا وأمريكا. وما يدل على ذلك هو قيام أوروبا بمساعدة الولايات المتحدة في إنشاء المحكمة الدولية للملاحقة جرائم الحرب المرتكبة في يوغسلافيا ورواندا. ويحسن احترام النظام القضائي الجديد القائم على الشمولية والديمومة، على حكومات الاتحاد الأوروبي، وبالتعاون مع دول أخرى، التصدي للموقف الأمريكي، لكي لا تسمي هذه المحكمة مشدّد للمناظرات السياسية فقط، ولا يتم تهيمشها وتحولها إلى محكمة لحل نزاعات حدودية جانبية.

كل ما يمكن الأمل به هو أن تساهم الإجراءات الأمريكية في إدراك سليم مفهوم القانون الدولي منذ بداية عمل المحكمة، لأنه من غير الممكن السماح لمجلس الأمن بتحديد صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية التي أعطيت لها بتوافق تام مع التشريعية الدولية. كما أنه ينبغي على الاتحاد الأوروبي المتحرك ككيان سياسي موحد ذي ثقل كبير، بدون انقسام بين "قديم" و "جديد"، للحيلولة دون تجديد القرار ١٤٢٢ في تموز/ يوليو ٢٠٠٣، لكي تحتار المحكمة الجنائية الدولية هذه الاعتداءات على فعاليتها ومصداقيتها، ولكي يبقى القرار ١٤٢٢ مثلاً مفترداً، بدون أية قيمة قانونية، لتعامل السعي مع الشرعية الدولية.

ترجمة: لوي المنعم

المصدر: مجلة "أوراق للسيااسة الألائية والدولية"، مجلة علمية تخصصية تعنى بأبحاث العلوم السياسية المعاصرة.

Blätter f. deutsche u. internationale Politik, 1078, 2002

من قبل عضو دائم فيه؟ وبالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فإنها مستفقد قدرأ كبيراً من مصداقيتها إذا لم تقم بإعادة صياغة القرار ١٤٢٢ في تموز/ يوليو ٢٠٠٣. علاوة على ذلك فإن تبني هذا القرار لا يترك مجالاً للشك في موقع الأرجحية المطلق الذي باتت الولايات المتحدة تتمتع به، في غياب سياسة خارجية مشتركة للاتحاد الأوروبي. من الصعب تصور هذه "الهيمنة الأمريكية"، إذا قام الاتحاد الأوروبي بتنسيق سياسة مشتركة مع كندا، نيوزيلندا، جنوب إفريقيا والبرازيل، بلورة موقف موحد للحفاظ على سلامة النظام التأميني للمحكمة الجنائية الدولية، وإذا قامت بالإصرار على العمل بنص روح ميثاق الأمم المتحدة. ولكن التأييد البريطاني للموقف الأمريكي حال دون الوصول إلى موقف أوروبي مشترك. وبالنظر إلى "محدودية" السياسة الأوروبية الخارجية القائمة على مبدأ الإجماع، فإنه لا يمكن فهم عدم قدرة الرئاسة الدولية الدانماركية للاتحاد الأوروبي عن الانتعاش عن مديح القرار ١٤٢٢ ووصفه "بحل الوسط الإيجابي". تبني القرار ١٤٢٢ أظهر بصورة جلية ضعف الاتحاد الأوروبي كلاعب دولي على مسرح السياسة الدولية.

السياسة الخارجية الألمانية بذلت جهوداً مثالية في الأيام التي سبقت التصويت على مشروع القرار ١٤٢٢، لمحاولة الحفاظ على سلامة المحكمة الجنائية الدولية، لأنها أكدت بكل وضوح على عدم وجود أرضية شرعية لهذا القرار القائم على الاتراح الأمريكي، وحذرت من "خطر فقدان مجلس الأمن لهيبته ومصداقيته". ومع ذلك لم تقم الحكومة الألمانية بما فيه الكفاية للحيلولة دون مديح القرار من قبل رئاسة الاتحاد الأوروبي الدورية، وترك انطباع يشير إلى عدم اتفاق موقف أوروبا مع موقف نيوزيلندا، البرازيل، جنوب إفريقيا وكندا.

وانطلاقاً من الموقف البريطاني المؤيد مسبقاً للولايات المتحدة، فإنه من الصعب فهم محاولة الاتحاد الأوروبي خلق انطباع وجود موقف سياسي أوروبي مشترك تجاه هذا الصراع. الثلاث للخطر في هذا السياق هو تناقض موقف المستشار الألماني غيرهارد شرودر الرفض بحزم لاستخدام القوة ضد العراق تحت كل الظروف، مع "ترجيع" السياسة الألمانية الخارجية من موقعها المبدئي المؤيد لعمل المحكمة الجنائية الدولية. السياسة الألمانية الخارجية لم تلزم بالموقف الأوروبي المطالب "بالحفاظ على سلامة ومصداقية النظام التأميني للمحكمة الجنائية الدولية"، وقامت بالتعاطي السلبي مع الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي التي مهدت القرار ١٤٢٢.

بعد وقت قصير من دخول النظام التأميني للمحكمة الجنائية الدولية حيز التنفيذ، دخلت هذه الهيئة الدولية حلبة

موضوعات حول الأخلاق

مئوية أدورنو

ولد الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٠٣ لعائلة يهودية ألمانية في فرانكفورت التي درس فيها أيضاً الموسيقى والفلسفة. وقد تردد كثيراً بين الفلسفة والموسيقى إلا أنه حسم خياره أخيراً لصالح الفلسفة ونال فيها إجازة الدكتوراة، إلا أن هذا لم يمنعه من مواصلة اهتمامه بالموسيقى.

بعد سيطرة النازيين على مقاليد الحكم في البلاد ترك أدورنو ألمانيا في عام ١٩٣٥ وسافر في البداية إلى إنكلترا ومن هناك إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل في "معهد البحوث الاجتماعية" الذي كان قد أسسه الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني ماكس هوركهايمر في نيويورك، بدلاً من المعهد نفسه الذي كان في مدينة فرانكفورت وهراف "مدرسة فرانكفورت". وباسم "النظرية النقدية" أخرجت في هذا المعهد دراسات نقدية عميقة للأسماية والاشتراكية. أصدر أدورنو وبلاشتراك مع هوركهايمر في عام ١٩٤٧ (في مناهة النيويوركي) أهم عمل نظري له بعنوان "جندلية التنوير". وعندما عاد "معهد البحوث الاجتماعية" في عام ١٩٥١ إلى فرانكفورت أصبح أدورنو رئيسه كما درس الفلسفة في جامعة فرانكفورت أيضاً. وحتى وفاته عام ١٩٦٩ كان أدورنو إلى جانب هايدغر أهم فيلسوف في ألمانيا.

تأثر أدورنو بدبالكتيك هيجل كثيراً ورغم أنه اعتبر فيلسوفاً يسارياً إلا أنه لم يؤمن بإمكانية تطبيق الاشتراكية على أرض الواقع. فمهمة الفيلسوف عنده تكفت في النقد، ليس نقداً للمجتمع فحسب، بل للمدارس والاتجاهات الفلسفية، خصوصاً فلسفة هايدغر، وأشكال مختلفة للفن الحديث والموسيقى.

ورأى جانب مؤلفاته الفلسفية المعقدة، نال أدورنو شهرته أيضاً من مقالاته النقدية حول الفن والأدب و "الموضوعات Aphorismen" التي جمعها عام ١٩٥١ في كتاب بعنوان "الأخلاق الصغرى Minima Moralia". وبمناسبة الذكرى المئوية ليلاده تقدم "فكر وفن"، وللمرة الأولى باللغة العربية، بمضماً من هذه الموضوعات.

تاريخ - مجتمع

في المجتمع الفردي، لا تتحقق فقط تلك العمومية من خلال فاعلية كل فرد واحد، بل إن المجتمع هو بشكل خاص، جوهر الفردانية.

إن المجتمع يبقى لكل إنسان بجميع فاعلياته، ذلك الشخص الخفي للتلظر، الذي يبقى من جهة دائماً في حالة طارئة، كي يقدم المساعدة، غير أنه من جهة أخرى، وينظر الإنسان، يبقى حجرة عثرة أمام إمكانية التوظيف أو العمل، وكأنه يلعب دور ضابط الموت المرشح أبداً.

إن المصطلح الاجتماعي للأشياء ليس أكثر من ذلك العذاب الماضي.

إنَّ الشيء الحقيقي، هو فقط تلك الأفكار التي لانفهم ماهية نفسها.

إنَّ المتعارف عليه، هو أنه في أي نص فلسفي، يجب أن تكون الجمل كلها متساوية، من دون نقطة ارتكاز محورية.

فقط الاعترا ب هو السَّمُّ المقابل لمفهوم الاستلاب في الماركسية.

إنَّ الكلَّ المطلق هو اللاحقية.

إنَّ عود الحش ب الذي في عينك هو أفضل عذمة تكبير.

الفلسفة هي تلك التي يُنظر إليها على أنها الوحيدة المسؤولة أبداً عن اليأس؛ فإذا كان من الممكن، بالتالي، محاولة النظر إليها، إلى كل الأشياء على هذا النحو، يصبح من الممكن استعراض نفسها، وتقديمها من نفس نقطة تحررها بالذات.

أخلاق

إنَّه لمن المُستبعد وجود حياة طبيعية في أخرى فاسدة وخاطئة.

إنَّ واجب الوظيفة التي من اللا يمكن حلها، لانتوقف فقط على قوة الآخرين، أو على احساسها الذاتي بالمجز بأن مشكلة تُحل، بل إنها تجعل من نفسها شيئاً تائهاً لا قيمة له.

إنَّ النقد الذاتي للمقل، هو إخلاقه نفسها.

إنَّ الذكاء ليس من صنف الاخلاق.

لم يعد هناك أي شيء يمكن أن يكون بلا معنى.

إذا كان بإمكانك أن تصبح محبوباً، بالذات، فإنَّه يمكنك حينها أن تُظهر ضعفك بدون أن تثير حساسية القوة.

إذا استطاعت الحياة الزوجية أن تحمي آخر الإمكانات، بحيث تتمكن من بناء خيمات إنسانية خصوصية في خيمات عمومية لا إنسانية، وقتها يصبح بمقدور تلك العمومية من أن تثار من انهيارها.

إنَّ الحياة تحوكت إلى سلسلة لانهاية لها من الرعب، بحيث غدت بين شقوقها، أماكن فارغة في المتصف، مستصعدة منهار.

إنَّ عملية التعنيم وما يمكن تسميته بالكشف عن الغيب، ليس سوى ميتافيزيق الناس الاغبياء.

إنَّ اللغة هي ذلك العنصر الجوهري الموضوعي، حسب مصطلح المجتمع له، غير أنه يبقى نفس العنصر أيضاً، حتى عندما يستعمل بنشأ فردي خالصي، بنظر المجتمع إياه.

إنَّ استحالة تقديم تفسير للفاشية أو عرضي واضح لها، يكمن، من حيث أنها لا تفسح في المجال سوى للأقلّ القليل، في كيفية تعاملها ووجهة نظرها للحرية التي تقدّمها للفرد، مقابل ما يقدّمه هذا لها؛ - إن الحرية اللامتكاملة يمكن التعرّف عليها، بغموض والتباس، لا تقديم ايضاحات أو شروح عن جورها.

إنَّ الجمعيات المتحررة الفعالة، لاتنمو بغض الإيقاع الذي تنمو على أساسه المؤسسات الكبرى. إنَّه نفس ذلك الإيقاع المدرّس.

إنَّ الحب الأعمى المتحمّس للسيارات، يتأرجح معه دائماً شعور فيزيائي بالتشرّد المكاني.

إنَّه لا توجد هناك حرية، طالما بقي لكل شيء ثمنه الخاص.

لو كان الناس ليسوا بشيء يمتلك، لكانوا أيضاً غير قابلين للتبادل مرة أخرى.

لا يمكن أن يكون تحرّر ومساواة، في مجتمع ليس فيه أساساً عدالة وحرية.

الضردية

حند الكثير من الناس، اعتقاد مُسبق، بأنه شيء لا أخلاقي، عندما يبدأ الإنسان حديثه، بضمير المتكلم «أنا».

ليس هناك شيء حقيقي في التحليل النفسي سوى المبالغة.

الحقيقة-الفلسفة

إنَّ التفكير الديالكتيكي ليس سوى محاولة، لكسر المنطق بنفس وسائل تقاليده وأسابيه المتعالية التعسفية.

في النهاية يبقى هناك الأمل، الذي لا يمكن الحصول عليه سوى من الواقع، الطريقة الذي ينشئ ويستلب بها، عبر شكل وحيد، يتم ظهوره من خلال الحقيقة فحسب.

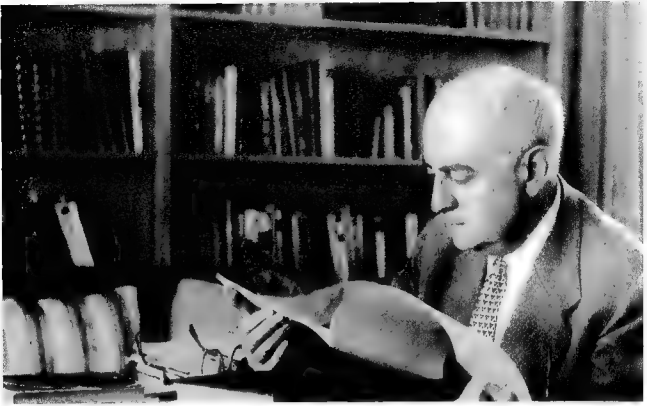


Photo: Bildarchiv Preussischer Kulturbesitz . أدورنو في سنة ١٩٦٣ .

وضع هذا التحقق موضع التنفيذ، كما أنه لابد من أن يفي المنطق الديالكتيكي بوعده، ويصب في منبهه، أو منشئه الأولي الأصل؛ ففي الحقيقة، لا يوجد هناك، من بين جميع المصطلحات للجرعة، مصطلح واحد قريب من «البيروتيسا» - الوهم الخيال سوى ذلك المتكون من السلام الأبدي.

إن الموقف الجيد، لا يحتاج سوى للتفكير، وليس للافتراض، كما لو أن المرء يمكن أن يكون بدون خوف، شيئاً آخر غيره.

إن الألماني إنسان لا يستطيع أن ينطق كلباً، دون أن يعتقد هو نفسه به ويصدق.

إن الإنسان لا يحتاج سوى أن يكون مستاءً أو غير راضٍ عما هو عليه، ليكون بالتالي، مهيباً للشبهة بتغيير أو تحسين العالم.

ترجمة: رياض العبد

استشهادات من: «حظائير أولية بسيطة حول الانحلال». ردود فعل ناتجة عن حياة مطعنة، (١٩٤٤ - ١٩٤٧)، ملحوظة من «تيرودور ف. أدورنو»، أعماله الكاملة، الجزء الرابع، فرانكفورت على الماين ١٩٨٠.

المصدر: © Suhrkamp Verlag, Frankfurt a. M. 1951

عندما يصبح الإنسان مشهوراً في آخر سنواته، أي عندما يصل إلى مرحلة إنسان حكيم ناضج، بشكل خاص، فإنه يمكن الاعتقاد، حيث، بأن حياته إنما كانت سلسلة من أعمال سيئة السمعة.

جمال. هن

لا جمال، أو شقاء، باستثناء ما يوجد في أفق النظر، الذي يحاول من داخل الفزع أن يستنه، ويمسك به، وذلك بنفس رهونة وخشونة الوعي السلي، يحدث هنا، كله من أجل إمكانية التحسين أو التجميل.

إن الحداثة كانت قد أصبحت في الواقع، لا حداثة أبداً، لأن الحداثة تتبع الكيفية، وليس التسلسل الزمني.

الفن هو السحر ذاته؛ يمكن أن يتحرك إلى حقيقة عندما يتحرر من الكذب.

يوتوبيا - سعادة

إن البحث عن السعادة، هو نفسه كالبحث عن الحقيقة، فهي ليست فيسا إذا كان المرء يحور عليها؛ بل فيسا إذا كانت هي فيه مكتونة.

على المرء ألا يكون كالحيراء مستلقياً أو طائفاً على الماء، وناظراً بسلام وطمأنينة إلى السماء؛ لأنه لا يمكن بدون القوانين التنظيمية، المستمرة في تطورها، التحقق في موقف ما، من إحدى القضايا أو المسائل - لذلك لابد من

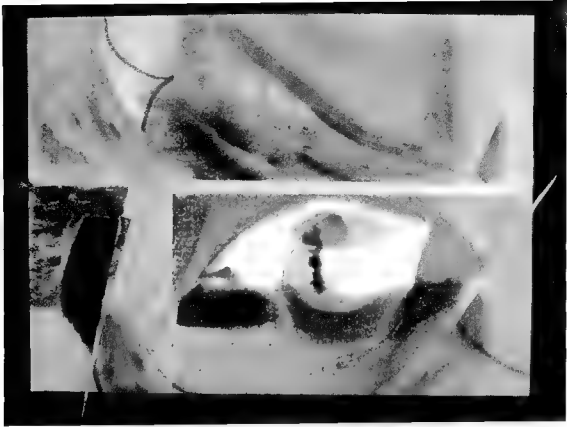
٢٥ عاماً على «غاليري فكر وفن»

شهادات وانطباعات

الفنان ثروت البحري في عام ١٩٧٦ كلفني مدير معهد غوته الاسكندرية د. فولفغانغ أوله بعمل نشاط ثقافي مكثف وشامل. وكان من الضروري عمل إطار لذلك، فتم استغلال الدور الأرضي من المعهد بمدخل خاص وأقيم «غاليري فكر وفن» بقاعة عرض وصالة استقبال. وقد سمي كذلك نظراً إلى ما تحظى به مجلة «فكر وفن» من جدية واحترام كبير لدى قراء العربية، حيث تعتبر هي ومجلة اليونسكو ضمن المراجع التي يعتمد بها في الأبحاث الأكاديمية. وقد حظي «غاليري فكر وفن» بشعبية عريضة في الاسكندرية ومصر كلها، حيث أقيم به ما يزيد على ثلاثمائة معرض لفنانين ألمان ومصريين خلال فترة إشرافي التي امتدت حوالي عشرين عاماً. وبهذا شكل معهد غوته بالاسكندرية علامة فارقة في الحركة الثقافية بالاسكندرية التي كانت تمر بفترة ركود ثقافي حيث لم يكن هناك منافس حقيقي لمعهد غوته في دعمه للفنانين خاصة الشباب. وكان النشاط يشمل محاضرات عن الآثار والموسيقى والأدب والشعر وبالتالي الفن في المنابر والموسيقى والأدب. إضافة إلى لقاء أسبوعي يوم الجمعة في حلقة نقاش مفتوحة بلا قيود تناقش كل شيء مما جعل المكان متفصلاً للتعرف على الذات وعلى الآخر في مناخ من الحرية كان الجميع بحاجة لها وهذا ما لم يكن متاحاً في مكان آخر في ذلك الوقت.

لقد تم الاحتفال عام ٢٠٠١ بمرور ربع قرن على تأسيس «غاليري فكر وفن». وكالعادة السنوية أقيم معرض الصالون السنوي لرؤاد الرسم الذين كانوا شباباً في ذلك الوقت مع الشباب الجدد. كنت قد انتقلت إلى القاهرة مديراً لمتحف الفن المصري الحديث وقد سجلت برؤية أعمال رؤاد الرسم، وهي مقتنيات في المتحف، وصعدت أيضاً بذهرتهم لي للمشاركة معهم في المعرض السنوي. لقد شعرت بأن ما قمنا به معاً في «غاليري فكر وفن» بالاسكندرية هو شيء نذكره بكل حب وتقدير، ومن الضروري أن أذكر أنه لو لا تأييد ودعم المدراء الألمان المتعاقبين للمعهد أولاً فولفغانغ أوله، أدولف تولمان، ديتير فولبريشت، ريتشارد شميدت ما كان ليحقق شيء مما ذكرته. واليوم يقوم توماس لير بالتعاون مع رؤاد الغاليري الأوائل بالعمل على استمرار النشاط بنفس الحميمية. إن معهد غوته كان خطوة فعالة وصائبية لبناء جسور تواصل بين الاسكندرية وألمانيا المعاصرة التي تحظى بمكانة خاصة وتقدير عميق من المصريين.

الفنان ابراهيم الطنبولي يعبر عن رؤيته لـ «غاليري فكر وفن»، فيعبره واحة ومكاناً خاصاً يلتقي فيه مجموعة من الفنانين يجتمعهم حب الفن، تثري لقاءاتهم حوارات فنية ومناقشات فكرية. أثر في الغاليري أعمال هؤلاء الفنانين بأسلوب التعبير الخاص لكل منهم، وتأكيدهم على أهمية حرية التعبير، مما يضعهم في مكانة خاصة في الحركة الفنية التشكيلية.



لوحة الفنان: مجدي موسى

الفنان مجدي موسى تم تأسيس الغاليري في معهد غوته بالاسكندرية على يد الفنان السكندري ثروت البهر ومشاركة مستمرة من فنانين أصبحوا اليوم أسماء مؤثرة يعطائها الفني في الحركة التشكيلية. ربطت بين فنانين الجاليري عوامل شكلت الوعي، والطريق، الانفتاح، الإيمان بالفن ودوره، والتمسك بقيم حرية الإبداع، خصوص غمار مناطق جديدة في التعبير الفني، واحترام وممارسة قيم المشاركة والتواجد.

على مدى ٢٥ عاماً، انعمد، وانفرط عقد جماعات فنية عديدة، وبقي "غاليري فكر وفن"، وسيبقى ممارساً لدوره من خلال ممارسة ومشاركة فنية، في إثراء الحركة الفنية التشكيلية.

منذ البداية، جذبي الغاليري، ليكون مكاني الخاص كما هو لكل الفنانين ومازال، وعلى رغم اختلاف وتنوع أساليب وأشكال إبداعاتنا، نقف دائماً متفقين على احترامنا وحبنا للفن وإيماننا بضرورة استمرارنا.

٢٤ صالوناً سنوياً، ورش عمل مختلفة مع مشاركين فنانين لمان، وآخرين. معارض خاصة وجماعية لفنانين عديدين من ألمانيا ومصر.

الفنان مدحت الكريوني لا يمكن إغفال دور "غاليري فكر وفن" في الحركة التشكيلية السكندرية/ المصرية فقد وسع من رقعة الإبداع التشكيلي، كان بمثابة النافذة، التي من خلالها دخل ضوء جديد وروية تشكيلية معاصرة، مغايرة. "غاليري فكر وفن" هو المكان الذي ولدت فيه تشكيليًا.



لوحة الفنان: سلامة فواد

الفنان سلامة فواد يحرص على إبراز ما قدمه الغاليري على مدى تاريخه من فكر وفن ومناخ ووعي فني وثقافي خلال رحلة أثرت في الحياة الثقافية الفنية، مؤكداً على خصوصيته كونه أنشأ داخل معهد غوته الذي احتضنه (الغاليري) طيلة هذه السنين.

الفنان والناقد التشكيلي عصمت داوستان يلخص تاريخ الغاليري في أنه "نشاط مثاق" ويقول: "الجزر غاليري فكر وفن تنشطاً فعالاً في مسيرة الفن التشكيلي بالاسكندرية طوال ربع قرن. منذ أن أنشأ الفنان ثروت البحر. تجاوز فكر وفن مفهوم ومحدودية قاعة العرض، ليصبح ملتقى إبداعياً وثقافياً ومدرسة غير مباشر لأجيال جديدة من المبدعين هم الآن يتولون أمر الإشراف عليه، كما التحمت فكرة المباشرة بين الحضارات والأفكار المتغايرة والأنماط المختلفة داخل هذا الرواق الفني الذي احتضنه معهد غوته.

تجاور «غاليري فكر وفن» الثقافة الألمانية إلى مزجها بالثقافة المصرية، وطالما كان هناك عشق خفي ومعلن بين الثقافتين فظهر هذا جلياً في أنشطة «غاليري فكر وفن»، وخاصة من شباب الفنانين، محور اهتمامهم الكبير والأساسي. الغاليري والمركز والمعهد أصبح لها مكانة بارزة بين المحافل الثقافية المتعددة الجنسية بالمدينة العالمية. الاسكندرية، كانت، ... وتعود من جديد مع افتتاح مكتبها الشهيرة. ولعل في هذا الإطار الحضاري والمفائل الجديد يصارد "غاليري فكر وفن" توجهه وطموحاته."



لوحة الفنان: عمرو هبة

الفنان عمرو هبة يلخص تجربته مع الغالييري، فيقول: "انضمت إلى مجموعة 'غالييري فكر وفن' عام ١٩٧٩، وعرضت أعمالي فيه لأول مرة. ومن خلال الغالييري كان احتكاكي بالحركة التشكيلية في مصر وألمانيا. مناخ الغالييري الفني ساهم بشكل أساسي في تكوين شخصيتي الفنية.

الفنان النحات أحمد السطوحى يعرض رؤيته لفعاليات ونشاط الغالييري، فيقول: "ترجع قيمة غالييري فكر وفن بمعهد غوته بالاسكندرية إلى دوره الفعال والمؤثر في المحيط الفني الثقافي السكندري، وترتب على دور الغالييري حركة ناعضة تفاعلت بقوة مع مراكز ثقافية أخرى، أنتجت حصداً فنياً وثقافياً رائداً مما أكسب المناخ الثقافي رخصاً تجسدت معاملة وتناجيه في جيل من الفنانين شاركوا في الحركة التشكيلية، ويتطلع مثقفوا الاسكندرية إلى اطار أرحب من التعاون، تحقيقه قاعة فكر وفن، يتلادم مع معطيات المستقبل.

الثقافة العربية في معرض فرانكفورت

حوار مع رئيس معرض فرانكفورت للكتاب فولكر نويمان

اعتاد معرض فرانكفورت الدولي للكتاب منذ عام ١٩٧٦ أن يقدم سنوياً منطقة أو دولة من دول العالم ضيف شرف على فعالياتاته. الفكرة بدأت مع أمريكا اللاتينية واستمرت مع أفريقيا وأوروبا إلخ. إدارة المعرض اختارت العالم العربي ضيفاً للشرف على المعرض في عام ٢٠٠٤. فكم وفن؟ تنشر هذه المقابلة مع رئيس المعرض عن أسباب ودوافع هذا الاختيار:

من هذه المناطق . وفي يومنا وعصرنا هذا تعد المبادرة بالحوار بين العالم العربي وباقي العالم أمراً ضرورياً. ولنضع النقاط على الحروف ونقول بصراحة إنه لا العالم العربي ولا الغرب قد اجتهدا بالقدر الكافي لتعزيز التبادل الثقافي. فأعمال الكتاب والمثقفين العرب نادراً ما تترجم إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، كما أنّ هناك القليل جداً من الكتابات الغربية المعاصرة المترجمة إلى العربية. لا بد لذلك أن يشغّر ونحن نود أن نعطي دفعة قوية لهذا التغيير.

■ ماذا سيحدث في معرض فرانكفورت للكتاب عام ٢٠٠٤؟

فولكر نويمان: الإجابة على هذا السؤال مرتبطة بالمنظمين. والمسؤولية تقع على عاتق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليسكو) ومقرها في تونس. لقد قام الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى بتكليف السيد المنجي بوسينة المدير العام لمنظمة اليسكو بالإشراف شخصياً على تنظيم الحضور العربي في المعرض. عموماً تستطيع الدول من حضورها كضيف شرف للمعرض من خلال عرض فنونها وثقافتها التقليدية والمعاصرة على نطاق واسع. ويضاف ناشرو هذه الدول جهودهم لتقديم برامجهم وللتوصل إلى شركاء مستقبليين لعمل عقود الترجمة.

■ ما هي العوامل الضرورية لنجاح الحضور العربي في المعرض في العام القادم؟

فولكر نويمان: إن الحضور القوي للكتاب الحرب في فرانكفورت سيكون حيوياً لنجاح التواجد العربي في المعرض. لقد جلبت روسيا التي كانت ضيف الشرف لهذا العام أكثر من مائة كاتب وكاتبة، قرأوا من أعمالهم وناقشوها على أرض المعرض في فرانكفورت وفي كل

■ معرض فرانكفورت للكتاب يعد أكبر تجمع للمتخصصين في مجال النشر وفي عام ٢٠٠٤ سيستضيف العالم العربي كضيف شرف وذلك في إطار مواصلة برنامج ضيوف الشرف البارزين الذي تنامي بقوة منذ عام ١٩٧٦. ماذا يعني ذلك بالنسبة للعالم العربي؟

فولكر نويمان: يمكننا أن نشبه معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت بأنه نوع من الألعاب الأولمبية للفكر والروح. في هذا العام كان لدينا أكثر من ٦٦٠٠ شركة من أكثر من مائة دولة وقامت بعرض أكثر من ٣٥٠٠٠٠ كتاب. وهذا يعني أن معرض فرانكفورت للكتاب قد صار بلا مناس. ويعني ذلك أيضاً أن العالم العربي سيجد فرصة متميزة وفريدة لتقديم القيمة الحقيقية لأدبه وثقافته. وكُنْابه.

■ كيف؟

فولكر نويمان: يولر معرض فرانكفورت للكتاب أكبر ساحة إعلامية في العالم حيث يوجد به ١٢ ألف صحفي من ٩٠ دولة تقريباً يكتبون تقاريرهم الصحفية عن المعرض، بل إن حجم المشاركة الإعلامية في المعرض يفوق المشاركة الإعلامية في الألعاب الأولمبية ونهايات كأس العالم لكرة القدم. وهذا يعني أنه لا توجد ساحة إعلامية مشابهة يمكنها أن تتيح للعالم العربي تقديم فنونه وثقافته المعاصرة.

■ لماذا قرر معرض فرانكفورت للكتاب دعوة العالم العربي ليصبح ضيف شرف في عام ٢٠٠٤؟

فولكر نويمان: يعد معرض فرانكفورت في المقام الأول وفي الأغلب حدثاً تجارياً، لكنه يسعى جاهداً للتمهيد للحوار بين الثقافات. وهذا ما جعلنا نبدأ برنامج ضيوف شرف المعرض في عام ١٩٧٦ بإضافة أمريكا اللاتينية. ومنذ ذلك الحين قدمنا دولاً ومناطق ثقافية متميزة من كل أنحاء العالم، وقد ساعد ذلك بالتأكيد على إبراز أصوات جديدة

يجب أن يسعد بالاستفادة من هذا الحماس الذي جعل لهذا البرنامج نجاحا فاقا عبر السنين.

■ الإطار الزمني المحدد للمنظمين يبدو ضيقا جدا. فإذا سلمنا بأن هناك أقل من أحد عشر شهرا باقية للتحضيرات، فهل هناك جدوى من القول بأن هناك أمل في أن استضافة العالم العربي ستحق نجاحا؟

فولكر نويان: بالتأكيدا يجعل الإطار الزمني الضيق للمنظمين أكثر تركيزا على عملهم ويقبلون عليه بحبوة ويعملون بفعالية في الاتجاه الصحيح. من الضروري تجنب

اتهام المالتيا. وقد ثبت أن هذه اللقائات كانت معيارا لنجاح الحضور الروسي في المعرض: لقد استقبل الإعلام والجمهور هذا الاحتفال الأدبي بتلهف، ومن المؤكد أن الأدب الروسي المعاصر مستمر في تعضيد حضوره في عالم الأدب.

■ ما الذي يجب عمله للحفاظ على هذا التأثير؟

فولكر نويان: من الضروري أن يكون هناك برنامج قوي لدعم الترجمة. فالثائرون في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ليسوا على استعداد للمخاطرة باستثمارات ضخمة

لتحويل الترجمة، وخصوصا بالنسبة للغات غير المعروفة كثيرا في "الغرب". وقد تكون تلك إحدى المشكلات. وسياجها الكتاب العرب وكتبهم في دور النشر الكبيرة مشكلة للمحررين الذين لا يستطيعون قراءة النصوص في لغتها الأصلية. لذلك فإن وجود نماذج من الترجمات مرفقة بتوضيح عام عن الكتاب، تعد من الأشياء الأساسية لجذب انتباه صائغي القرار في دور النشر. لقد بينت التجربة منذ عام ١٩٧٦ أنه طالما كانت هناك مثل هذه البرامج لدعم الترجمة فسكون للحضور بمعرض فرانكفورت

تأثير إيجابي مستمر على وضعية أدب البلد المضيف في أسواق النشر الرئيسية التي تنشر الترجمات عادة، وهي ألمانيا وفرنسا وهولندا وأستراليا والدول الاسكندنافية. وحينما لا توجد برامج لدعم الترجمة فإن تأثير معرض فرانكفورت يميل إلى أن يكون لفترة قصيرة الأمد.

■ كيف يمكن للحضور في معرض فرانكفورت أن يؤدي إلى انتشار واسع للثقافة العربية؟

فولكر نويان: يجب أن يتجاوز الحضور العربي نطاق المعرض، الحضور الثقافي للعالم العربي في معرض فرانكفورت للكتاب عام ٢٠٠٤ سيتوزع بين أرض المعرض حيث ستتركز الأنواء على ضيف المعرض ويأتي ألمانيا. وهناك عادة تعاون ما بين العديد من المؤسسات الثقافية الألمانية والدول المستضافة بمعرض فرانكفورت للكتاب سواء كان ذلك بالتعاون مع المنظمين أم بدونهم. في عام ٢٠٠٣ تم تنظيم أكثر من ٧٥٠ حدثا ثقافيا في كل أنحاء ألمانيا حول موضوع "روسيا" بما في ذلك المعارض الفنية والأفلام والحفلات الموسيقية وأشباه أخرى كثيرة. وكل من هو مسؤول عن التنظيم لحضور دولة ضيف بمعرض الكتاب



صالح جلال العظيم، منجي بوسني، فولكر نويان في المؤتمر الصحفي المشترك، فرانكفورت ٢٠٠٢. تصوير: Stefan Wiedner

أي تدخل خارجي، فسأى خطأ يمكن أن يلحق بالتنظيم ضررا جسيما. في الشهور الماضية اتضح لنا الهيكل التنظيمي الذي ستبنيه والعمل المرحق قد تم إنجازه بالفعل. لذا فإننا متفائلون بأن حضور العالم العربي سيحقق نجاحا كبيرا في عام ٢٠٠٤.

أجرى الحوار هولغر إيلنغ
ترجمه أحمد قاروق

فولكر نويان (٦١ عاما) هو رئيس معرض فرانكفورت الدولي للكتاب منذ عام ٢٠٠٢ التحق بمؤسسة المعرض بعد تقاعده للعديد من المناصب الكبيرة في صناعة النشر الألمانية لمدة ٣٠ عاما تقريبا. آخر منصب تولاها كان رئاسة التسويق الاستراتيجي لمدار نشر راندلم هارس في وسط أوروبا وأمريكا اللاتينية وتولى كذلك منصب المدير الإداري لمجموعة برتلسمان بورك في ألمانيا.

الشعر العربي في الأكاديمية الألمانية

العرب ومعرض الكتاب ٢٠٠٤

حين يخرج هذا العدد من المطبعة ويصيح بين يدي القارئ يكون عام ٢٠٠٣ قد لفظ أنفاسه الأخيرة. هذا العام شهد في نهايته حدثين مهمين للثقافة العربية في ألمانيا. الحدث الأول هو تبني معرض فرانكفورت الدولي للكتاب للعالم العربي كضيف شرف على المعرض لدورة ٢٠٠٤، (مقابلة مع رئيس المعرض في الصفحة ٧٦) هذه هي التسمية الرسمية التي درج للمعرض عليها منذ عام ١٩٧٦ في استضافة أدب شعب من الشعوب، معاني هي أن أدب وثقافة المنطقة (ضيف الشرف) يحتل الصدارة في نشاطات المعرض، بمعنى دعوة كتاب وإقامة أمسيات أدبية في أروقة المعرض وخارجها أيضاً. وحين سألت الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف هل هذه الدعوة اعتراف متأخر بالأدب العربي، أجاب: "أن يأتي (الاعتراف) متأخراً خير من ألا يأتي إطلاقاً". وإذا علمنا أن الأدب الروسي العظيم، الذي أنجب تولستوي ودوستوفسكي وتشيفخوف وباسترنك، كان ضيف الشرف لعام ٢٠٠٣ يزول استغرابنا. فنحن لسنا متأخرين والاعتراف، إذا كانت استضافة معرض فرانكفورت للكتاب تعني أصلاً اعترافاً، لم يأت متأخراً بالمقاييس الألمانية وحتى بأية مقاييس أخرى. المهم في الأمر أن يساهم الحضور العربي في معرض فرانكفورت إلى تنشيط حركة الترجمة بين اللغتين وخصوصاً من العربية إلى الألمانية وتقديم صورة حية للأدب العربي في هذا الحفل الدولي. وبلغت السياسة فإن الكرة الآن في مرمى الجامعة العربية، ممثلة العالم العربي الرسمية وفعرها الثقافي «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - اليونسكو» لتقديم عرض يليق بالأدب العربي ويزيل سوء الفهم الذي رافق اختيار بعض الترجمات إلى الألمانية مثلاً، بدورى تكريس ثقافة ألفت ليلة وأيلة أو الأعمال التي يجد فيها الغرب ضالته وتمزج الصورة التي كونها هو نفسه عن العالم العربي، ليأتي ويقول: ها قد شهد شاهد من أهله. ورغم مشروعية بعض التساؤلات حول أسباب اختيار هذا العمل أو ذلك، إلا أن دقة بسيطاً في قائمة الترجمات يكشف أن معظم الأعمال المترجمة إلى الألمانية تنكس إلى حد كبير واقع الأدب العربي (في الرواية: نجيب محفوظ، الطيب صالح، حنا مينة، عبد الرحمن منيف، إبراهيم

الكوني، سحر خليفة... وفي الشعر: بدر شاكر السياب، البياتي، محمود درويش، أدونيس...). ربما تكون المشكلة في الجانب الآخر إن ظهرت! بمعنى كيف ستعامل المؤسسات الثقافية العربية مع معرض فرانكفورت للكتاب؟ فاليد الواحدة لا تصفق، والألمان قدموا فضاهم الثقافي (معرض الكتاب) للعرب والآن جاء دورهم. ثم إن دور النشر الألمانية لن تنشر الكتاب العربي من أجل "سواد عيون العرب"، فالكتاب أولاً سلعة في عين الناشر قبل أن يكون ثقافة، وهو بالنسبة إليه مشروع تجاري، إنه يختار الكتاب الذي يتوسم فيه الانتشار والقبول لدى القارئ الألماني.

اليوم تفصلنا عن المعرض عشرة أشهر، فماذا نستنتج الجامعة العربية ونماد الناشرين العرب خلال هذه الفترة؟ سؤال طرحه بقل وكنا أمل أن تكون وسانا بلا أساس. فلتنتظر ونر.

نزول الشعر العربي عن عرشه

الحدث الثاني، هو احتفاء الأكاديمية الألمانية للغة والشعر بالشعر العربي. فقد افتتحت هذه الأكاديمية العريقة، التي اتخذت من الذكرى المئتين ليلاد الشاعر الألماني العظيم غوته تاريخاً لتأسيسها (١٩٤٩/٨/٢٨)، احتفالاتها لتزدهج أرفع جوائزها الأدبية بتكريم الشعر العربي (إقامة أمسية شعرية عربية في مدينة دارمشتات الألمانية، حيث مقرها، عطفاً على حلقة نقاش بين الشعراء العرب والألمان حول الشعر). وإذا كان ملهم الأكاديمية (غوته) سابقاً إلى إقامة جسور مع الشعر العربي والإسلامي فإن الأكاديمية لم تخلو حذو ملهمها بهذا المعنى. وإذا نظرنا إلى قائمة أعضاء الأكاديمية وأعضاء الشرف فسنجد اسم الشاعر السوري اللبناني فؤاد رفقة فقط من الجانب العربي مع شعراء وكتاب عالميين كثيرين. إلا أن احتفالات هذه السنة سدت نقصاً لدى هذه المؤسسة وربما لدى القارئ الألماني. بالطبع لن يكون لأمسية شعرية واحدة أثر السحر، لكنها جاءت في سياق طويل راكم حضوراً قوياً للشعر العربي في ألمانيا. بدأ هذا السياق بحركة الترجمة (ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الألمانية) التي أطلقها خالد المعالي وشتيهان فايدنر وسليمان

وقد ساهمت أسئلة رئيس الجلسة الشاعر الألماني هارالد هارتونغ لتصب الزيت على النار وتحول المناقشة إلى نسخة من المعارك الثقافية العربية حول الشعر لكن بلغة أهل المكان هذه المرة. هارتونغ طرح أسئلة كثيرة من نوع: "أين تكن خصوصية اللغة في القصيدة العربية؟ ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين الشعرين العربي والألماني؟ هل يقدّر الشعر الألماني التعلم من الشعر العربي؟"

هذه المناقشة الثرية أثرت الشعر العربي من عليها ووضعت في مكانه الصحيح في لوحة الشعر العالمي، "سؤال الشعر العربي، لم يعد سؤالاً عربياً، بقدر ما هو سؤال إنساني عام، والشعر العربي يعيش في عزلة وفي هامش كما يعيش الشعر الأوروبي والأمريكي"، هذا ما انتهت إليه المداخلة الدرويشية. لكن الشاعر الكبير لم يكن إنانياً، فهو رأى أنّ هذه الظاهرة صحيحة وأنّ من حسن حظ الثقافة العربية أن يخسر الشعر تلك "المكانة" التي احتكرها لنفسه زمناً طويلاً لثاني الأجناس الأدبية الأخرى، كالفنصة والرواية والمسرح، كي تنافسها، بل تنفوق عليه أحياناً. ربما النتيجة الأهم التي انتهت إليها مناقشات العرب عند ضيوفهم الألمان ومعهم، هي أنّ الحالة الثرية أصبحت السائدة في مشهد الثقافة العربية، وكل شاعر يكتب بالوزن أو بالإيقاع يعتبر شاعراً «سلفياً». وقد وحدت قصيدة النثر الثقافة العالمية، فلم تعد تعثر في أي قصيدة حديثة على خصوصية وطنية أو ثقافية، سوى اللغة، اللغة التي كتبت بها القصيدة.

وإذا كان الشعراء الألمان يطمحون إلى الاستفواء بزملائهم العرب والتعلم منهم حول كيفية إعادة القصيدة إلى عرشها، فقد اكتشفوا في درامشتات أنّ الشعر العربي ليس أفضل حالاً من شعرهم، وأنّ الشعراء العرب لم يعودوا ملوكاً في أوطانهم كما اعتقد رئيس الأكاديمية الألمانية للغة والشعر حين قدم ضيفه للجمهور الألماني.

توفيق وغيرهم، والتي وفرت للقارئ الألماني صورة عن الشعر الذي كان يجهله، وخصوصاً الأنطولوجيات الشعرية التي أصدرها المعالي وفايندر ولعل آخرها أنطولوجيا الشعر الفلسطيني الجديد للمعالي (بعد السماء الأخيرة). وجاءت إقامة أدونيس في ألمانيا قبل سنتين والنشاطات التي قام بها من خلال القراءات الشعرية والمقابلات والكتابات المختلفة وكذلك مؤرّع الشعر العربي الألماني في صنعاء وصندور مجلة «ديوان»، كل هذه الجهود أعطت حضوراً جديداً للشعر العربي في ألمانيا.

في درامشتات كان للجمهور الألماني لقاء مع الشعر العربي من نوع آخر، خصوصاً المناقشة التي تلت الأسمية الشعرية التي شارك فيها محمود درويش وفؤاد رفقة وقاسم حداد وعادل قرشولي ومحمد بنيس ونبيلة الزير وسلوى النعيمي وصفاء فتحي. وكعادته كان الشاعر الفلسطيني الكبير سيد الموقف. وصفاء فتحي على حق حين ميزت بين حضور محمود درويش كظاهرة، كشاعر هو نسيج وحده، وبين بقية الشعراء العرب. ربما تكون هناك لغة سحرية تجمع بين درويش والمتلقي مهما كانت لغته. فإذا قرأ درويش في السوربون، اكتظمت القاعة بالزوار وإذا حضر إلى قصر نام في مدينة صغيرة بألمانيا كدارمشتات تكرر الأمر نفسه، إذ حضر أكثر من خمسمئة شخص الأسمية الشعرية العربية.

وإذا كان درويش الفلسطيني أشدّ محبداً لمفهومه للسلام: "السلام كلام المسافر في نفسه/ للمسافر في الجبهة الثانية" فإنّ سداخله في المناقشة العربية - الألمانية حول الشعر، غيّرت مسار الجلسة لتتحول إلى نقاش عربي - عربي حول الشعر العربي. كلام درويش في ألمانيا حول خصوصية الشعر العربي وهويته، حركت النقاش نحو الذات وكأنّ الشعراء العرب كانوا في توق إلى مكان بعيد يعيشون فيه إنتاج مقولاتهم عن الحدائث وقصيدة النثر والوزن والثقافة.

Stefan Weidner محمود درويش ومحمد بنيس في درامشتات، تصوير: Stefan Weidner



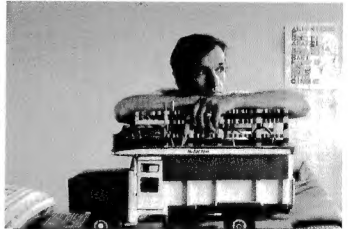
الفنان الايطالي وأفغانستان

سافر أليغيرو بويتي Alighiero Boetti إلى أفغانستان للمرة الأولى في آذار/ مارس عام ١٩٧١ وبقي فيها لمدة شهر. وواظب على السفر إلى هناك سنويا حتى عام ١٩٧٩، حينما غزت القوات الروسية البلاد، وكان يمكث لفترات طويلة. في عام ١٩٧١ عهد إلى النساء الأفغانيات بتنفيذ أولى صورة المزرکشة هناك. وكانت تلك بداية لإنتاج العديد من الصور المزرکشة على مدى سنوات طويلة، وذلك حتى موته عام ١٩٩٤. قام بويتي بدراسة التراث العريق والهيام للمبادئ اللغوية والرياضية المتنوعة للشرق والغرب. ويهتما في هذا السياق بالذات أن تركز على النصوص المزرکشة والتي تعرض لواحد منها هنا، حيث أنها ترمز للهدف الرئيسي للفنان، ألا وهو أمانة امتزاج سلوكيات ومثل ومعتقدات الشرق والغرب مع بعضها البعض من خلال عملية امتزاج النص بالصورة. كان بويتي يشعر بقربه من طريقة تفكير المتصوفة وقد قضى ساعات طويلة في النقاش مع شيخه، الشاعر الصوفي بيرانغ من إخوة البلخ الذي أبدى اهتماما كبيرا بالأعمال الفنية لتلميذه. «فكر وفن» اختارت للغلاف الخارجي لهذا العدد لوحة بويتي منقوشة عليها القصيدتان أدناه:

٢٥ في ٢٥

خمس وعشرون في خمسة وعشرين
ستمئة وخمسة وعشرون حرفا
في مائة لون هي ألوان
العالم التي ستصبح فيما بعد لونا
واحدا، لون الأرض، ثم تفضل مرة أخرى
لتنحلل بعد ذلك وتتبدد في الزمن
وزمن الصيرورة يصبح بعد ذلك ريحا في يمشاور
أليغيرو بويتي ونأي
ناهم يتغلغل في قلبك ويجعلك قريبا
من الآلهة في تسعة وثمانين.

قلبي المكسور عشتان للون، مرة أخرى،
خارق في الدماء، هل لا يزال عاشقا للحرب؟
يا مجاهداً، حياتي وروحي ملك يديك
لا تزال خطاك تتركش كل صخرة تطأها
صبرحتك هي العدل وحق الله المجيد
لا تزال تقتني آثار العدو الذي لم يعد سوى ثعلب أعرج
بعوض بلادنا ولملها وطيرها وجنادها
لا تزال في عين الروس الملاحين ثمورا وسباعا
تقهقر روسيا المهزومة له وجه العار
لا تتجاهل هزيمة الجيش الأحمر، لأن عين الثعلب
لا تزال مصوبة وسط الفوضى نحو الحدود.
البائس يرغب في العودة إلى السلطة، رغم أنه
لا يزال مقتونا بمنع الغرب المشينة
قصص كرمال وشاهمال ودافرمال
لا تزال تروي في مجالسنا ما حدث
من طرقي إلى غيب، كلهم خانوا الله وخانوا أخوتهم
ويلدروا الحزني في كل بيت من بيوت بلادنا
لا يعرف الملوك سر حريتنا، لأن
رجال ساحة القتال ليسوا سوى مفكرين ودرعين.



الفنان البيررو بويتي مع موديل شاشة أنشائية، ١٩٨٥ - تصوير: Giorgio Colombo

صورة الغلاف الخارجي من الحلق:
Alighiero Boetti: "Venticinque per venticinque..."
Embroidery, 1989, 103 x 110 cm.
From the catalog: "Alighiero e Boetti"
Exhibition from 8th April to May 1999
Galerie Guy Bartsch, Geneva

رمز وثني من كافرستان -
تمثال خشبي لامرأة عجوز

